العدد 6 - صفر - 1440 هـ / تشرين الأول 2019 م

مقاربات

مجلة فصليّة

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري
SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

نحو قيادة رشيدة للعمل الثوري

وثيقة المدينة ودورها في إرساء المواطنة

مفهوم التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين

القومية ودورها في تفكيك وحدة الأمة الإسلامية

المشروع الإيراني الصفوي في المنطقة العربية

مُقاربات

تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

أسـرة التـحـريـر

رئيـس التـحـرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

مـديـر التـحـرير: الدكتور حسـن أحـمـد الخـطـاف

مستشار علمي: الدكتور مـحـمـد أيمـن الـجـمـال

الـمـحـرر: الأسـتـاذ مـحـمـد عـلـي النـجـار

المسجد العمري - درعا

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبـر بالضرورة عن رأي المجلة

البـريـد الإلكـتـرونـي للـمجلـة: jou@sy-sic.com

محتويات العدد

- نحو قيادة رشيدة للعمل الثوري – رئيس التحرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر ٢
- وثيقة المدينة ودورها في إرساء المواطنة– د. عبد العزيز محمد الخلف ٥
- مفهوم التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين– د.مجدي محمد قويدر ١٥
- العدوان الثلاثي على الوعي – د. عبد الجواد حردان ٢٦
- القومية ودورها في تفكيك وحدة الأمة الإسلامية– د.محمد سليمان الفارس..... ٣٧
- المشروع الإيراني الصفوي في المنطقة العربية– الباحث عباس شريفة ٤٧
- المضامين التربوية في سورة يس – الباحث: عامر خطاب ٥٧
- استشعار المسؤولية في القرآن الكريم– أ. د. حسن الخطاف ٦٦
- مدخل إلى السياسة الشرعية – أ.د. ماجد الدرويش ٧٤
- وعي الحياة المشتركة المتآلفة في المجتمع السوري– د. محمد نور حمدان ٨٠
- النفعيـة في ميزان الإسلام – د. محمـد العبـدة ٨٤
- أحاديث الإفك– د. أسامة جادو ٨٧
- أثر ابتعاد الشباب عن المرجعية– أحمد الصالح الحجي ٩١
- البناء الفكري وثلاثية النص والتراث والمعاصرة – الأستاذ: خليل محمد الحسين ٩٥
- الإلحاد والقهر الأمني – الأستاذ محمد فتحي النادي ٩٨
- مضامين العمل الدعوي المعاصر – الدكتور محمد أيمن الجمال..... ١٠١

كلمة رئيس التحرير

نحو قيادة رشيدة للعمل الثوري

الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

نحن في ثورة هدفها الحرية والحقوق والكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة، ولا يمكن لها أن تنتصر إلا بوجود قيادة رشيدة تقود المؤسسات الثورية من خلال نظام متكامل يلتزم به كل من انتسب إلى هذه الثورة، ولتحقيق هذا الهدف وبلوغ هذه الغاية لا بد لمن تصدر للقيادة أن يكون مقداما عند الأزمات عزيزا عند الهِبَات ولو كان ذا حاجة؛ فالشعب ينقاد للرجل الشجاع عزيز النفس، وإن القائد المؤثر هو الذي يترك بصمة وراءه ولا يعرف التصنع والتكلف في المظهر الخارجي.

إنه لا مناصَ اليوم من التعاون بين قيادة الثورة وقاعدتها، وعمل الفريق الواحد المتعاون والمنسجم دون تمييز بين الطرفين، وعلى القيادة الثورية أن تلزم نفسها بما تلزم به غيرها معنويًّا وماديًّا بل ينبغي أن تسبق غيرها لتكون قدوة، فهل استطاع الذين وُضعوا في مكان القيادة لمؤسسات الثورة المتنوعة أن يقدموا بديلا عن مؤسسات النظام المتخلفة الفاسدة أم أنهم صنعوا مؤسسات طبق الأصل عنها؟

كيف نستطيع أن نقنع العالم بثورتنا، ومؤسساتنا لا تختلف عن مؤسسات النظام لا شكلا ولا مضمونا، بل تستمر على الثقافة ذاتها دون تغيير؟

لقد حفل تاريخنا الإسلامي بالقادة العظماء الذين علموا العالم كيف تكون القيادة بدءًا من القدوة الأكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ثم من جاء بعدهم من قادة صالحين.

تساوي القادة والقاعدة:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دائما على رأس جنوده يعيش بينهم بجسمه وروحه كما كان يسكن في قلوبهم ومشاعرهم، وقد كان يشاركهم كلَّ أعبائهم في جمع الحطب وحمل التراب والبناء، ولم تكن مشاركته شكليةً لقص الشريط أو الإيذان ببدء المراسم وسط تصفيق الجماهير المحتشدة، لقد روت لنا كتب السيرة مشاركة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بناء المسجد النبوي، فكان يحمل اللبن والتراب كما يحمل أصحابه ويقول: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار)، وجعل أصحابه الكرام يرتجزون ويقولون: (لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل).

وأما عند المغنم فلم يكن رسولنا صلى الله عليه وسلم يؤثر نفسه بشيء من المغانم والغنائم دون أصحابه بل كان يساوي نفسه بهم، ثم يتصدق بنصيبه على المحتاجين والفقراء، ومرة أهدته امرأة بردة فأخذها محتاجا إليها ولبسها، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه! اكسنيها، فناوله إياها.

ورغم كثرة ما يأتيه من الغنائم كان يعيش فقيرًا ويتصدق بما أفاء الله عليه على أهل الفاقة والحاجة.

هكذا كانت قيادة رسول الله، وهكذا يجب أن يكون من يتصدى للقيادة فردًا وجماعةً لأنه لا يمكن لأي قيادة أن تقود إلا إذا أصبحت قدوة للجماهير في تجسيد آمالهم؛ بأن تلزم نفسها قبل غيرها بالسلوك القويم والالتزام بالأمانة والعفة والتضحية، وأن يكون قولها وسلوكها مطابقًا لقوله تعالى: ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة))، وكان عمر رضي الله عنه يقول: (أريد رجلًا إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم).

الاستشارة:

وإن من أهم صفات القيادة الراشدة استشارة الجماعة؛ فالعقل البشري لا يحيط بكل الأمور، ورأي الجماعة خير من رأي الفرد، وهي مبدأ من مبادئ الإسلام، والأخذ بها فريضة، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستشير أصحابه في كل أمر لم يرد فيه تنزيل صريح، فكان يستشير السعدين في أمور المسلمين، ويستشير أبا بكر وعمر حتى روي أنه قال لهما يوما: (لو اجتمعتما في مشورة لما خالفتكما).

> " إن الاستشارة تعني نهوض المرؤوسين بمسؤولياتهم مع المسؤول يدًا بيد ورأيًا برأي؛ ليشعر كل فرد بأنه جزء أساسي في مؤسسته "

وعلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم سار خلفاؤه، فاستشار أبو بكر في حروب الردة، وكان عمر يستشير أصحابه في كل أمر من أمور المسلمين، ويحثهم على أن يشيروا عليه وأن يقولوا ما يرونه حقًّا وصوابًا لا ما يظنونه يوافق هواه، ومن أشهر ما ورد في سيرته -رضي الله عنه- استشارتُه أصحابَه في شأن طاعون الشام حتى راجع أصحابه في القول وراجعوه مرات ومرات، بل قال له أبو عبيدة: (أفرارًا من قدر الله؟) فلم يستخدم أمير المؤمنين سلطته لينتقم لنفسه بل اكتفى بقوله: (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!).

إن هذه الصفات أخلاقيات قادة حقيقيين لا مسؤولين متسلطين، صفات أصحاب رسالة لا أصحاب مصالح وزعامات، هكذا تكون القدوة في قيادة المسيرة، ومن هنا كانت الشورى والمشاركة في الإدارة واجبًا وليست ترفًا أو ملءَ فراغ.

إن الاستشارة تعني نهوض المرؤوسين بمسؤولياتهم مع المسؤول يدًا بيد ورأيًا برأي؛ ليشعر كل فرد بأنه جزء أساسي في مؤسسته، وأن لرأيه قيمة وله الحق في النقد، وأن سلامته محفوظة من البطش والاستبداد أو الطرد من العمل، ففي هذا الجو من النزاهة والمسؤولية ينشأ الموظفون أصحاب الشجاعة في الرأي والأمانة في القول والعمل، وهنا يتكرر السؤال: أين مؤسساتنا من هذه الثقافة الحضارية والإنسانية؟

إن العلاقات السليمة لا تنشأ إلا في جو ثقافي حضاري يؤمن بقيمة الإنسان من حيث هو إنسان، له كرامته وله حقوقه على الآخرين، ففي الأثر: المسلمون إخوة متحابون متعاونون متساوون لا فضل بينهم إلا بالتقوى، ولا يمكن تنمية العلاقات الإنسانية وتقويتها إلا بالمشاركة والشورى فماذا تعني الشورى والمشاركة؟ وما صلتها بالعلاقات العامة؟

إن في الشورى قوة للمسلمين؛ فهي تدعم جماعية الفكر والتفاهم المشترك، وتشعر كل فرد بذاتيته وكينونته بصفته إنسانًا مكرمًا مقدرًا، فمن أشق الأشياء على النفس البشرية أن تهمل فلا يؤبه لها.

الالتزام بما ندعو إليه:

إنَّ سر نجاح أي ثورة أو دعوة أو مؤسسة يكمن في مدى قدرة أصحابها على الالتزام بما يدعون إليه سلوكًا وخلقًا قبل أن يطالبوا الآخرين بتطبيقه، ومن هنا أقول: على الذين رشحوا أنفسهم لقيادة الثورة أو فتحوا مؤسسات باسم الثورة أن يدركوا الواقع ويتطلعوا إلى حجم المآسي المادية والمعنوية لجماهير الثورة، لا أن يبقوا في برجهم العاجي.

إن الجماهير السورية المشردة دفعت أغلى الأثمان وجادت بالنفس والمال، فهل يجوز شرعا وإنسانية ممن يدعي الثورية أن يترفَّه على حسابهم وهم يحتاجون إلى لقمة عيش أو ظل خيمة أو شجرة؟

بدلا من أن نقول للأتراك: نحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ علينا أن نقول للمشردين الفقراء: أنتم المهاجرون ونحن الأنصار.

إن ما نحن فيه اليوم لا يختلف عن ثقافة النظام في شيء؛ المحسوبية وشخصنة المؤسسات وثقافة التوريث والتحكم في الناس ولي أعناقهم من خلال استغلال حاجتهم، وتغييب مبادئ العدالة والشورى والمشاركة، ثم بعد هذا ندعي الثورية!

الإدارة والمسؤولية:

العبقرية في الإسلام تتجلى في إرشاداته الإدارية السامية، وإن المقام ليستدعي إلى الذاكرة الداء العالمي الذي تشكو منه معظم إدارات العالم المتمدن في وقتنا الحاضر، أعني به (البيروقراطية) أو (سلطة المكاتب) التي تحولت من وسيلة لضبط الأعمال وتنظيمها إلى غاية في كثير من المجتمعات ولدى كثير من الأفراد؛ وبدلا من أن تكون البيروقراطية أداة لتيسير أمور الناس أصبحت أداة لقهر الإنسان وإذلاله، وتحولت من خدمة الآخرين إلى السيادة عليهم تحت شعارات مختلفة، فأصبح الناس يطيعون أصحاب هذه المكاتب خوفًا وطمعًا.

لقد أوضحت التجارب البشرية أنْ لا شيء أفسد للنفس البشرية من السلطة المطلقة التي لا رقابة فيها، ولهذا طالب أبو بكر وعمر الناس بالرقابة عليهما ونصحِهما إن أخطآ، وإنَّ ما سبق من أمثلة ليبين لنا أنَّ المسؤول في أي مؤسسة ليس جبارًا ولا متسلطًا يملك حقا لا يملكه فرد آخر في المؤسسة بل هو فرد ملتزم بما يُلزم به أفراد المؤسسة.

> " لقد أوضحت التجارب البشرية أنْ لا شيء أفسد للنفس البشرية من السلطة المطلقة التي لا رقابة فيها "

لقد أفضى التطبيق الإداري في الإسلام إلى تكوين مجتمع الكفاية والعدل، وإن تكوين هذا المجتمع لَهو أسمى غاية لأي نظرية إدارية في هذا الوجود، ذلك المجتمع الذي يتميز بعلائق المحبة والثقة والإيثار بين أفراده، بخلاف المجتمع الذي تحكمه (البيروقراطية) حيث يفقد الأفراد حريتهم في ظلاله، ويصبحون دمى مسلوبة الإرادة تحت سلطةٍ لا حدود لها، لا تعني شيئا أكثر من كونهم أجراء صغار في مؤسسة المدير أو المسؤول.

إن الثورة السورية تحتاج إلى قيادة نزيهة راشدة، تعمل بنظام إداري سليم، مبدؤه الاستشارة والتعاون ونقد الأخطاء وتساوي الرؤساء والمرؤوسين، واتباع حقيقي لما تعلمناه من نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

تقول بعض المصادر: إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قَدِمَ المدينة المنورة كَتَب صحيفةً أو كتابًا أو وثيقةً بينه -بصفته ممثلًا لمسلمي المدينة- وبين بقية سكان المدينة من عربٍ ويهود، لكن التساؤل الذي يطرح نفسه: هل صحت هذه الحادثة، وهل لهذه الوثيقة أي أصول مثبتة في كتب السنة المطهرة؟ وفي الجواب عن هذا نجد أن أقوال العلماء قد تباينت تباينًا شديدًا بين من يقول: إن الخبر قد تواتر، ومن يقول: هذه الوثيقة موضوعةٌ مكذوبةٌ.

هذه الوثيقة -إن صحت- تحوي كثيرًا من المبادئ الدستورية التي تسهم بشكلٍ كبيرٍ في تأسيس حياةٍ مدنيةٍ تعطي حقوقًا متساويةً لكل سكان المدينة بعيدًا عن أعراقهم وأديانهم، وسنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على هذه الوثيقة ودراستها من ناحيتَي الإسناد والمتن، ولا بد من الإشارة إلى أن هناك بضع دراسات تناولت هذا الموضوع منها:

«مفهوم المواطنة في الشريعة الإسلامية، صحيفة المدينة المنورة نموذجًا»، للدكتور علي نديم الحمصي. تحدث فيها عن مفهوم المواطنة ومضمون صحيفة المدينة، والمبادئ التي كرستها الصحيفة، ولم يتطرق لثبوت الصحيفة كما لم يتناول معالم المواطنة.

«وثيقة المدينة، دراسة في المصادر المبكرة وآراء المستشرقين»، محمد جواد فخر الدين ومشتاق الغزالي. ورغم أنهما تعرضا لذكر كثير من المصادر التي ذكرتها تامة أو مجتزأة إلا أنهما أغفلا الحديث عن سندها في كلٍّ من شكلَي إيرادها، ولم يعتنيا بالحديث عن مضمون الوثيقة وإبراز معالم المواطنة فيها.

«صحيفة المدينة بين الاتصال والإرسال»، للدكتور حاكم المطيري، قصر دراسته على تخريج الوثيقة والحكم عليها.

والجديد الذي تقدمه هذه الدراسة أمران؛ الأول: البحث عن أصول وثيقة المدينة في كتب السنة المعتمدة، وصولًا إلى إثبات أصل هذه الوثيقة وصحة قيام النبي صلى الله عليه وسلم بكتابتها، وإيضاح بعض المقتطفات التي أوردتها هذه الكتب الأصول منها. والثاني: التركيز على معالم المواطنة في هذه الوثيقة، وبيان دور هذه الوثيقة في إرساء المواطنة في مجتمع المدينة.

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف منها: دراسة طرق هذه الوثيقة وأسانيدها المختلفة، وبيان مدى صحة هذه الوثيقة ودرجتها في علم الحديث، وتوضيح معالم المواطنة في الإسلام، وكشف دور هذه الوثيقة في إرساء التعايش بين مكونات المجتمع المدني. وتتضمن هذه الدراسة مبحثين رئيسين، أحدهما عن أسانيد الوثيقة والآخر عما انطوت عليه من مفاهيم، وفي النهاية خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث.

المبحث الأول

دراسة الوثيقة إسنادًا

أولًا: نصُّ الوثيقة

وردت وثيقة المدينة في عدة مصادر، تنوعت بين من ساقها بطولها كابن إسحاق، ومن اقتصر على مقاطع منها، ونورد هنا سياقة ابن إسحاق لها لأنه ذكرها كاملةً، قال ابن إسحاق:

(وكتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهودًا وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا كتاب من محمد النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢- المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

١٢- وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

١٣- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدهم.

١٤- ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر.

١٥- ولا يَنْصُر كافرًا على مؤمنٍ.

١٦- وإن ذمة الله واحدةٌ، يجير عليهم أدناهم.

١٧- وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٨- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٩- وإن سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ، لا يسالَم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم.

٢٠- وإن كل غازيةٍ غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

٢١- وإن المؤمنين يَبِيءُ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٢- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢٣- وإنه لا يجير مشركٌ مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

٢٤- وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينةٍ فإنه قَوَد به إلا أن يرضى ولي المقتول.

٢٥- وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٦- وإنه لا يحل لمؤمنٍ أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنْصُر مُحْدِثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ.

٢٧- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

٢٨- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٩- وإن يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسَه وأهل بيته.

(١) قال ابن هشام: المُفْرَح المثقل بالدين والكثير العيال، قال الشاعر: (إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة ... وتحمل أخرى أفرحتك الودائع).

٣٠- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٣٢- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٣٣- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٤- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣٥- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٦- وإن جفنة بطنٌ من ثعلبة كأنفسهم.

٣٧- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف.

٣٨- وإن البر دون الإثم.

٣٩- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٤٠- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٤١- وإنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

٤٢- وإنه لا ينحجز على ثأر جرح.

٤٣- وإنه من فَتَك فبنفسه فَتَك وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرِّ هذا.

٤٤- وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

٤٥- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤٦- وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٤٧- وإنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه.

٤٨- وإن النصر للمظلوم.

٤٩- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٥٠- وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٥١- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٥٢- وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها.

٥٣- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٥٤- وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٥٥- وإنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها.

٥٦- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٥٧- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٥٨- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة(٢).

٥٩- وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه.

٦٠- وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٦١- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.

٦٢- وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.

٦٣- وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٣).

هذا نص الوثيقة كما عند ابن إسحاق، وقد ذكر نص هذه الوثيقة ابن زنجويه في كتابه الأموال بمثل ما ذكرها ابن إسحاق، مع بعض الخلافات في بعض الكلمات(٤).

ثانيًا: المصادر التي أخرجت الوثيقة

بعد البحث والتقصي وجدتُ أن هذه الصحيفة قد رويت بأسانيد متعددة، منها ما رواها كاملة ومنها ما روى بعضها أو أشار إليها فقط.

روايتها تامة:

١- رواها ابن إسحاق بغير إسناد(٥)، ورواها البيهقي في سننه الكبرى من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- هذا الكتاب. فلعل طريق البيهقي هي الطريق التي أخذ ابن إسحاق الحديث عنها(٦).

٢- رواها ابن أبي خيثمة فأسندها: حدثنا أحمد بن جناب أبو

(٢) قال ابن هشام: ويقال «مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة».

(٣) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ط٢، (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)، (١: ٥٠١-٥٠٤).

(٤) حميد بن مخلد بن زنجويه، الأموال، ط١، (السعودية: مركز الملك فيصل، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، (٢: ٤٦٦-٤٧٠).

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، (١: ٥٠١).

(٦) أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، ط٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، (٨: ١٨٤).

الوليد، ثنا عيسى بن يونس، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار، فذكر نحوه(٧).

٣- رواها ابن زنجويه في كتابه الأموال مرسلةً فقال: حدثني عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بهذا الكتاب(٨).

٤- رواها القاسم بن سلَّام في كتابه الأموال مرسلةً فقال: حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بهذا الكتاب(٩). وسند هذه الطريق مثل سند ابن زنجويه إلا أن القاسم يرويه عن شيخيه: يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح، بينما يرويه ابن زنجويه عن شيخه عبد الله بن صالح فقط.

٥- رواها البيهقي من طريق ابن إسحاق فقال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكتاب، كان مقرونًا بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال...(١٠).

هذه هي الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنودٍ قليلةٍ، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام.

أما من روى أجزاء منها فهم:

١- عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في كتابه الذي كتبه بين قريش والأنصار: «لا يتركون مفرحًا أن يعينوه في فكاك أو عقل»(١١) وهي روايةٌ مرسلةٌ.

٢- مسلم في صحيحه قال: حدثني محمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله، يقول: كتب النبي صلى الله عليه وسلم: «على كل بطن عقوله»، ثم كتب: «أنه لا يحل لمسلم أن يتوالى مولى رجل مسلم بغير إذنه»، ثم أخبرت أنه لعن في صحيفته من فعل ذلك(١٢). وهذا إثبات لأصل الصحيفة، حيث نص على أنه لعن في صحيفته من والى مولًى بدون إذن مواليه.

٣- أحمد في مسنده قال: حدثنا سريج، حدثنا عباد، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار: «أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين»(١٣). ورواه أيضًا عن نصر بن باب عن حجاج بالسند ذاته(١٤). وهذا إثبات لأصل الصحيفة أيضًا حيث قدَّمَ بأن هذا من كتابه المكتوب بين المهاجرين والأنصار.

٤- أحمد في مسنده قال: حدثني سريج، حدثنا عباد، عن حجاج، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، مثله(١٥).

٥- أبو داود قال: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم قال: أخبرنا شعيب، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي -صلى الله عليه وسلم- ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود وكانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله: {ولتسمعن من الذين أوتوا

(٧) هكذا ذكر ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ١: ٢٢٩. وقد روى جزءًا منها البيهقي في سننه الكبرى من طريق كثير هذا (٨: ١٨٥).
(٨) ابن زنجويه، الأموال، (٢: ٤٦٦).
(٩) القاسم بن سلام، الأموال، د. ط، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، (٢٦٠).
(١٠) البيهقي، السنن الكبرى، (٨: ١٨٤).
(١١) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، ط٢، (الهند: المجلس العلمي، ١٤٠٣ه)، (٩: ٤٠٨).
(١٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، د. ط، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، العتق، باب تحريم تولي العتيق غير مواليه، حديث رقم (١٥٠٧).
(١٣) أحمد بن حنبل، المسند، ط١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، (٤: ٢٥٨).
(١٤) ابن حنبل، المسند، (١١: ٥٠٤).
(١٥) ابن حنبل، المسند، (٤: ٢٥٨).

الكتاب من قبلكم} [آل عمران: ٦٨١] الآية، فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم، أمر النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطًا يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة، وذكر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: طُرق صاحبنا فقتل، «فذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول، ودعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم وبين المسلمين عامةً صحيفة»(١٦). هذه هي طرق هذه الوثيقة عند من رواها كاملة أو اقتصر على أجزاء منها.

ثالثًا: دراسة أسانيد الوثيقة والحكم عليها

دراسة أسانيد الوثيقة:

من خلال ما سبق يتبين أن لهذه الوثيقة ثلاث طرق هي:

الطريق الأولى: طريق الإمام الحافظ الحجة في الحديث والمغازي محمد بن شهاب الزهري، رواها مرسلة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواها عن الزهري عقيل بن خالد، وعن عقيل أخذها الليث بن سعد الفهْمي، وعن الليث أخذها كل من يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح. وهذه الطريق مع جلالة رواتها إلا أنها ضعيفة لأنها مرسلة.

الطريق الثانية: طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن كثير أخذها عيسى بن يونس، وعنه أخذها أحمد بن جناب أبو الوليد، وعنه أخذها ابن أبي خيثمة. وهذه الطريق ضعيفة، فكثير بن عبد الله ضعيف، رماه بعضهم بالكذب، لكن التحقيق أنه ضعيف لا كذاب(١٧).

الطريق الثالثة: طريق إمام المغازي محمد بن إسحاق بن يسار، رواها في كتابه بغير سندٍ، ورواها البيهقي من طريق ابن إسحاق قال: حدثني: عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- هذا الكتاب. وهذه الطريق التي رواها ابن إسحاق من غير إسنادٍ ضعيفةٌ أيضًا لأنها مرسلة، وليس في رواية البيهقي من طريقه ما يقتضي الجزم بأنها عند ابن إسحاق بالإسناد نفسه، فلا يمكن تصحيح كامل الوثيقة، وأمَّا الطرق المختصرة فهي:

الطريق الأولى: الزهري مرسلًا، الطريق الثانية: جابر بن عبد الله رضي الله عنه، الطريق الثالثة: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، الطريق الرابع: ابن عباس رضي الله عنه، الطريق الخامسة: عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنه، وهذه الطرق فيها الصحيح وفيها الضعيف، ولسنا بصدد نقدها واحدة واحدة لأن مجموعها يثبت أصل الوثيقة.

رابعاً: الحكم على الوثيقة

بعد أن ذكرنا طرق هذه الوثيقة سواء من رواها تامة أو مختصرة نستطيع القول بأن:

من ادعى أن هذه الوثيقة متواترة فقد بالغ مبالغة كبيرة، ولعله خلط بين التواتر والشهرة النسبية.

لقد أخطأ من ادعى وضعها لثبوت بعضها بأسانيد صحيحة ومجملها بأسانيد ضعيفة.

لا شك أن للوثيقة أصلًا، وهي ثابتة، ولكن الخلاف في مضمونها.

يمكن القول بأن إسناد هذه الوثيقة حسنٌ، وهو من باب الحسن لغيره، وقد صحت أجزاء منها بطرق صحيحة.

خامساً: تاريخ كتابة الوثيقة

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: «الراجح أن الوثيقة في الأصل وثيقتان ثم جمع المؤرخون بينهما، إحداهما تتناول موادعة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود، والثانية توضح التزامات المسلمين من مهاجرين وأنصار وحقوقهم وواجباتهم، ويترجح عندي أن وثيقة مواعدة اليهود كتبت قبل موقعة بدر الكبرى، أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فكتبت بعد بدر، فقد صرحت المصادر بأن موادعة اليهود تمت أول قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة...، أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فقد كتبت بعد وثيقة موادعة اليهود في السنة الثانية من الهجرة»(١٨).

(١٦) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، د. ط، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت)، الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، حديث رقم (٣٠٠٠).

(١٧) محمد بن أحمد الذهبي، ميزان الاعتدال، ط١، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م)، ٣: ٤٠٦، وأحمد بن علي بن حجر، تهذيب التهذيب، ط١، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٦ه)، (٨: ٤٢١).

(١٨) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط٦، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، (٢٧٢).

وهناك رأي آخر مخالف لذلك يقول: «أما القول بأن الوثيقة في الأصل وثيقتان ثم جمع المؤرخون بينهما فهو قول ضعيف يفتقر إلى الدليل والبيان»(١٩).

والذي يترجح -والله أعلم- أن هذه الوثيقة وثيقتان كما قاله العمري، لأن الوثيقة تتحدث عن أمرين منفصلين: الأول علاقة الدولة المسلمة بمن جاورها من اليهود، والثاني علاقة المسلمين بعضهم مع بعض، ولا شك أن الأمرين مختلفان خاصة أن بعض المحدثين نصَّ مرات على وثيقة المهاجرين والأنصار دون ذكر اليهود.

المبحث الثاني

مفهوم المواطنة ودور وثيقة المدينة في إرسائه

أولًا: تعريف المواطنة

المواطنة لغةً:

قال ابن فارس: «الواو والطاء والنون كلمة صحيحة، فالوطن محل الإنسان، وأوطان الغنم مرابضها، وأوطَنتُ الأرضَ اتخذتها وطنًا»(٢٠)، وقريب منه قول الجوهري(٢١)، وقال ابن منظور: «الوطن المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله»(٢٢).

المواطنة اصطلاحًا:

عَرَّفَت دائرة المعارف البريطانية المواطنة بأنها: «علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة».

وتُعَرِّفُهَا موسوعة كولير الأمريكية بأنها «أكثر أشكال العضوية في جماعة سياسية اكتمالًا». وهذان التعريفان يتضمنان أهم مقومات المواطنة، وهي المساواة بين أفراد الوطن الواحد في الحقوق والواجبات وضمان العدل بينهم بالتحاكم إلى قانون واحد(٢٣)، فالمواطنة هي الانتماء إلى أمة أو وطن أي العضوية الكاملة المتساوية في التمتع بما يترتب عليها من حقوق وواجبات، وهو ما يعني أن كافة أبناء الشعب الذين يعيشون فوق تراب الوطن سواسية بدون أدنى تمييز قائم على أي معايير تحكمية مثل الدين أو الجنس أو اللون أو المستوى الاقتصادي أو الانتماء السياسي والموقف الفكري(٢٤).

وتشتمل المواطنة في مفهومها المعاصر على الانتماء والولاء، وامتلاك المواطن حقوقًا اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية يتكفل بها النظام كالرعاية الصحية مثلًا، وتُحَمِّلُ المواطنَ واجباتٍ تجاه الدولة والمجتمع مثل احترام الدستور والقانون والنظام ودفع الضرائب والمشاركة بأبعادها السياسية والاجتماعية(٢٥)، لكن مصطلح المواطنة لا وجود له بهذا اللفظ في الأدبيات الإسلامية، أما من حيث المفهوم فهي حاضرة في تراثنا الإسلامي، ولا أدلَّ على ذلك من وثيقة المدينة التي كتبها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينه وبين أطياف الناس الذين كانوا يتقاسمون العيش في المدينة ذاتها(٢٦).

> " وليس غريبًا أن يكون النبي محمد ﷺ والمسلمون أمة واحدة، لكن كيف يكون اليهود مع المؤمنين أمة واحدة؟ "

(١٩) محمد الدوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، د. ط، (الرياض: دار طيبة، د.ت)، (٩١).
(٢٠) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، د. ط، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، (٦: ١٢٠).
(٢١) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، ط٤، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، (٦: ٢٢١٤).
(٢٢) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط٣، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ)، (١٣: ٤٥١).
(٢٣) وزارة الأوقاف السورية، المواطنة في الإسلام، مفهومها ومقوماتها، (http: / /mow.gov.sy).
(٢٤) ياسين السيد، المواطنة في زمن العولمة، د. ط، (مصر: المركز القبطي للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٢)، (٢٢).
(٢٥) سامر عبد اللطيف، المواطنة وإشكالياتها، العدد ٧، (العراق: مجلة الفرات، ٢٠١١).
(٢٦) عماد الدين الرشيد، المواطنة في الإسلام، (منشور على الإنترنت).

ثانياً: معالم المواطنة في وثيقة المدينة

المحور الرئيس في الوثيقة أنها جاءت ضمانًا لعدم الظلم أو البغي، وتناولت التحالف الوثيق بين أهلها ضد العدوان الخارجي، كما أن من أهداف الصحيفة نشر الأمن والتشجيع على التكافل الاجتماعي(٢٧)، وتضمنت الوثيقة أهم معالم المواطنة، ونجملها فيما يأتي:

١- الخضوع للنظام العامّ: جاء في نصّ الوثيقة: «هذا كتابٌ من محمد النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس». إذًا أساسُ تشكيل الدولة الإسلامية ليس دينيًّا، وإنما الخضوع للنظام العام هو الأساس؛ لذلك ضمَّت هذه الدولة بين رعاياها النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين من قريش أي المهاجرين، والمسلمين من يثرب أي الأنصار، ومَن دخل في حلفهم وهم اليهود ومشركو يثرب الأوس والخزرج الذين لم يُسلموا بعد حتى ذلك الوقت.

وليس غريبًا أن يكون النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون أمة واحدة، لكن كيف يكون اليهود مع المؤمنين أمة واحدة؟ والأغرب من ذلك كيف يكون وثنيو الأوس والخزرج الذين لم يُسلموا بعدُ أمةً مع المؤمنين من دون الناس؟ يقول الدكتور عماد الدين الرشيد: «إنَّ هذا التشكيل في الواقع قام على فكرة المواطنة وليس تشكيلًا دينيًّا، فليست الدولة الإسلامية دولة الصالحين والأتقياء، هي دولة من يخضع للنظام الإسلامي، وحتى نفهم هذه الفكرة تحديدًا ينبغي أن ندرك أن الإسلام ليس مجرد دين، ومَن نَظَر إلى الإسلام بوصفه دينًا فحسب فقد أساء إليه ولم يفهمه، الإسلام من جوانبه الدين، وله جوانب أخرى، له جوانب قانونية، وهذا الجانب القانوني -بوصفه نظامًا- هو الذي يَدين به غير المسلمين للدولة الإسلامية، ومع تقدم الزمان أصبح له جانب ثقافي وحضاري يدين به للدولة غير المسلمين الذين يَحيَون في هذه الرقعة الجغرافية... الرقعة الإسلامية»(٢٨).

٢- التكافل الاجتماعي: ورد في نصِّ الوثيقة: «هؤلاء المسلمون جميعًا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين» «وإن المؤمنين لا يتركون مُفرَحًا بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل». في هذين البندين ما يدل على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامي ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين في كل أشكاله، فهم جميعًا مسؤولون عن بعضهم في شؤون دنياهم وآخرتهم، وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس المسؤولية التكافلية(٢٩).

٣- المساواة في الانتماء: جاء في الصحيفة: «هذا كتاب من محمد رسول الله بين المؤمنين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس». عبرت الصحيفة عن هذه المساواة بكلمة (الأمة) للدلالة على أن جميع قاطني هذه الدولة هم أمة واحدة ضمن دولة واحدة، وما داموا أمة واحدة فهم متساوون في الانتماء لها دون تمييز، وهذا شامل للمسلمين وغيرهم، أما دلالته على شمول المسلمين فواضح حيث نصَّ على دخول المؤمنين من قريش وهم المهاجرون وأهل يثرب وهم الأنصار، ثم أردف فأضاف إليهم من لحق بهم فجاهد معهم، أي ولو لم يكن على دينهم، وهذا يُدْخِل اليهود(٣٠).

٤- المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الوطن الواحد: جاء في الصحيفة: "ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس". وهذا يدل على مدى الدقة في المساواة بين المسلمين، وأن ذمة المسلم محترمة بغض النظر عن اختلاف اللون أو الجنس أو المنزلة، والدليل أن مكانتهم في الجوار واحدة، فمن أدخل من المسلمين أحدًا في جواره، فليس لغيره أيًّا كانت سلطته أن ينتهك حرمة هذا الجوار، هذا من جانب الحقوق، وأما

(٢٧) كمال الشريف، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة، د. ط، (الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠١)، (١: ٦٨-٧٠).
(٢٨) الرشيد، عماد الدين، المواطنة في الإسلام.
(٢٩) انظر: علي نديم الحمصي، مفهوم المواطنة في الشريعة الإسلامية، (مقال منشور على موقع المعارف: www.almaaref.org).
(٣٠) زيد سلطان، المواطنة في الدولة الإسلامية، (مقال منشور في موقع قصة الإسلام، islamstory.com).

من جانب الواجبات فقد ألزمت الجميع بضرورة الإسهام في حماية الدولة والحفاظ على أمنها، يستوي في ذلك المسلم واليهودي، جاء في الصحيفة: «وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين».

٥- سيادة القانون: إذا حصل خلاف بينهم فإن فيصل التفرقة بينهم هو كتاب الله وسنة رسوله، جميعهم في ذلك سواء، فقد جاء في الصحيفة: "كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله"، فهذا يدل على أن المرجع لحل أي خلاف هو كتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٦- المشاركة في الدفاع عن الوطن: فما داموا يتقاسمون أرض هذا الوطن، فإن عليهم جميعًا مسلمهم وغير مسلمهم أن يتشاركوا في الدفاع عنه، جاء في الوثيقة: «وإن عليهم النصر على من دهم يثرب» «وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة». فكل من رضي بهذا العقد الاجتماعي فإنه يجب عليه أن يسهم في الدفاع عنه مسلمًا كان المواطِن أو غير مسلم.

٧- مسؤولية الدولة عن كل رعاياها: لا فرق بين مسلم وغيره، فقد نوّهت الصحيفة إلى مسؤولية الدولة والمجتمع تجاه الرعايا اجتماعيًّا، فلا يُترَك من ثقلت عليه الديون وكثر أفراد أسرته دون مساندة ومساعدة، يقول النص: «وإن المؤمنين لا يتركون مفرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل».

٨- حرية العقيدة في الإسلام: نصت الوثيقة على ذلك صراحة: «يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم». وهذا متوافق تمامًا مع قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٦٥٢]، فللمسلمين دين ولليهود دين، ويتمتع اليهود بموجب هذه الوثيقة بحرية ثقافية وحقوقية كاملة، وهذه الحرية حق ثابت لهم لا يتغيَّر، فحرية الإنسان في الاعتقاد حق تكفله الدولة له.

٩- استقلال الذمة المالية: ليس معنى أن يكون اليهود تحت حماية الدولة الإسلامية ويستظلون بظلها أن تسلب أموالهم أو ينتقص منها؛ لذلك نصت الوثيقة على أن «على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم»، أي إن لهم حرية التملُّك ما داموا على عهدهم مع المسلمين داخل الدولة الإسلامية.

"ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ شهداء وقتلى غزوة أحد، فقال: كان من بين قتلى أُحد يهودي ومشرك "

١٠- العدل التام: كانت المجتمعات الجاهلية تقوم على نُصرة القريب ظالِمًا كان أم مظلومًا بدافع العصبيَّة والقَبَليَّة، فلمَّا جاء الإسلام هذَّب هذه القاعدة بإقرار نُصرة المظلوم وجَعْلِ نُصرة الظالم بالأخذ على يديه ومَنْعِهِ من الظلم؛ ومن ثَمَّ فقد كان أحد البنود في هذه المعاهدة: «وإن النصر للمظلوم»، فالعدل هو أحد مقوِّمات الاستقرار في المجتمعات، وبدونه يُصبح الضعيف مغلوبًا على أمره فاقدًا الحقوقه، بينما يرتع القوي في حقوق الآخرين دون وجه حقٍّ، وفي عموم لفظ المظلوم: «وإن النصر للمظلوم» ما يدل بوضوح على المساواة التامة والعدل المطلق بين الرعية، لا فرق بين مؤمنهم ويهوديهم ومشركهم، فلو أن مسلمًا ظَلَم يهوديًّا فإنه يُعَاقَب على هذا الظلم ويُرَدُّ الحقُّ إلى اليهودي، وكذلك لو ظَلَم يهوديٌّ مسلمًا فإنه يُعَاقَب ويُرَدُّ الحقُّ إلى المسلم.

وتدل الوثيقة على عدم تعدي المسؤولية عن الجرائم، بل على كل طرفٍ أن يتحمَّلَ مسؤولية ما يقوم به من أعمال: «وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه»، فلو أنَّ إنسانًا ارتكب إثمًا أو خطأ ما

متعمِّدًا فإنه وحده يتحمَّل مسؤولية عمله كاملة، وليس على حلفائه الذين لم يشاركوه في هذا العمل أدنى مسؤولية.

١١- حرية التعبير: نصت الوثيقة على التعاون والتناصح وحفظ الوطن: «وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرَّ دون الإثم»؛ أي إنه بموجب هذا العهد يكون على الأطراف المتعاهدة التناصح فيما بينها، ويشمل هذا الأمر إسداء النصح للأطراف الأخرى بصدق وإخلاص وقبول النصيحة منهم، وأن يحمل كلُّ طرفٍ النصائحَ التي يُسديها إليه الآخرون محمَلًا حسنًا، ويُؤَكِّد هذا البند أيضًا على أن بين الأطراف المتعاهدة البرَّ دون الإثم، أي التعامل بالإحسان والتعاون على الخير دون التعامل بالسوء(٣١).

ثالثًا: دور الوثيقة في إرساء المواطنة في المجتمع المدني

غدت المدينة نموذجًا يحتذى به في التعايش بين أبناء الوطن الواحد، وقد كان للصحيفة التي كتبها النبي -صلى الله عليه وسلم- بين مواطني الدولة الجديدة أعظم الأثر، وقد روت كتب السير والتاريخ كثيرًا من القصص التي تدل على عميق الأثر الراسخ في نفوس ساكنيها، وامتد هذا الأثر ليطال سائر البلدان الإسلامية، نذكر من ذلك:

١- ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ شهداء وقتلى غزوة أحد، فقال: كان من بين قتلى أُحد يهودي ومشرك، فقد قُتل رجل اسمه (قزمان) بعد أن قاتل قتالًا شديدًا، وجرح جرحًا بليغًا في المعركة، فلما قال له المسلمون: «أبشر قزمان! قال بمَ أبشر وأنا ما قاتلت إلا على أحساب قومي؟!» وقتل رجل يهودي في المعركة يُدعى (مُخَيريق) اليهودي، وقد حاول بعض قومه أن يمنعه من الذهاب إلى المعركة بدعوى أنه يوم سبت، فقال لهم: لا سبت، وحمل سيفه وعُدَّته، وقال: إن قتلت فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، ثم غدا إلى الحرب فقاتل حتى قُتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُخيريق خير يهود»(٣٢).

هاتان الحادثتان تدلان بوضوح على أن سكان المدينة من مسلمين ويهود ومشركين كانوا يشعرون بانتمائهم لهذه المدينة، وأنهم مواطنون فيها؛ لذلك بادروا بالدفاع عنها، ولم يمنعهم من ذلك اختلاف دينهم عن دين سائر سكان المدينة.

٢- روى البخاري ومسلم أنَّ أم هانئ بنت أبي طالب جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتلٌ رجلًا قد أجرته؛ فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ))(٣٣). وهذا دليل على المساواة بين جميع المواطنين، فإجارة أحدهم تسري عليهم جميعًا.

٣- ورد في قصة منزل النبي صلى الله عليه وسلم في بدر: حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزله، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: (يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟) قال: ((بل هو الرأي والحرب والمكيدة)) قال: (يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل...)، ثم أشار عليه أن ينزل منزلًا آخر(٣٤). ولولا جوُّ الحرية الذي يسمح بمناقشة ولي الأمر في قراره لما أقدم الحباب على ذلك.

٤- تولية أسامة بن زيد بن حارثة أميرًا على الجيش الذي أرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- لقتال الروم، فتوفي رسول الله قبل خروجه، ثم أنفذه أبو بكر رضي الله عنه، وقد

(٣١) راغب السرجاني، ما هي وثيقة المدينة أو معاهدة المدينة التي كانت بين الرسول واليهود؟ (مقال منشور على موقع قصة الإسلام، Islamstory.com).
(٣٢) علي بن أبي الكرم ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، (٢: ٥٠-٥١).
(٣٣) محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، ط٣، (بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد، حديث رقم (٣٥٠)، ومسلم، الصحيح، الحيض، باب تستر المغتسل بثوب ونحوه، حديث رقم (٣٣٦).
(٣٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (٢: ١٧).

كان في الجيش كبار الصحابة كأبي بكر وعمر إلا أن أبا بكر استأذن أسامة في إبقاء عمر عنده ليستعين برأيه(٣٥). وأسامة لم يكن بالحسيب عندهم، لكن الإسلام لا يفرق بين حسيب أو غيره، فالكل سواسية عنده.

٥- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وردت فيها كثير من الآثار الدالة على ذلك، حتى بوَّب له البخاري بقوله: «باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار»، وهي دليل واضح على التكافل الاجتماعي بين مواطني الدولة الإسلامية، روى عبد الرحمن بن عوف جانبًا من هذا التكافل فقال: «لما قدموا المدينة آخَى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالًا، فأَقسِم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها تزوجتَها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن...»(٣٦).

٦- لما ضَرب ابنٌ لعمرو بن العاص أحد الأقباط وبلغ عمر شكواه حكم بالقصاص للقبطي، وخاطب عَمْرًا بعبارته المشهورة: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا(٣٧). وهذا دليل واضح على الحرية في الإسلام كما أن فيه دليلًا على المساواة بين المواطنين، فلا فرق بين مسلم وغيره، فالكل يستوون في المواطنة والانتماء لبلد واحد.

٧- روى البيهقي القصة الشهيرة في النصراني الذي سرق درع الإمام علي وأراد بيعها ثم احتكما إلى القاضي شريح، فلم يفرق بينهما بسبب الدين أو المكانة الاجتماعية.

وهذا غيض من فيض، وإنما ذكرناها نماذجَ على عمق تأثر المسلمين بمبادئ دينهم الداعي إلى المساواة والعدل بين أفراد الرعية، وهي المبادئ التي صيغت وثيقة المدينة وَفقها لتنظِّم حياة رعايا الدولة.

نتائج الدِّراسة:

١- ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد كتب هذه الوثيقة.

٢- وقع بعض الباحثين في المبالغة والمجازفة بادعاء تواتر الصحيفة أو وضعها، والصواب التوسط.

٣- صحت أجزاء من هذه الوثيقة بطرق صحيحة، بعضها في صحيح مسلم.

٤- الوثيقة بتمامها حسنٌ إسنادها، وهو من باب الحسن لغيره؛ لأن طرقها الضعيفة قد اعتضدت وتقوت.

٥- تناولت الوثيقة كثيرًا من القضايا الدستورية والإدارية، فكانت من أهم وأُولى الوثائق الدستورية التي تنظم حياة رعايا دولة ما في التاريخ الإنساني.

٦- من أهم القضايا التي تناولتها الوثيقة المواطنة.

٧- ذكرت الوثيقة أغلب مقومات المواطنة، وكانت معبرة بحق عن مبادئ الإسلام ومقاصده في الحرية والعدالة والمساواة.

٨- لهذه الوثيقة عميق الأثر في رسم حياة الناس وفق مبادئها؛ لتصدر عنهم أفعالٌ حُقَّ لها أن تكون قدوة لكل أمم الأرض، وليتشكل من خلالها مفهوم المواطنة في الإسلام.

وأخيرًا: نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يأخذ إلى الحق بنواصينا، وما جهدنا هذا إلا اجتهاد من ضعيف، فإن أصبنا الحق فذاك محض فضلٍ من الله تعالى، وإن يك غير ذلك فهو من ضعف نفوسنا ووسوسة الشيطان.

(٣٥) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط٢، (بيروت: دار التراث، ١٣٨٧)، (٣: ٢٢٥).
(٣٦) البخاري، الصحيح، فضائل الصحابة، باب إخاء النبي بن المهاجرين والأنصار، حديث رقم (٣٥٦٩).
(٣٧) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب، د. ط، (الإسكندرية: دار ابن خلدون، د.ت)، (٩٩).

مفهوم التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين

د. مجدي محمد قويدر
عضو هيئة علماء فلسطين في الخارج ومدير تحرير مجلة المرقاة المحكّمة

التغيير سنة ماضية في الحياة، وحقيقة قائمة مشاهدة في المجتمع الإنساني، وقد شغل موضوع التغيير أذهان كثير من العلماء والمفكرين ورواد الإصلاح الذين اتفقوا على قدرة الإسلام على التغيير والنهوض الحضاري، وتجاوز واقع التخلف والاستلاب الحضاري إلى آفاق التقدُّم والرقي، وهذه القناعة الراسخة هي سبب التحرك والمحاولات المتعددة لاسترداد الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

ومن رواد التغيير والإصلاح في هذا العصر الإمام عبد السلام ياسين مؤسس جماعة العدل والإحسان، صاحب نظرية المنهاج النبوي تربية وتنظيمًا وزحفًا، الذي تميز برؤيته السُّننية لتغيير الواقع، وبوضوح الأهداف وشمولية الرؤية والجرأة في طرح الأفكار والتدرج في الخطوات، واستلهام تجارب الأمم وخبرة الحركات الإسلامية ورواد الفكر والإصلاح، والخروج بنظرية تجديدية تجمع بين طلب القرب من الله وتحقيق العبودية الخالصة وبين تربية النفس الإنسانية طلبًا للغايةِ الإحسانية وتحقيقِ العدل في الدنيا والنهوض بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وصولًا إلى تحقيق العمران الأخوي وتوحيد الأمة واسترجاع خيريتها وإقامة خلافتها على منهاج النبوة تحقيقًا للغاية الاستخلافية في الأرض، فهذا الجمع بين طلب الإحسان والعدل بشكل متكامل متناسق هو أساس مشروع الإمام التغييري الذي يعد إضافة نوعية في الفكر والإصلاح والتنظير للتغيير، وفي هذا البحث استجلاء لمفهوم التغيير بأبعاده المختلفة عند الإمام ياسين، وقد جاء في تمهيد يتضمن سيرة موجزة للإمام عبد السلام ياسين، ومباحث:

المبحث الأول: التغيير لغةً واصطلاحًا.

المبحث الثاني: مفهوم التغيير عند الإمام ياسين.

المبحث الثالث: التغيير سنة ربانية.

المبحث الرابع: التغيير الجوهري للإنسان الفرد.

تمهيد: سيرة موجزة للإمام عبد السلام ياسين

ولد عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن إبراهيم في سبتمبر ١٩٢٨م، وتلقى دروسه الأولى في مدرسة أسسها الشيخ العلامة المغربي محمد المختار السوسي، ثم تخرج بعد أربع سنوات ليلتحق عام ١٩٤٧م بمدرسة تكوين المعلمين بالعاصمة الرباط، وعمل في سلك التعليم ٢٠ سنة، وتقلب بين عدد من المناصب والمسؤوليات التربوية والإدارية بوزارة التعليم.

أرسل عبد السلام ياسين نصيحة إلى الملك الحسن الثاني عام (١٩٧٤) في أكثر من مائة صفحة سماها «الإسلام أو الطوفان»، وأرسلها أيضًا إلى كبار الشخصيات والعلماء والسياسيين ورجال الفكر والثقافة قبل أن تصل الملك، جاء فيها: «اعلموا أن صاحبكم -يقصد الملك- إن طرح النصيحة

وماطل وراوغ ذاهبٌ أمرُه وصائرٌ إلى ما يصير إليه مَن أخذته العزة بالإثم حين قيل له: اتق الله». كانت رسالة شديدة اللهجة قضى على إثرها ثلاث سنوات وستة أشهر محتجزًا في مستشفى الأمراض العقلية، فهذه الرسالة بداية مرحلة سياسية جديدة في حياته، أبرز معالمها الدخول في حلقات من الصراع مع الدولة، وبعد موت الحسن الثاني وتولي الملك محمد السادس الحكم أرسل إليه ياسين رسالةً تحت عنوان «إلى من يهمه الأمر».

خرج ياسين من سجنه عام ١٩٧٨، وما إن عاد إلى الدروس في المسجد حتى صدر الأمر بمنعه من التحدث إلى الناس، فأصدر في فبراير ١٩٧٩ العدد الأول من مجلة "الجماعة" لتخاطب الناس وتبلغهم أفكاره، انتشرت «الجماعة» فكونت جماعةً من الناس التفوا حول ياسين، ثم لاقت مضايقات وصودرت أعدادها، وقبل وقفها تمامًا كتب فيها مقالًا تحت عنوان: «قول وفعل» ردَّ فيه على ما ورد في رسالة ملكية نشرها الحسن الثاني بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري، وقد كان هذا المقال السبب في اعتقاله الثاني عام ١٩٨٣.

جماعة العدل والإحسان:

خرج الشيخ عبد السلام ياسين من معتقله عام ١٩٨٥ فوجد مجموعته قد توسعت تنظيميًّا وعددًا، ما مكَّنه عام ١٩٨٧ من رفع شعار «العدل والإحسان»، ثم أطلقَ الاسم نفسه على الجماعة التي صار مرشدًا لها، وعدَّتها السلطات المغربية جماعة غير شرعية، إلا أن ذلك لم يحل دون أن يصبح للجماعة حضور واضح في المؤسسات التعليمية والثقافية ودُور الشباب، وتقاطعت جماعة العدل والإحسان في توجهاتها مع الطرق الصوفية؛ فقد اشتمل المنزع الروحي لها على تصور تربوي قائم على الصُّحبة والجماعة والذِّكر، لكنها جمعت إلى هذه الأحوال الصوفية منزعًا سياسيًّا حيث وضع ياسين تصورًا يتميز برفض العنف والاغتيال السياسي ورفض السرية.

ولما رأت الدولة أن أمر الرجل رغم التضييق والقمع لا يزداد إلا اتساعًا، فرضت عليه حصارًا جزئيًّا في بيته عام ١٩٨٩ حتى إن كل من أراد أن يدخل بيت ياسين كان يطلب منه تقديم بطاقة الهوية لرجال الأمن، وقد منع من الخروج كما منع الناس حتى أقرباؤه من زيارته، وفي عام ١٩٨٨ قرر أفراد الجماعة الامتناع عن تقديم بطاقة الهوية عند زيارة بيت ياسين، فكان أن ضاقت السلطات بنشاطهم الآخذ في التصاعد خاصة اللقاءات في بيت المرشد، فجاء الحصار الشامل، وفي مطلع عام ١٩٩٠ خرج ياسين لصلاة الجمعة وألقى كلمة في جموع المصلين من عموم الناس وأعضاء الجماعة معلنًا فتح جبهة جديدة، وسبقت هذه الفترة اعتقالات ومحاكمات حتى تم اعتقال جميع أعضاء مجلس الإرشاد، ثم وضع ياسين تحت الإقامة الجبرية أكثر من ١٠ سنوات حتى ١٠ مايو ٢٠٠٠، واستمر النشاط الدعوي والإرشادي للشيخ عبد السلام ياسين رغم التضييق المتواصل من قبل السلطات المغربية إلى أن وافته المنية في ١٣ ديسمبر ٢٠١٢م.

المبحث الأول: التغيير لغةً واصطلاحا

قضية التغيير من أهم القضايا التي تتداوَل في الوقت الراهن على المستويات كافة، ويُعَد مصطلح التغيير الأكثر تناولًا في الفضائيات والحوارات والجلسات بعد اندلاع شرارة الثورات العربية، التي هبت لاستعادة الكرامة والحرية المفقودة وإسقاط رموز الفساد ودهاقنة الاستبداد، وكان الإمام عبد السلام ياسين أولى التغيير اهتمامًا كبيرًا في تراثه الفكري، ووضع إجابات شافية لقضايا التغيير في نظرية المنهاج، وفي هذا المبحث إضاءة لمفهوم التغيير لغةً واصطلاحًا ليكون مدخلًا لتناول مفهوم التغيير عند الرائد الصدوق الإمام ياسين:

المطلب الأول: التغيير لغةً

الغين والياء والراء أصلٌ يدلُّ على التحوُّلِ والتبدُّلِ: تغيَّر الشيءُ عن حاله تحوَّل، وغَيَّرَه حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ، أي جَعَلَه غَيْرَ ما كَانَ، ويأتي بمعنى اختلافِ شيئين، وقولُنا: هذا الشَّيءُ غيرُ ذاك أي: هو سِواه وخلافه، وتغايرت الأشياء اختلفت، والغِيَرَ أي تَغَيُّر الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد(١)؛ فالتغيير في معناه اللغوي له صورتان: أولاهما تغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال: غيرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان، وثانيتهما تبديل شيء بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما، وينبغي ملاحظة الفرق بين التغيير والتغيُّر، فالتغيير هو «إحداث شيء لم يكن قبله»، وهو عملية إرادية، أما التغيُّر فهو «انتقال الشيء

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢/ ٣٠٧، ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، (٥/ ٣٣٢٥).

من حالة إلى حالة أخرى»(٢)، والانتقال يكون غير إرادي أحيانًا كما أن حركته متوجهة من خارج الإنسان إلى داخله.

المطلب الثاني: التغيير اصطلاحًا

التغيير من أكثر المفاهيم التي لازمت الحياة الإنسانية من فجر نشأتها إلى وقتنا الحاضر، حتى أصبح هذا المفهوم قانونًا أساسيًّا في الحياة ومن السنن المسلَّم بها، وقد تعددت نظرة العلماء والمفكرين للتغيير تنظيرًا وتطبيقًا، واختلفت تبعًا لذلك الأهداف والبرامج والبدايات، وجاءت النهايات في بعض مشاريع التغيير دون الآمال، وبعضها الآخر باء بالفشل والخسران لأنه جانب الشرع واصطدم بنواميس الكون، وفي هذا المطلب تبيان لمفهوم التغيير عند بعض الكتاب الإسلاميين:

١- تعريف جودت سعيد: «هو عملية مقصودة تتم وفق بواعث ومبررات ووسائل شرعية للوصول إلى أهداف ونتائج تعكس المبادئ، ويكون من نتائجه إحداث مواقف جديدة وبرؤية وجوانب أعمق وأوسع للأحداث»(٣).

٢- تعريف محسن عبد الحميد: «عملية مقصودة تحدث من داخل الإنسان وبإرادته ووفق اختياره، والله سبحانه وتعالى يعين الإنسان على إحداث التغيير الذي اختاره بنفسه وإرادته الحرة»(٤).

٣- تعريف عبد الكريم بكار: «عمل قصدي بشري يقوم به الناس بغية الوصول إلى أهدافهم»(٥).

هذه التعريفات اتفقت على أن التغيير عمل إرادي مقصود ينبع من نفس الإنسان، ولم تحدد طبيعة أهداف التغيير وغاياته هل هي فردية أم جماعية، دنيوية أم أخروية؟ وما هي الوسائل الموصلة إلى التغيير؟ وما هي النتائج المرجو تحقيقها على مستوى الفرد والجماعة؟ وهذا ما جعل التعريفات تتسم بالتعميم، وأضفى نوعًا من الغموض على مفهوم التغيير.

المبحث الثاني: مفهوم التغيير عند الإمام ياسين

انطلق الإمام ياسين في بيان مفهومه للتغيير من القرآن الكريم بوصفه مصدر علم التغيير، ومن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- بصفتها النموذج التطبيقي للتغيير، فقال: «في طريقنا إلى دولة القرآن وفي خطوات دولة القرآن نحو مجد الإسلام لا دليل لنا في المهمات وفي تحديد الأهداف والغاية إلا كتاب الله -عز وجل- كما طبقته سنة رسوله عليه من الله الصلاة والسلام»(٦)، وبين الإمام ياسين

«أن القرآن يشير إلى منهجية تغيير المجتمع بنيويًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وشرع لذلك الشرائع ورسم له منهاجًا»(٧).

وقد عبر الإمام عن مفهومه للتغيير بقوله: «التغيير الجذري في تصور الإنسان لنفسه وللعالَمين الدنيوي والأخروي وللمسؤولية بين يدي الله بعد الموت»(٨)، ثم بين الإمام أن هذا التغيير «يلمس جوهر الإنسان ونفسيته وعقيدته وأخلاقه وإرادته وحركته كلها على الأرض؛ لتكون حركةً لها غاية ومعنى وارتباط بمصيره بعد الموت وبمصير أمته في التاريخ»(٩).

التغيير عند الإمام عبد السلام ياسين مفهوم أصيل مستمد من القرآن الكريم، ذو أبعاد متعددة يستهدف جوهر الإنسان وهو الأنفس؛ ليراجع الإنسان من مواقفه، وينتبه لمصيره، ويقبل على نفسه يغير ما بها لتقبل على ربها(١٠)، فالتغيير المنشود هو في الأساس تحول للإنسان من حال إلى حال، والتوبة إلى الله والإنابة إليه مركز الانطلاق للتغيير الفردي، فإنَّ «موقف الإنسان المؤمن من نفسه ومن العالم يتغير بالتوبة إلى الله الشاملة... والمؤمن التائب والناشئ على إيمان يضع أوامر الله عز وجل مواضعها في كل جوانب حياته،

(٢) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق محمد السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م، ص (٦٧).
(٣) سعيد، جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر- دمشق، ط٨، ١٩٨٩م، ص (٧).
(٤) عبد الحميد، محسن، منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص (١٤).
(٥) بكار، عبد الكريم، تجديد الوعي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠١٥م، ص (١٨٠).
(٦) ياسين عبد السلام، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص (٨٥).
(٧) إمامة الأمة، ص (٨٦).
(٨) إمامة الأمة، ص (٨٨).
(٩) المرجع السابق.
(١٠) المصدر نفسه، ص (٨٦).

تصطبغ حياته بصبغة الله، وتنضبط بطاعة الله، ينبعث، ينبري، يسارع في الخيرات، يسعى سعي الآخرة لا كدح الدنيا»(١١).

> " التغيير في بعده السياسي عند الإمام ياسين قومة في مواجهة الظلم والاستبداد والتخلف الحضاري والطبقية الظالمة والتبعية لشرق الجاهلية وغربها "

والتوبة المقصودة عند الإمام ياسين هي التوبة الانقلابية بحيث «يتغير المؤمن والمؤمنة نفسًا وفكرًا وحياة بالتوبة العميقة الانقلابية»(١٢)، وهي ليس مجرد استغفار من الذنوب والمعاصي على أهمية تلك التوبة وضرورة ملازمة الإنسان لها، وإنما توبة التحول من الغفلة إلى اليقظة، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للقاء الله، إنها «توبة انقلابية لا التوبة الجزئية الآنية الطارئة من ذنب يقترف ومعصية تؤتى، هذه لازمة مواكبة لحياة المؤمنين والمؤمنات، يُخطِئُون ويأثمون فيستغفرون الله فيغفر لهم، إنه غفور رحيم» بل «التوبة قلب دولة»، فهي تلك التي تنقل المؤمن من عالم إلى عالم، من عالم الغفلة عن الله وعن نفسه الهائمة وعن مصيره الأخروي إلى عالم اليقظة والتهمُّم بلقاء الله عز وجل»(١٣)، فالتغيير بالتوبة تحرير للإنسان من كل عبودية ليدخل في عبودية الله وحده(١٤).

هذه هي «رسالتنا لأنفسنا وللإنسان: أن يكون الله عز وجل غاية كل فرد من العباد، أن يكون ابتغاء رضاه والسباق إلى مغفرته وجنته، والسير على مدارج الإيمان والإحسان لمعرفته والوصول إليه والنظر إلى وجهه الكريم: منطلقَ الإرادة وحادي المسارعة وقبلة الرجاء» (١٥)، وهذا يجعل المكلف دائب الحركة لاقتحام مراقي الصعود ومعارج القرب من مولاه عبادة وتبتلًا ليسعد في الدنيا والآخرة.

والتغيير الجذري في بعده المجتمعي عند الإمام ياسين هو هدف القَومة(١٦)، والمراد به تغيير جوهري يأتي بنيان الفتنة من القواعد(١٧)، «والمطلوب إرجاع الوضع إلى نصابه الإسلامي، وإخضاع الواقع الثقيل لعمليات التغيير اللازمة حتى تَدور حياة المجتمع حول القرآن» (١٨)، فهو ليس استبدال طبقة بطبقة أو تناوبًا على السلطة، أو مشروعَ تنمية أو عدالة اجتماعية، أو إصلاحات قصيرة المدى كما يحدث في التغيير الثوري الذي يغير الأشكال وبنى المجتمع واقتصاده وسياسته، ولا يولي مركز التغيير -وهو الإنسان وغاية وجوده- أي اعتبار(١٩)، يقول الإمام: «تهدف دولة القرآن إلى كل ذلك التغيير، وتعتبره واجبًا من آكد واجباتها، لكن الدعوةَ إلى الله وإنقاذَ الإنسان من ظلام الكفر وقتامة النفاق وقذارة معصية الله وغبش الغفلة عنه المؤدية إلى بؤس الدنيا وعذاب الآخرة هي الهدفُ الأسمَى، ومحورُ الحركة ومحطُّ الطموح» (٢٠).

والتغيير في بعده السياسي عند الإمام ياسين قومة في مواجهة الظلم والاستبداد والتخلف الحضاري والطبقية الظالمة والتبعية لشرق الجاهلية وغربها، قال الإمام: «نريد أن نُعبِّر بقومة؛ لأنها تعيد لأذهاننا تلك القداسة التي كان يتمتع بها القائمون من آل البيت الذين حاربوا الظلم والاستبداد،

(١١) ياسين، عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤م، ص (٩٨-٩٩).
(١٢) المرجع السابق، ص (١٠٢).
(١٣) المصدر نفسه، ص (١٠٠).
(١٤) إمامة الأمة، ص (٨٦).
(١٥) ياسين، عبد السلام، المنهاج النبوي تربيةً وتنظيمًا وزحفًا، الشركة العربية الإفريقية، ط٢، ١٩٨٩م، ص (٨).
(١٦) المرجع السابق، ص (٢٤٥).
(١٧) المرجع نفسه، ص (٣١).
(١٨) ياسين، عبد السلام، سنة الله، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط٢، ٢٠٠٥م، ص (٢١).
(١٩) المرجع السابق، ص (٨٥-٨٦).
(٢٠) المرجع نفسه، ص (٨٧).

إمامهم في ذلك سِبْطُ الرسول الحسين عليه السلام»(٢١). وقال: (قومة لا ثورة، وكلمة قام تعطي معاني القوة والاستقامة والصبر والإتقان...، أمرنا أن نقيم العدل إذا حكمنا بشرط أنفسي هو ''القيام لله''، وشرط آفاقي هو ''القيام بالقسط،'' هذا من ذاك وذاك إلى هذا») (٢٢).

والقومة السياسية ليس مقصدها الحكم والاستحواذ على السلطة لذاتها، وإنما لتقرير الحاكمية لله وتعبيد الناس لخالقهم واستعادة الحكم الشوري؛ لتكون الدولة في خدمة الدعوة، وتحقق أمانة الاستخلاف وحراسة الدين» وليست القومة الإسلامية ثورة قطرية إقليمية تنتهي مهمتُها عند تغيير بُنى المجتمع وتنشيط اقتصاده وتطوير وسائله، بل هي رسالة القرآن إلى الإنسان أن يغيرَ موقفه وينتبه لمصيره، ويُقبِلَ على نفسه يُغيِّرُ ما بها لتُقبِلَ على ربها»(٢٣).

يتبين لنا من خلال هذه المراجعة لتراث الإمام ياسين أبعاد مفهوم التغيير وامتداداته وشموليته، وعمقه الجوهري الذي يربط بين الغاية من وجود الإنسان بمصيره بعد الموت، ويتسع المفهوم لما هو ذاتي وجماعي، ويلتحم فيه الروحي بالاجتماعي والسياسي في محاولة تجديدية لإعادة بناء الأمة في مختلف جوانب حياتها واستنهاض مكوناتها وتعبئة طاقاتها؛ لتحقيق الاستخلاف الإنساني وقيام العمران الإيماني في الحياة الدنيا، ونيل رضا الله وسعادة الأبد في دار الخلود يوم القيامة، يقول الإمام: «القومة تغيير دوافع الإنسان وشخصيته وأفكاره، تغيير نفسه وعقله وسلوكه، تغيير يسبق ويصاحب التغيير السياسي والاجتماعي»(٢٤).

المبحث الثالث: التغيير الاجتماعي سنة ربانية

اقتضت حكمة الله في الخلق أن تحكم حركة الكون وحركة الاستخلاف الإنساني قوانين وسنن ثابتة مطردة، تتكرر نتائجها كلما توفرت مقدماتها وشروطها وانتفت عوائقها، والقرآن لفت انتباه المسلم إلى هذه السنن الاجتماعية التي تحكم الحياة، وطلب منه السير في الأرض والتوغل في التاريخ البشري للكشف عنها ومعرفتها والاستفادة منها، ومن أهم السنن التي نبه إليها القرآن سنة التغيير الاجتماعي، أتناولها بشيء من التفصيل على النحو التالي:

المطلب الأول: سنة التغيير الاجتماعي في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن سنة التغيير في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال:٥٣]. بينت الآيتان أن التغيير يبدأ من الأنفس سواء بالارتقاء أو الانتكاس، فإذا وجدت الأسباب تبعتها النتائج، وحدوث التغيير من الله مرتبط ومترتب على حدوثه من البشر سلبًا أو إيجابًا.

وقوله تعالى في هذه الآية: {إن الله لا يغير ما بقوم} أي من النعمة والإحسان ورغد العيش {حتى يغيروا ما بأنفسهم} بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله إياها عند ذلك، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة(٢٥).

وذكر الله النفس «لأن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح، وحين تصلح النفس تصبح الجوارح مستقيمة، وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة، فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لِمُرادَات النفس، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله فاللسان خاضع لها، ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد لأن النفسَ التي تديره مخالفةٌ للإيمان»(٢٦).

وتغيير الله لحالة الناس للأسوء لا يشترط لحصوله تغيير جميع الناس لحالتهم، بل يحصل بتغيير بعضهم دون بعض، قال

(٢١) ياسين، عبد السلام، رجال القومة والإصلاح، دار لبنان، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص (٨).
(٢٢) سنة الله، ص (٢٩٧-٢٩٨).
(٢٣) إمامة الأمة، ص (٨٨).
(٢٤) رجال القومة والإصلاح، ص (٧).
(٢٥) السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص (٣٢٤).
(٢٦) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م، (١٢/ ٧٢٤٣).

القرطبي: «أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير؛ إما منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير»(٢٧)، كما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل (أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟) قَالَ: ((نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))(٢٨).

والتغيير من الناس لا يلزم أن يكون من حالة أحسن إلى أسوأ أو العكس، بل قد يكون من حالة أحسن إلى حالة أحسن منها، أو من حالة أسوأ إلى حالة أسوأ منها، مثال ذلك كفار قريش كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم عبدة أصنام، فلما بُعث إليهم بالآيات البينات كذبوه وعادوه، وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه، غيَّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب(٢٩). والتغيير يشمل جميع النعم صغيرها وكبيرها، لا يختص بنعمة دون غيرها، قال الألوسي: «أي لم ينبغِ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغيَّر نعمة أي نعمة كانت جلت أو هانت أنعم بها على قوم من الأقوام {حتى يغيروا ما بأنفسهم} أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو أهون من الحالة الحادثة»(٣٠).

والتغيير سنة عامة لا يختص بقوم دون آخرين، فهو شامل لكل الناس سواء كانوا مؤمنين أم كافرين؛ لأن المدلول المطلق للفظ (قوم) الجماعة من الناس، والحق سبحانه لم يقيِّد هذه الجماعة من الناس بوصف، فيبقى اللفظ على إطلاقه، فلفظ (قوم) في الآية نكرة، والنكرة تفيد الشيوع بأصلها، فمتى ما حقق الناس أسباب وجود السنة الإلهية وقعت ما لم يمنعها مانع، بغض النظر عن دينهم أو أصلهم أو أي اعتبارات أخرى(٣١). فالتغيير سنة ثابتة مطردة لا تتبدل ولا تتحول، ولا تُحابي أحدًا، ولا تتسلط على أحد، ولا تُدرك بالأماني، يقول محمد رشيد رضا: «أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله، فهلكوا وحل بهم الدمار، ثم لعُدُولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة حادوا عن الاستقامة في الرأي والصدق في القول والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين، هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال كسنته تعالى في الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال»(٣٢).

ومن المعلوم أن التغيير لا بد أن يرتكز على مقومات ثلاثة:

أولها العقيدة:

فالإيمان بالله تعالى يعد شرطًا أوَّليًّا لبسط النعمة أو بالمصطلح المعاصر: «الحضارة» أو الرفاهية والرخاء، والعمل الصالح الذي يترجم هذا الإيمان إلى سلوك هو صِمَام الأمان للحفاظ على هذه النعمة أو الحضارة.

(٢٧) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، (١٢/ ٣٢).
(٢٨) صحيح مسلم، كتاب الفتن: باب اقتراب الفتن، ح (٢٨٨٠).
(٢٩) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م، (٢/ ٥٩١).
(٣٠) الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٠/ ١٩-٢٠).
(٣١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص (٣١).
(٣٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، (٤/ ٢٠٤٩).

ثانيها الإنسان:

وهو محور التغيير لأنه اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، فلا بد من تزكيته وتربيته وتهيئة إرادته للعمل والإبداع عن طريق شحذ قوته الداخلية الروحية والعاطفية والنفسية والعقلية؛ ليمتلك رصيدًا ضخمًا في مجال المبادرات الحضارية.

ثالثها الزمن:

بوصفه عاملًا رئيسًا لإنضاج عملية التغيير؛ ذلك أن التغيير النوعي في المجتمع يتطلب فترة زمنية كافية حتى يكتمل ويؤتي ثماره يانعة سائغة.

إن سنن الله تعالى المبيَّنة في القرآن الكريم وفي السنّة الشريفة جديرة بالدراسة والفهم؛ لأن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جدًّا الواجبة شرعًا؛ إذ هي جزء من معرفة الدين، ومن جملته معرفة أحوال الأمم مع أنبيائهم وما حلَّ بهم بسبب سلوكهم معهم وفقًا لسنن الله تعالى كما أنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعِثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله عز وجل منه، ونظفر بما وعد الله تعالى به عباده المتقين، «والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها...، ولا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله تعالى من ذكرها...، إنهم بما لهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط؛ كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها»(٣٣).

المطلب الثاني: سنة التغيير في فكر الإمام عبد السلام ياسين

بنى الإمام عبد السلام ياسين مشروعه الإصلاحي على أساس سنة التغيير، قال: «جاء في القرآن اقْتِرانُ تغيير الأحوال بتغيير ما بالنفس في سورة الرعد وسورة الأنفال، قال المفسرون بأن الآيتين تُخبران عن تغيير الله عز وجل نعمته نقمة على قوم جحدوا دينه، والآيتان دالتان أيضًا على حصول العكس في حق مَن غير نفسه من جحود وكُفران لاعتراف وإيمان جريًا على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»(٣٤). «مهمة تغيير ما بنا لا حلَّ لها إن لم نغير ما بأنفسنا، فكما خذلنا حين تنكبنا شريعته ينصرنا إن رجعنا إليه، والرجوع إلى الله إنما يكون عن دعوة داع وتربية مرب، إرجاع الأمة بكاملها إلى الله تعالى قضيتنا، فقبل أن نصل إلى الحكم تبذل الدعوة جهدها لتغيير وجهة سفينتنا الموحولة في المياه الفتنوية العكرة»(٣٥).

وأول تغيير لما بالنفس الانتقال من المعصية إلى التوبة والاقلاع عن الذنوب، فهو مقدمة لتغيير ما بالواقع، قال الإمام ياسين: «تشير الآية في عموم إطلاقها إلى أن المسلم التائب عندما يتغير موقفُه من نفسه ومن خالقه ومن الكون، وعندما تتغير علاقاته تبَعا لذلك الموقف وأخلاقُه وتصورُه، يتغير ما به من رذيلة وظلم اجتماعيٍّ واستبداد سياسيٍّ وعجز اقتصاديٍّ وخمولٍ فكريٍّ وتبعيةٍ للجاهلية»(٣٦).

وتغيير ما بالأمة لن يتم بمعجزة خارقة بل بسنة جارية، وهي تغيير ما بالأنفس أي من داخل الإنسان وعزمه وإرادته، يقول الإمام ياسين: «سنة الله ترتيب النتائج على المقدمات، وترتيب المرحلة على المرحلة، والمعلولات على العلة، وتغيير ما بالقوم على تغيير ما بأنفسهم، والفوز في المعركة على إعداد القوة»(٣٧).

ومن خلال التغيير الداخلي للإنسان تتحدد طبيعة التغيير الذي سيكون في الخارج إيجابًا أو سلبًا؛ لأن موقف الإنسان

(٣٣) تفسير المنار، (٤/ ١١٤-١١٥).
(٣٤) إمامة الأمة، ص (٨٦).
(٣٥) المنهاج النبوي، ص (٢٤٢).
(٣٦) إمامة الأمة، ص (١٨٠).
(٣٧) سنة الله، ص (٢١).

وسلوكه تجاه التاريخ والأحداث نابع من النفس وقناعاتها وقيمها، والإنسان مسؤول في الدنيا والآخرة عن نتائج تفاعله مع الأحداث ومواقفه حيال الأشياء، يؤكد على هذا المعنى سيد قطب في تفسيره لآيات التغيير، فيقول: «هذه الآيات قررت عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، ومن الجانب الآخر يُكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيًّا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم»(٣٨). «فالله يراقب عباده، فيرتب تصرفه بهم على ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم، فإنه لا يغير نعمة أو بؤسًا، ولا يغير عزًا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقًا له في الزمان بالقياس إليهم»(٣٩).

التغيير قانون اجتماعي وليس قانونًا فرديًّا، دل على ذلك قوله (ما بقوم)، فلم يقصد هنا فردًا، وإن الحديث عن قوم أي عن مجتمع له خصائصه وعناصره، ثم جاءت كلمة (ما بأنفسكم) لتشير إلى المجتمع مرة أخرى، ومع أن تغيير الأنفس أساس التغيير المجتمعي فإن تغيير فرد أو مجموعة أفراد ما بأنفسها لا يعني حدوث تغيير في المجتمع، ما لم تتم إثارة الوعي بقضايا المجتمع ومشكلاته وكيفية مواجهتها عند السواد الأعظم من الأفراد على أقل تقدير، وحشد طاقاتهم وإمكانياتهم ومواهبهم ضمن رؤية موحدة تقوم على أساس العمل الجماعي لإصلاح ما فسد(٤٠)، وتغيير الظروف الاجتماعية المحيطة بالأفراد، وهذا ما أطلق عليه الإمام ياسين تعبئة المستضعفين حيث قال: «الهدَفُ من تجنيد العامة وتعبئة المستضعفين إيقاظُ القلب إلى معاني الإيمان، ورفعُ الهمم إلى نُشدان الكرامة الآدمية وكمال الإنسان، ثم إيقاظُ الفِكر من سُبات الزمان، وبَثُّ الوعي السياسيِّ لِيَهْتَمَّ المستضعفون بما يَجري في الحَدَثَانِ»(٤١).

وتعبئة المستضعفين بتعبير الإمام ياسين تحتاج إلى كتلة بشرية متميزة أُعدت سابقًا لهذه المهمة الشاقة، ولديها القدرة على تحريك العامة وتحفيز عزائمهم، قال الإمام: «والمفروضُ أن المحرِّكَ للعملية -وهم جند الله- جماعةُ الحق في رابطتهم الجهادية، يكونون قد تجاوزوا كل هذه المراحِل من اليقظة والتربية وشحذ العزائم قبل أن يتصدَّوْا لتحريك غيرهم على النطاق الواسع»(٤٢).

المبحث الرابع: التغيير الجوهري للإنسان الفرد

الإنسان حجر الزاوية في عملية التغيير، وهو موضوع التغيير ووسيلته وهدفه، ولا قيمة لتغيير البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ما لم يتغير الإنسان عقيدة وفكرًا وسلوكًا، ومنطلق تغيير الإنسان ما بنفسه هو الإرادة المحركة الباعثة على الانتقال من الغفلة إلى اليقظة على المستوى الفردي، ومن الانقياد للطاغوت إلى الانعتاق على المستوى الجماعي، وفي هذا المبحث بيان لمركزية الإنسان في التغيير، ودور الإرادة الحرة في صناعة التغيير.

المطلب الأول: الإنسان محور عملية التغيير

إن الإنسان الفرد هو اللبنة الأولى في المجتمع، وإعادة بناء الإنسان الفرد وتربيته هي الطريق الصحيحة للتغيير الحضاري المنشود والبداية لكل التحولات الإنسانية التي نطمح إليها؛ فالإنسان أساس البناء وخميرة النهوض،

(٣٨) سيد، قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣٨، ٢٠٠٨م، (٣/ ١٥٣٥).
(٣٩) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٤٩).
(٤٠) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص (٣٨).
(٤١) إمامة الأمة، ص (٤٦).
(٤٢) إمامة الأمة، ص (٤٦-٤٧).

وعليه تقوم الحضارات والأمم؛ لذلك أكد الإمام ياسين على مركزية دور الإنسان في التغيير بوصفه موضوع التغيير ووسيلته وهدفه في آن واحد، والتغيير الجوهري للإنسان يسبق تغيير السياسات والهياكل، قال الإمام: «والقومة تغيير دوافع الإنسان وشخصيته وأفكاره، تغيير نفسه وعقله وسلوكه، تغيير يسبق ويصاحب التغيير السياسي الاجتماعي»[٤٣] «وكل تغيير في السياسة والاقتصاد فإنما هو تبَعٌ لهذا التغيير الكلي الجوهري للإنسان»[٤٤]. فلا معنى لتغيير السياسات والهياكل ما لم يتغير الإنسان الذي سيقوم بتنفيذها، وسيغدو عندئذ التغيير شكلًا بلا مضمون، ولن يجعل منا أمة مقتدية بالهدي النبوي، مطلبها الإحسان والزلفى عند الله في الآخرة وإقامة العدل في الأرض، بل عدَّ الإمام تغيير الهياكل دون تغيير الإنسان تضييعًا للجهد في دوامة التجارب الفاشلة[٤٥].

الأساس الأول للتغيير الجوهري للإنسان يبدأ بتصويب الاعتقاد وتصحيح التصورات وإدراك الغاية من الوجود، يقول الإمام ياسين: «التغيير الكلي الجوهري: للإنسان ونفسيته وعقيدته...»[٤٦] و«هذا التغيير الجذريُّ في تصور الإنسان لنفسه وللعالمين الدنيويِّ والأخروي وللمسؤولية بين يدي الله بعد الموت» «ورسالة القرآن إلى الإنسان أن يغير موقفه، وينتبه لمصيره، ويقبِل على نفسه يغيِّرُ ما بها لتقبِلَ على ربها»[٤٧]. وكل تغيير لا يحقق هذه الغاية ليس له أي وزن أو قيمة.

إن بناء العقيدة السليمة في النفس الإنسانية هو الأساس الأهم في التغيير الفردي، وأول قواعد بناء العقيدة التصور السليم عن الذات الإلهية المستحقة للتوحيد والعبادة والاتصاف بالقدرة المطلقة والعلم النافذ في جميع الكليات والجزيئات وغيرها من الصفات المختصة بذاته جل وعلا، وتخلية العقول مما ترسب إليها من انحرافات تؤدي إلى الشرك والضلال، هذا ويستلزم الإيمان بوجود الله تعالى الإيمانَ ببقية الأركان؛ إذ كيف يصل الإنسان إلى توحيد الخالق إلا من خلال وجود رسائل منه ورسل يوصلونها؟ وإن من مقتضيات العدل أن يكون هناك يوم للجزاء ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، قال تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦].

إن الإيمان بالله وتوحيده هو بمثابة إعلان تغيير النفوس من الظلمات إلى النور، والتحول من الشر إلى الخير، والخروج من أحكام الدنيا إلى أحكام الدين، والالتزام بمنهج الله دون غيره، وهذا يوجب يقظة في القلب واستقامة على الطريق ورقابة لله في السر والعلن وإحسان العمل وتحقيق الغاية من وجود الإنسان واستخلافه في الأرض.

الأساس الثاني للتغيير الجوهري إصلاحُ الفكر والعقل؛ لأن له دورًا كبيرًا في عملية التغيير، فهو المغذي الرئيس لعملية التغيير الفردي بكل جوانبها ومراحلها، وهو دعامة الثبات والانضباط لها وفق منهج الله؛ كي لا تجتث من أساسها أو تضطرب في مسارها، فالتغيير يقوم على معارف ومدركات وقناعات تستند إليها النفس في تنفيذ سلوكها، وإنما يتم التغيير العميق عند الإمام ياسين بتغيير الذهنية والإقناع، وهو ليس بالأمر الهين اليسير[٤٨]. أما دور القيادة فهو تنوير الفكر وتحريره، يقول: «مهمةُ القيادة المجاهدة في هذه العمليات أن تشُدَّ فكر الأمة وعزمها إلى المَثَل الأعلى المنشود، وأن تسهر على جمع الإرادة المشتتة لتصنع منها سهما يخرِق الحواجز»[٤٩]، ولا بدَّ لتحرير العقول وتنوير الأفكار من حركة دائبة وسعي حثيث؛ وبذلك تحيا الهمم وتنبعث العزائم، يقول الإمام: «وحركةَ فكر وحركةَ عواطف تتناسق لتُحْيِيَ وقتَ العامة النائمَ في الأحلام المضطربَ بالتوافِه، ولتخاطِب الحواسَّ، وتستفِزَّ الفكر، وتَنْهَض بالإرادة البليدة»[٥٠].

(٤٣) رجال القومة والإصلاح، ص (٧).
(٤٤) إمامة الأمة، ص (٨٨).
(٤٥) المنهاج النبوي، ص (٢٣٨).
(٤٦) إمامة الأمة، ص (٨٨).
(٤٧) المرجع السابق، ص (٨٨).
(٤٨) ياسين، عبد السلام- الإسلام والحداثة، مطبوعات الهلال، ط١، ٢٠٠٠م، ص (٣١٠-٣١١).
(٤٩) إمامة الأمة، ص (٤٦).
(٥٠) إمامة الأمة، ص (٤٧).

إن الفكرة عندما تقتحم عقل الإنسان وتلج ضميره، تفعل فعلها في تغيير عقله وعاطفته فسلوكه ثم واقعه كله، فالفكر يسبق العمل دائمًا، ولو استعرضنا التاريخ البشري لوجدنا أن كل تغيير حدث في مكان ما قد سُبق بتغير في أفكار الناس المعاصرين، والتغيير يزداد عمقًا كلما كانت الفكرة ألصق بعقل الإنسان وضميره مرتبطة بمصدر غيبي روحاني أكثر من ارتباطها بمصدر مادي ملموس.

الأساس الثالث للتغيير الجوهري إصلاح السلوك، وهو نتيجة طبيعيَّة لإصلاح العقائد والأفكار لأن السلوك انعكاس لما في القلب والعقل، وأول مظاهر تغيير السلوك التوبة ثم اليقظة والاستقامة على أمر الله تعالى، وقد جمع الإمام ياسين الأسس الثلاثة في الجزء الثاني من كتابه الإحسان، فقال: «في هذا الكتاب تعرضنا قبل كل شيء للتغيير اللازم في نفسية المسلم والمؤمن وعقليته وسلوكه ليكون صالحًا في الآخرة، قريبًا من الله عز وجل في مقاعد الصدق، وصلاحُه في الآخرة وربانيَّتُه واستقامته على أمرِ الله ونهيِه ضمانٌ ليكون عمله في المجتمع صالحًا في ميزانه يوم القيامة، مصلحًا لغيره نافعًا لخلق الله»(٥١).

إن تكوين الفرد على هذه الوتيرة يجعله يعيش عصره بكفاءة وفعالية بحيث يشعر بقدرته على التغيير؛ تغيير نفسه وتغيير محيطه ورؤيته للأشياء، فيمتلك القدرة على مغالبة الرتابة والعادات السلبية والتفوق عليها، وتحديث أساليب الدعوة والخطاب بصورة مستمرة للوصول إلى تغيير واقع المجتمعات.

> " إن توتر القلب شوقًا إلى اللّه عز وجل يبقَى أماني جميلة عقيمة إن لم يصحبه توتر العقل لمعرفة الشريعة "

الفرد المسلم نواة المجتمع، والخلية الحضارية التي يجب تكوينها وبناؤها ورعايتها وتأمين المحضن المناسب لها، فإذا نُمّيت قدراته وصقلت مواهبه وشحذت فعاليته وفجرت طاقاته، استيقظت فيه روح العمل وتدفق عطاؤه، فيغدو بإمكاناته الروحية والمادية مستعدًا للتلقي والإبداع ومسابقة العصر ومواكبة حضارته بنظرة ثاقبة وبصيرة نيِّرة، وبعزيمة وثَّابة تتجاوز مظاهر الخمول والكسل والسلبية التي يعاني من رواسبها الإنسان المسلم في الوقت الحاضر.

المطلب الثاني: الإرادة الحقيقية للتغيير

إن الإنسان مخلوق مكرم ميزه الله بالعقل، ومنحه إمكانية الاختيار، وجعله أهلًا للتكليف، وأناط التغيير بإرادته، وجعله محور التغيير ووسيلته وهدفه، فالله سبحانه ربط تغيير الحال بإرادة الإنسان وحركته وتغيير ما بنفسه، حيث جعل الفاعل في قوله: {إن الله لا يغير} عائدًا إلى الله سبحانه، والفاعل في قوله {يغيروا} إلى الإنسان؛ ذلك أن من سنة الله وقانونه في التغيير أن يبتدئ من داخل الإنسان ويرتبط بإرادته(٥٢)، فهي الفاعل المحرك للتغيير في الحياة، وأي محاولة للتغيير وإعادة البناء لا بد أن تتجه إلى الإنسان بإحياء العزيمة وبعث الإرادة وتجديد الأفكار وتصحيح المسار وتجديد الإيمان وإشعال أشواق القلب إلى مرابع القرب من الله، فيبصر حقيقة وجوده ومآله بعد الحياة الدنيا، يقول الإمام: «إن توتر القلب شوقًا إلى اللهّ عز وجل يبقَى أماني جميلة عقيمة إن لم يصحبه توتر العقل لمعرفة الشريعة -الطريق، المنهاج، الكتاب والسنة، كلها مترادفات- ولم يصحبه توتر الإرادة على مدى الإنجاز وقطع المراحل، فبين مرمى الطرف ومحط الأشواق وبين مواقع الأقدام في الواقع الآني مسافات شواسع»(٥٣).

هذا التحول الإيجابي المنبعث من داخل الإنسان المبني على إشعاع الروح وأشواق القلب المصحوب بالإرادة يطلق طاقته ومواهبه من عُقُلِها، ويستيقظ من سباته، وينعتق من كسله وسلبياته، وينتبه لمصيره فيعمل لآخرته، «فلا يمكن للمسلمين أن ينتظروا تغيير ما بهم حتى يغيروا بتجديد

(٥١) ياسين، عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م، (٢/ ٣٦٦).
(٥٢) حسنه، عمر عبيد، رؤية في منهجية التغيير، الأعمال الفكرية الكاملة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١١م، (٤/ ٢٠٩٩).
(٥٣) ياسين، عبد السلام، مقدمات في المنهاج، ط١، ١٩٨٩م، ص (٧٤).

إيمانهم ما بأنفسهم من عقدة حب الدنيا والشح بها وإيثارها على الآخرة دار البقاء»[٥٤].

إذا تحقق الفرد بالإرادة وأيقن بضرورة التغيير على المستوى الذاتي تنتقل هذه الإرادة وتسري في المجموع، فيكون الاقتناع الشعبي بالتغيير، ويصبح مطلب الجمهور، ويشاركوا في إحداثه بإرادتهم، يقول الإمام ياسين: «إننا بحاجة أن تنبعث هذه الإرادة المغيرة الفاعلة من داخل صدور الملايين، وقد ألِفَتْ الملايين قرونًا أن تضع أمرَها بين يدي الحاكم وتتواكل إليه وتسكت عنه»[٥٥].

" التغيير سنة اجتماعية ثابتة مطردة نبه إليها القرآن الكريم، وعلى المسلمين إدراك أبعادها "

ويرى الإمام ياسين أن بعث الإرادة يتوقف على وجود جماعة تقود عملية التغيير، وتصنع شروطه في الواقع، يقول: «إن استراتيجية التغيير الإسلامي- كما نقرؤها في السيرة النبوية وفي القرآن الكريم- تتأسس على إرادة جماعة مجاهدة مبنية بناء خاصًّا، ثم إذا تغيرت النفوس الفردية في الجماعة وتقوت في الإيمان والإحسان إلى أن تكون عن استحقاق معنيَّةً بقول الله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أصبح القرآن برنامجها ونظامها المقترَح وأسلوبها، وأصبح موقعُ النظُم الجاهلية والأساليب والخُطَطِ منها موقعَ الكفر من الإيمان وموقعَ عصيان الله من الطاعة له ولرسوله وموقعَ العنف من الرفق"[٥٦]. إن مهمة هذه الجماعة حشد الأمة وتربيتها، وشد همتها إلى مطلوب العدل والإحسان، وأن تشرح لها مراحل الطريق وطبيعة الصراع وحجم التضحيات ومقتضيات التغيير، فالإرادة التي تنبعث على أساس من العلم أقوى على الصمود وتحقيق الموعود، «ومعرفة موضوع التغيير وحجمه وكَمه وكيفه وتطوره وقوى الصراع فيه ومن حوله مقدمةٌ وبابٌ ليدخل جند الله بإرادته الإيمانية على المستقبل من باب العلم، وحول هذا الداخل بثبات -مَن يعرف مواقع خطاه وهو مستعد لبذل النفس والمال والجهد- تلتف الأمة وتستعيد ثقتها في القيادة وفي نفسها»[٥٧].

إذًا إنَّ التغيير يتوقف على بعث الإرادة الفردية والجماعية معًا للنهوض بالمجتمع، وهذه الإرادة يجب أن تكون موجهة بخطة استراتيجية واضحة المعالم مكتملة الأركان واثقة الخطوات، وإلا استحالت حركة الجماهير إلى هيجان وفتنة مدمرة غير محمودة العواقب.

النتائج

١ . التغيير عند الإمام ياسين مفهوم شامل يبدأ بجوهر الإنسان، وهو نفسه وإرادته وعقيدته وأخلاقه وحركته على الأرض، ويمتد إلى ما بعد مماته حيث يربط عالم الغيب بعالم الشهادة، والغاية من التغيير تحقيق العمران ونيل رضا الرحمن.

٢ . التغيير سنة اجتماعية ثابتة مطردة نبه إليها القرآن الكريم، وعلى المسلمين إدراك أبعادها، وكيفية إعمالها في الأنفس والمجتمعات للوصول إلى التغيير المنشود.

٣ . مركزية الإنسان في مشروع الإمام ياسين، فهو محور عملية التغيير ووسيلته وغايته، ولن يتحقق التغيير إلا إذا سبقه تغيير الإنسان ما بنفسه من أفكار وعقائد ومشاعر وقيم لأن سلوكه يعكس ما يؤمن به حسب نوع التربية التي يتلقاها.

(٥٤) العدل والإسلاميون والحكم، ص (٢٠٣).
(٥٥) إمامة الأمة، ص (٩٠-٩١).
(٥٦) الإحسان، (٢/ ٣٦٧).
(٥٧) المنهاج النبوي، ص (٢٣٩).

العدوان الثلاثي على الوعي

د. عبد الجواد حردان
مدرس أصول الفقه في جامعة صوتجو إمام -كهرمان مرعش

من إنصافنا للوعي الجَمعيِّ والشخصيِّ كشفُ ماهيةِ العادِيَاتِ المُغيِّرَاتِ على بنْيَتِه وتشخيصُها وتعزيزُ ما في الوعي مِن مناعةٍ مقاومةٍ وأخرى طاردة لها، ولعلِّي لا أُبعِدُ في النُّجعة إنْ زعمتُ أن من تلك العادِيَات الغلوَّ أو الإيغالَ في الحكم على الأشياء والأحداث والمواقف والأشخاص والتاريخ، وكذا المبالغة في المآلات وفي سدِّ الذَّرائع وفتحها وفي تقديرِ المصالح وعواملِ جلبها وفي حدْسِ المفاسد ومعاولِ دفعها وقِلاع درْئِها؛ فهذا الغلوُّ عاملٌ مؤثِّرٌ في جملةِ عوامل كوَّنتِ المتتاليةَ التي شكلت أزمةَ التيهِ لدى الشباب، بل أزعم أنه أحدُ الحِراب المسمومة في العدوان الثلاثي على وعي هذا الجيل.

كم وكم في المبالغات الغالية وتصوُّراتها وأحكامها المرسَلة المطلقة من مخدِّراتٍ للهمَّة وخلودٍ للرَّاحة وخداعٍ لِلذَّات وركونٍ لِلَّذَّات، أو جلدٍ للنفس وجليدٍ للمروءة والنخوة! نعم إنَّ فيها مفجراتٍ للطاقة لكنَّها تصوِّر الأوهام حقائق، وتجترُّ أحداثَ التاريخ لتتخذ منها واقعيةً مفترضة ووقائع ماثلة تورد الشباب المهالك، وتكدِّس في ذاكرتهم ضغثًا من أحلامٍ لا يَزَعُها عقلٌ ولا ضمير، ولا تهتدي بشريعة ولا قانون، ولا تبلغُ كُنهَها ريشةُ أعرق الرسَّامين والفنَّانين لتصوير عقدةِ خَبَالِها وحدْس حبكةِ أساطيرها، وما تزال توغل في نقش هذه الأحلام على قلوب الناشئة حتى تمسخ عقولهم؛ فيغدو قلب الفتى قنبلةً موقَدة بعاطفة لا يسوسها عقل، فإذا ما انقشعت ظلمات الوهم ارتدَّ على عقبيه، فاستبدل بقلبه المفعم بالعاطفة المتقد بالحماس نفسًا تكاثُرُ أَنْفُسًا تتوهج رغباتها وتنفجر بأهوائها، وعقلًا ينكر الغيب ولا يؤمن إلا بالمادَّة وعطائها، ولما كان السبب كالفاعل فلا ريب أن شيئًا من هذه الردة يحمل وزرَها قتلةُ العقولِ أربابُ المبالغات الموقِدون لنار عواطف مؤصدة بأوهامٍ أخيلةٍ في عمدِ عِهْنٍ منفوشٍ ممدَّدةٍ، قاعدتُها فتحُ الشام وذروتُها فضاءاتٌ باقيةٌ وتتمدَّد حتى تحرر القدسَ والأندلسَ بأسياف خشبيةٍ وخطط خُلَّبيَّة، علمًا أني لا أشكُّ بأنَّ من أعدموا مشاعر الجيل وغيَّبوا أثر الإيمان والعاطفة في حياته بمحاكمات عقلية صِرْفةٍ ليسوا بأقل وزرًا ممن صرفوا أنظار أولئك الناشئة عن الواقع أو الحقيقة، فأعموا أبصارهم بمفاهيم خاطئة متولدة من نظريات زائفة قائمة على تزوير وأحابيل وأكاذيب مغْرِقة في التضليل كما الأساطير، وخرجوا عليهم في زينتهم الحضارية ببريقٍ يسحر الأعين ويذهب بالأبصار؛ كما أنهم ليسوا بأهون شرًّا ممن قتلوا العقول بنماذج متخمة بالمثالية المجافية للواقع أو بعواطف جياشة تؤجِّجها أخبار وملاحم وقصص ونوادر تفرَّقت أسبابُ ورودِها وتواريخُ حدوثها على مدى قرون، فحشدوها لهم في سياقٍ وموقفٍ واحد، إنَّ أقلَّ صنائع هؤلاء وأَدْنى مُخرجاتها تخريجُ أفرادٍ حقيق بكلٍّ منهم أن يكون دونكيشوت عصره.

المبحث الأول: العدوان الثلاثي مفهومُهُ وعلائقُهُ

للعدوانِ الثلاثيِّ ماصدقَاتٌ، ولـه جيناتٌ تنقل العدوى وتعزز عدوانيتها وتولِّد من الأمراض الحميدة أخرى خبيثة، وإنها لَتُمسي أشدَّ فتكًا إذا تلاقحت بأخرى تحمل عواملَ ضارية تزيدها عدوانيةً وافتراسًا، وإليك تحليلًا عضويًّا لهذا التفاعل:

المطلب الأول: ثلاثية العدوان

أمَّا ثلاثية العدوان فأعني بها:

أولًا: دعوَى الاستحالة في الممكنات، وتمكينها في نفوس النَّشءِ حتى لكأنها من المسلَّمات، وهدفها التيئيس واليأس أي التعجيز وإثبات العجز؛ ليتشرّبَ هذا الجيل نظرية المؤامرة، ويسلِّمَ بالهزيمة أمام النفس وشهواتها القسرية كما يُخيَّل إليه، ويوقن أنَّ ما كان وما زال ممكنًا لغيرِنا غدا مستحيلًا علينا، وهو عجزٌ متولد من قناعات أفرزَتْها عواملُ عدة، منها تصوير المبالغات للممكنات على أنها من المستحيلات عادةً وَأْدًا للهمَّةِ وللثِّقةِ بالنفس مِن قَبْل أن تستهلَّ صارخةً.

ثانيًا: دعوَى الإمكان في المستحيلات عادةً في ظرفٍ أو مكان أو زمان أو حالٍ ما، وتلغيم المستقبل بقنابل الوهم لإرغام الغَازِّين على مغامرات انتحارية ناجمة عن تضليل المبالغات وما تبثه من أوهامٍ، والمقصود بالتضليل تصوير المبالغات لجملةٍ من المستحيلات على أنها عادةً من الممكنات، كل ذلك من خلال تزييف الوعي واستثمار ترَّهات هذا الوعي الزائف سعيًا إلى تخدير الجيل بضربتين: الأولى خارجيةٌ تقذف في العقول الوهن بما فيها من تعظيمٍ غالٍ لأثرِ قُوَى الروح والمعنى والمعتقد والقيم والمبادئ، والأخرى جاهليةٌ تهوِّن من شأن قوة العلم التجريبي والإعداد والتكوين وكأنها تنكر أنَّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأنَّ الذي سلَّط الأعداءَ أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليس لهم إلى ذاكَ التهوين من سبيلٍ سوى التلبيس واغتيال الوعي زعمًا بأنَّ القوة هي الإيمان وحده، وكأني بهم يقاتلون عدوَّهم بصدور عارية وبالورود وأغصان الزيتون، ناهيك عن أنَّ دعواهم امتلاكهم لسلاح الإيمان وحدَهم هي نفسُها محلُّ نزاعٍ، لا سيما أنَّ تصورهم للإيمان في عزلةٍ عن مقتضياته وآثاره ومخرجاته والتكاليف الأخرى الدالة عليه ينقضُ عليهم دعواهم التسلُّحَ به، وأنَّ إيمان أهل الباطل بباطلهم له أثرٌ لا يُنكَر بل إنَّ منهم من يستمسك بعرى باطله أشد من استمساك أهل الحقِّ بحقِّهم، وليس وراء استواء كفتي الإيمان إلا استفراغ الوسع في الإعداد المادِّي والمعنوي، العلمي التجريبي وصنوِهِ النظريِّ بأجنحته الثلاثة: الإنسانية والاجتماعيّة والتنظيرية.

ثالثًا: صدارة نماذج مصطنعةٍ أَمْكَنَتِ المستحيلاتِ وهمًا وإيهامًا أو مكْرًا وخديعةً، وشيَّدت عالمًا من الأساطير عُمْدَتُه وَعَمَدُهُ فراخُ تلك الدِّيكةِ وقوائمُها الغضة وأجنحتُها المتكسِّرة؛ فأعملت عوالمُ الأوهامِ مبضعَها في بنية الوعي مسخًا وسلخًا واستنساخًا؛ المسخ لجوهره، والسلخ لإهابه، ثم الاستنساخُ لنماذج زائفةٍ خدَّاعة ستأتي على الجوهر والمظهر واليابس والأخضر، أو لنماذج تاريخيةٍ حقيقيةٍ جذَّابةٍ لكن كانت لها -من البذور والجذور إلى أن آتت أكلها- بيئةٌ وزمانٌ وقِوامٌ ومُدخلات وعمليَّات وتفاعلات لن يتحقق منها شيءٌ اليومَ إلا إن دار زمن القرن الحادي والعشرين دوْرَات؛ ليجدِّف بكواكبه وجنِّه وإنسه وأرضه وسمائه رأسًا على عقب وهو يرجع القهقرى نحو ذلك الماضي التليد العريق، فمَن تكلَّف إسقاط نصوصٍ دينية أو نماذج تاريخية على شخصيات عصريَّة أو على وقائع تحدث اليوم دونَما تخريجٍ لمناطها وتنقيح وتحقيقٍ، وبلا شواهد ولا سياق ولا طِباق، فقد أطبق على آخر رمق في وعي هذا الجيل بجهلِه المُطبقِ في فقه النص والواقع، وليس عنه ببعيد ذاك الذي ينتزع نصوصًا أو مشاهد من سياقها وبيئتها وزمانها ليطابق بينها وبين نوازل ومستجدات يتعطش العامة لفهم أسبابها وعواملها ونتائجها، فهذا ضرب مستحدث من الوضع يذكِّر بالقصاصين الوضَّاعين وبغاياتهم الوضيعة، وهو في تزييفه للوعي ليس ببعيد عن نمطِ الوضعِ الشائعِ بين العامَّة في وسائل التواصل الاجتماعي اليوم، وإن أرهبَك وضَّاعو الوثَّابِ مثلًا بأنَّك إن لم تشاركهم جريرتهم فستلقى حتفك أو يهلك مالك وولدك أو يحل بك ما لا يعلمه إلا دجَّالو عصر تقنيات القرن الحادي والعشرين، فقد يُرغمك أولئك على الركوب معهم زاعمين أنك إن لم تركب غرِقْت وحملت وزرَ غرق سفينة الإسلام إن كانت الكرَّة عليهم في ذاك السِّجال.

المطلب الثاني: بين الغلو والعدوان الثلاثيّ

إليك شيئًا من البيان لتفسيرِ علاقة الغلو في المبالغات وإطلاق الأحكام بالعدوان الثلاثي:

أ_ انفردت المبالغاتُ الغالية بصناعةِ أوسطِ الأعمدة في خيمة الوعي، لقد صنعَتْها مِنْ أحلام الفروسية الدونكيشوتية وأوهامها، مستغلَّةً جيلًا آذانُه متخمةٌ بأخبار الفروسية وعيونُه جائعةٌ ما رأت فارسًا قطُّ.

ب_ وزعمتْ تلك المبالغات أيضًا أن بعض المستحيلات عادةً غدتْ من الممكنات، فأوردت الشعوب في هذا العقدِ مهالكَ ليالٍ مظلمةٍ وغاباتِ تيهٍ مهلكة على غِرار معركة دون كيشوت وطواحين الهواء وغبار المواشي، وطارت بالعامَّة والمستضعفين بأجنحة الحماس، وغفلت أو أغفلت التاريخَ وطبائعَ الاستبداد والسُّننَ الاجتماعية وشروطَ سنة التغيير ودراسةَ الجدوَى وتغوَّلَ العالَمَ المادي اليوم وتأهبَه للانقضاض على أية صحوةٍ قد تهدِّد أو تمسُّ كيانه أو لا تسير في رِكابه.

ج_ وعَكَسَت مغالاةُ المبالغات وإطلاقُ الأحكام الأمرَ، فبثت سموم اليأس لما صورت الممكناتِ مستحيلاتٍ. وستبقى كذلك ما دامت عقبات الأوهام التي أرسَتْها تلك المبالغاتُ حجابًا يحول دون رؤيةِ الأذهان لأي أمرٍ على حقيقته، ثم ولَّدَ اليأسُ لدى الشباب كلَّ ما ترى من عجائب الدهر وكبائر العصر في القرن الحادي والعشرين.

وأمَّا ثنائية العدوان على حصون شبابنا من داخلها فتلك ثنائية لها بحثٌ آخر مغايرٌ لموضوع البحث، لكن تجب الإشارة إليها لئلا يوهم السكوت عنها خلاف المراد من هذا البحث، وتلك الثنائية هي:

١_ سذاجة فريق من الشباب الغارِّين أو جهالتهم أو جاهليتهم أو غيبوبتهم أو انخداعهم.

٢_ وجمود فئةٍ من قادتهم أو خداعهم لهم أو حماقتهم أو قصورهم أو قصر نظرهم، أو تجهيلهم للناشئة أو تعطيلهم لعقولهم بإدمان اللهو والعبث والترف وتغييب الهدف، أو قتلهم لمواهبهم وطاقاتهم بحرمانهم من أدنى مقومات الحياة ومن تلبية الغرائز الجبلية ليشغلوهم بما رخُصَ وهان عما يكون أو قد كان.

المبحث الثاني: العدوانُ الثلاثيّ على الوعي الفرديِّ والجَمْعيِّ

سيقتصر هذا المبحث على دراسة غلو المبالغات وإيغال أحكامها وتصوُّراتها للوقوف على مدى تأثير هذا الغلوِّ على وعي الفرد والمجتمع بصفتِهِ غائلةً وسهمًا مسمومًا من سهام العدوان الثلاثي وغوائله.

المطلب الأول: العدوان الثقافي على الوعي الجمعي

جليٌّ أنَّ هذه المشكلة ليستْ حديثةً في بابها، وإنما الجديد هو قياسُ مدى تأثيرِها في الوعي الفرديِّ والجمعيِّ وفقًا لنتائج الدراسة الميدانية؛ فالمغالاة في المبالغةِ وإطلاق الأحكام قديمةٌ قِدَمَ اللغات وما فيها من مجاز وألقاب وصفات، كثيرةٌ أنواعُها وأمثلتُها في حياة الأمم عبرَ تاريخها كثرةَ الصفاتِ وأضدادها والأرقام وجموعِها، وهي متجذِّرةٌ في خلايا الناس مُغرقةٌ في ثقافتهم إغراقَ النفس الإنسانية في ميولِها وجنوحها ورغباتِها وطموحاتها وظنونِها ساذجها أو خبيثها، وفي دعاويها العريضة وغرامها بأساطير الحبِّ وملاحم الكره أو بطقوسِ التقديس والولاء والانتماء أو بحروبِ الكراهية والتمرد والعصيان، إنها لظاهرةٌ غنيةٌ عن الرصدِ والإحصاء، ما زال الأجدادُ يورِّثونها للأحفاد، تسودها ثقافة التهويلِ والهوسِ بالتعميمِ والغلوِّ في نُطُقٍ عدَّة ضُربت عليها سبعُ عقدٍ لك أن تطلق عليها «سُباعيَّة عِلَلِ الثقافة العامَّة»:

١_ الإفراط، ومنه القدحُ والمدح، والهدمُ والنقضُ والطعن، ومنابرُ الإعلام والفكر والنقد، وتأويلُ النصوص ومدلول الكلام، وتكبيرُ الصغائر وتصغيرُ الكبائر وإطلاقُ الأحكام حتى أودت المعارضة والولاءُ لأمرٍ ما إلى خصومةٍ وبغضاء جعلت المسلمَ أشدَّ عداوةً لأخيه من عداوته لعبَدَةِ النارِ والصليبِ واللات.

٢_ تَبَعيَّة سانشو، ومنها ساديَّةُ السادات ونرجسيةُ الذَّات ومازوخيتُها، وتيْهُ النَّفْعِيين والرَّعاع الهمَج أَتبَاعِ كلِّ ناعق في عبوديَّتهم للمستبدِّين والفراعنة والمُثَالِيين، وتقديس العادات والأهواء والنَّزَواتِ في لَبوسٍ من الثقافاتِ والحضاراتِ والمذاهبِ والأفكارِ والمشاربِ والمشاعرِ.

٣_ اختلالُ الموازين، ومنه تقديرُ الأمورِ والمصالحِ والمفاسدِ والحقوقِ والمظالمِ، وحَدْسُ الأزمنةِ والأوقاتِ، وتجاهلُ الواجباتِ والأولويات، وتضليل الجيل في تأخير ما حقه التقديم وتقديم ما حقه التأخير للتنصل من المسؤوليات، وفرضُ المثاليات في تجاهلٍ مُذهِلٍ للممكناتِ والمستحيلاتِ والطاقاتِ والقابلياتِ والثوابتِ والمتغيراتِ.

٤_ الدونكيشوتية، ومنها تخمينُ حجمِ المشكلات والقدرات والطاقات والمشاق والعقبات والحلول والقطع بما سيكون في إصرارٍ على النهجِ ذاته وإلحافٍ في السير عليه دون اعتبار بما قد كان، وكذلك إحلالُ اليقين محل الظنون في مكابرةٍ ومعاندةٍ لما تراه كل العيون من أشباهٍ ونظائر تكررت وأسبابٍ وعوامل تحققت، وكل منها يقطع بخلاف ما يؤملون ويقطعون.

٥_ الاندفاعية والمظلوميَّة، ومنها أبعادُ القدرةِ على التغيير وآمادها ومَدَدُها ومِدادها، والمواقفُ أو المشاعرُ الإيجابية والسلبية، وردودُ الأفعال الفردية والجماعية وانعكاساتُها في كل حالٍ تُستثار فيه نوازع النفس البشرية لا سيما وقتَ الفرحِ والغضبِ والنزاعِ وتحولاتِ الأفراد الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعيَّة والانتمائية.

٧_ غُلَوَاءُ الوَلاء والبراء، ومنها الإطراء والتعظيمُ والتقديس والتحقير، ومقاماتُ الوداد وميادينُ العداء، والإطلاقُ والتعميم المغرق في الحكم على الأعداء، وهكذا بل أشدُّ مِن هذا أحكامُ أطرافِ المنافسة أو النزاع الفكري أو المذهبي أو العَقدي أو السياسي أو الاجتماعي أو المهني أو التخصصي أو غيرها من المجالات.

إنَّ مردَّ الخشية من إجهاز سُباعية العلل الثقافية على الوعي يكمن في قوة التأثيرِ وسرعة التأثُّرِ، وهذا عادةً يقتضي قيام علاقة بين طرفين أحدُهما فاعلٌ مرسِل والآخر منفعل مستقبِل، ولا تتخلف هذه الفرضية إلا في عدوَى الجماهير عندما ينماث الفردُ في الجماعة كما في المظاهرات الشعبية، فيغدو فاعلًا منفعلًا مرسلًا مستقبلًا معًا.

هذا ولعل منابرَ العلم والإعلام أشدُّ تأثيرًا في بنية الوعي وأقوى أثرًا وأبقى، وجلُّها -إن لم نقل كلها- بيد الغزاةِ وعمَّالِهم الطُّغاةِ المستبدين؛ فكم وكم من أُمَّةٍ قد احتُلَّتِ ثُمَّ تحرَّرت ونهضت لكن حالَ أمَّتِنا يشهدُ أنَّ غزو الوعي والفكر واللغة أبلغُ وأنكَى، فهيهات هيهات أن نتحرر ما دامت عقول أبنائنا ترزح في أغلال أولئك الغزاة والطُّغاة!

المطلب الثاني: الوعي مِن منابرِ التعليم إلى الناشئين

إنَّ الانحراف في ريشة الكاتب وكلمة المثقف المشهور ليطير بمبالغاته عبر الأثير والشبكة، فلا تدع كلماته قلبًا أو أذنًا أو عقلًا غُفْلًا إلا غزته، ومن يدري ما يفعل توالي أمثال تلك المبالغات في وعي أناس غارِّين أو غُرٍّ أو مغرورين منخدعين أو آخرين مثقفين لكنهم غير مختصين ولا يملكون ما يكشفون به زيف الكَلِمِ من جواهره؟!

هذا وكلّما طرحت قضية تخلف أمتنا عن ركب الحضارة في مؤتمرٍ تخصصي أو محفل علمي أو مناقشة رسالةٍ جامعيةٍ تجد الأساتذة المناقشين لا يكادون يعثرون في اللغات على ما يصف قتامة ما نحن فيه وسوداويته، ولكنهم يغفلون عما تفعله مبالغاتهم في تقييم الأبحاث والرسائل وتقويمهم لها، ويتجاهلون أثر هذه المبالغات والحماس والحفلات الوهمية أثناء المناقشة على تخلفنا الحضاريِّ وعلى وعيِ ناشئةٍ لا همَّ لهم إلا استحصال الألقاب الفارهة بالدعاوى الفارغة كما يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

وللكشف عن جوهر مشكلة المنابر العلمية ومدى إضرارها بالوعي إليك واقعةً كنت عليها من الشاهدين:

في مؤتمر عن تطوير مناهج تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ٢٠١٨م رأيت أستاذًا جامعيًّا عربيًّا متخصصًا في المناهج يجود بالثناء على أبحاث في المؤتمر، لقد كان كالبحر يكيل المديح بلا عدٍّ ولا حساب، بل طابت له المبالغة لِما رأى من الحفاوة، فمضَى في فيوضاتِ مديحه على مواقع التواصل الاجتماعي مدَّعيًا أن الأبحاث المقدَّمة في المؤتمر «ينبغي أن تكون دستورًا لدى تأليف أي سلسلة تعليمية جديدة؛ وذلك لجودتها وعمق تحليلها، وحضور الجديد فيها». علمًا أنها كانت وصفية لا تحليلَ فيها ولا جودةَ أيضًا وفقًا لمعايير جودة أبحاث تحليل المناهج وتطويرها، لكنها المبالغات في إطلاق الأحكام كما ترى، وقال: «أبارك النجاح الباهر الذي حققه

المؤتمر الدولي الثالث على أكثر من صعيد، أهمها وأبرزها جودة الأوراق العلمية المقدمة وقيمتها العلمية وعمليتها» وبلغ به غلو المبالغة أنْ عَدَا على منهجية البحث العلمي، فنسفها واجتثها من الجذور مخاطبًا طالباته المشاركات: «وهذه دعوة للشباب لخوض تجربة التعليم والبحث في آنٍ؛ حيث ثبت بالبرهان الساطع أنكنَّ أقدر على إيصال الرسالة ممن يحملون الدرجات العلمية ويُنظِّرون من أبراجهم العاجية».

ولا إخالك قد نسيت أن مغالاتِه هذه ترسِّخ لدى المشاركين من شباب وشوابّ صوابَ المنهج الأبتر الذي بنوا عليه أبحاثهم وخطأَ المنهج العلمي شبه التجريبيّ الذي بُنيت عليه السلاسلُ الأجنبيةُ المتطوِّرة موضوعُ المؤتمرِ، وما نُظِّم المؤتمر إلا لتحليلها والإفادة منها! وحسبنا غلوه في مبالغاته هذه لرصدِ أحد عوامل تخلفنا عن ركب الحضارة والعدوانِ على الوعي الجمعيِّ، بل إنَّ غُلَواءَ هذا الأستاذ صدٌّ عن سبيلِ الحضارةِ وكفرٌ بالعلمِ التجريبيِّ وتحذيرٌ لوعي الناشئين من طلبة العلم بما منحهم من ألقابٍ تستخفُّ بالعلم التجريبي وسدَنته: (بِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ --- أَسَماءُ مُعْتَمِدٍ فيها وَمُعْتَضِدِ) (أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها --- كالهِرِ يَحْكي انْتِفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ)

ورأيتُ في المؤتمرِ ذاتِه أستاذًا جامعيًّا أعجميًّا متخصصًا في المناهج أيضًا حضر ليرأس جَلسةً، كان ساخطًا على الأبحاث المقدَّمة، فصال وجال وأرعد وأزبد وحمل حملة ضارية على الأساتذة المشرفين على هؤلاء الشوابِّ والشباب المشاركين في هذا المؤتمر: «لِمَ لَمْ يعلموكم أصول البحث العلمي في البحوث التربوية والنفسية وشبه التجريبية منها خاصَّةً؟» فالأبحاث المقدمة في جلسات المؤتمر التي حضرها هذا الأستاذ -ومنها بحث الشابة الذي حاز على شهادة أفضل بحث بتصويت المشاركين والحاضرين، وجلُّهم من المؤسسة الراعية للمؤتمر- هذه الأبحاث كما قال: «شأنها شأن كل ما تخزِّنه عقولنا من معلومات نظرية سردية في ميدانٍ كلُّ علومِه تجريبيةٌ أو شبه تجريبية، فكلُّ ذلك ليس سوى كومة زبالة تُزاحِم ما تراكمَ في عقولنا من زبالة المعرفة» على حدِّ تعبيره هو! وتاهَ المشاركون ومنهم الأستاذ المغالي المذكور أوَّلًا والحاضرون جميعًا في صخب التصفيقِ لكلماته، فما علمت وما زلت لا أعلم: أكان تصفيقهم تأييدًا، أم ضربًا من الصخب الكوميدي، أم استحسانًا منهم لبلاغة تصويره للمعارف النظرية التي لا تطبيق فيها ولا تجريب؟ وأيًّا كانت العلة فالتصفيق للمبالغة والغلو غلوٌّ أيضًا لا سيما من ذاك الذي غالى في مبالغته غلوًّا يضادُّ ما يصفق هو له.

> " التوسع في تفخيم الألقاب وتضخيمها ليس من سيرة السلف المشهود لهم بالخيرية "

ومضى الأستاذ الساخط على أبحاث المؤتمر يبرهن على وجهة نظره بأنَّ أبحاث المؤتمر التي حضرها هو في اليوم الثاني كانت وصفيَّة بينما كانت طبيعة قضية المؤتمر التحليل والتطوير «تحليل سلاسل تعليم اللغات الأجنبية لتوظيفها في تطوير سلاسل تعليم العربية»، فهو شبه تجريبيّ، وجلُّ المشاركين من مدرِّسي اللغة العربية للناطقين بغيرها؛ لذا كان «ينبغي على أساتذتهم أن يدربوهم على البحث لتكون أبحاثهم شبه تجريبية، يستند التحليل فيها إلى أداة بحثية يصممها الباحث ويعرضها على المحكّمين، ثم يقوم باحث آخر بتحليل السلسلة ذاتها، ويقارن الباحث بين نتائج تحليله وتحليل زميله ليتأكد من صدق النتيجة...».

هذه خلاصة حربه الضروس على أعمال الشوابّ والشباب المشاركين في المؤتمر وعدوانه على انبعاثةِ وعيهم بأهمية البحث وعلى محاولاتهم المبتدئة، فأنت ترى ما في النظرتين من تباينٍ ومبالغةٍ فيها من الإفراط والتفريط والعدوان على بنية الوعيِ ما لا تخطئه عين.

المطلب الثالث: الوعيُ بين منابرِ الوعظِ والعامَّة

فيما مضى كان يُلتمس العذر للمتشددين أو المتساهلين في الجرح والتعديل بأن الأولين كانوا في حرج من أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله، وبأنَّ لدى الآخرين خشيةً ووجلًا من ردِّ كلامٍ يحتمل أنه من كلام الرسول احتمالًا ليس

بـواءٍ ولا ينـدرج في بـاب الكـذب، فهـذا الاحتيـاط هـو مسـوغ مبالغـات كلا الفريقـين في جـرحِ راوٍ أو تعديلـه، وهـي مبالغـات متناقضـة لا ينتهـي عجـب الناظريـن فيهـا مـن غـير المختصـين، ولم يُسـلِّم بغلوِّهـا النقـاد والباحثـون في سِـير الرجـال؛ فقـد تقـرَّر أنَّ «التوسـع في تفخيـم الألقـاب وتضخيمهـا ليـس مـن سـيرة السـلف المشـهود لهـم بالخيريـة»[1]، وهـذا مـا حملهـم عـلى تقسـيم علـماء الجـرح والتعديـل إلى متسـاهلين ومتشـددين ومعتدلـين.

إننـا وإن كنـا نعـذر فـوارس هـذا السَّـاح بيـد أنَّ هـذا الاعتـذار لم يكـن ليحملنـا عـلى أن نغـضَّ الطـرف أو نغـضي عـن غلـوٍّ مبالـغ فيـه عـلى نحـوٍ لا تستسـيغه العقـول أحيانًـا، فهـذا صـوفيّ سـمعته في مجلسٍ يقـول: إنَّ ابـن تيميـة مـن المفسـدين في الأرض، وذا سـلفي زرتـه مسـتنصرًا للثـورة السـورية المباركـة، فوجدتُـه في مجلـس علـمٍ، وسرعـان مـا صكَّـت كلماتُـه أذني وهـو يقـول: الأشـاعرة أكفـر مـن اليهـود والنصـارى بـل أكفـر مـن البوذيـة بـل أكفـر المجـوس، و(بعدمـا تكلـم الشـيخ تـاج الديـن السـبكي بشـيخه الإمـام الذهبـي ختـم كلامـه بقولـه: «فهـو مطبـوع عـلى قلبـه»، فاسـتدرك الشـيخ عبـد الفتـاح أبـو غـدة قائـلًا: لقـد أسرف الشـيخ تـاج الديـن في حـق شـيخه الإمـام شـمس الديـن الذهبـي لقبـاً ومعنـىً، وبالـغ حتـى أفـرط، ومـال حتـى قَسَـط، ووقـع في الشـطط والغلـط، وكيـف سـاغ لـه التعبـير بهـذه الكلمـة الكبـيرة، وإنهـا لكبـيرة؟! وإذا كان الإمـام شـمس الديـن الذهبـي مطبوعًـا عـلى قلبـه -وحاشـاه مـن ذلـك- فمـن الـذي أعـاذه الله مـن الطبـع عـلى قلبـه! نسـأل الله العـدل في الرضـا والغضـب، والعافيـة مـن الإفـراط والتفريـط)[2].

وليـس عـن هـذا ببعيـد أنـك تـرى قومًـا حملهـم هـوى المذهـب والمـشرب والطريقـة عـلى إغـراق وعـي العامـة بفتـاوى ضـلَّ بهـا القـومُ في غياهـب التيـه، فغـالٍ يجعجـع: كشـف المـرأة وجهَهـا مثـل كشـفها لفرجهـا، وزوج السـافرة عـن وجههـا ديُّـوث يـرى القبيـح عـلى أهلـه ويسـكت، ولاهـثٌ يسـخر ناعقًـا: سـتر المـرأة وجههـا عـادةٌ جاهليـةٌ والإسـلامُ منهـا بـريء!

واليـوم كان يُتوقـع لـدى تقييـم أيّ أمـر وتقويمـه أن يسـتبدل الباحثـون والمثقفـون والدعـاة عدالـةَ النقـد والتقييـم والتقويـم بأوهـامِ المبالغـات وإيغالِهـا وغلوِّهـا وإفراطِهـا وتفريطهـا، وكان الظـنُّ الحسـن بهـم يـشي بأنَّهـم أمنـاءُ عـلى الوعـي؛ فالكلمـة أمانـة، بـل إن كلا مـن صناعـة الوعـي وتقويمـه أو تزييفـه ومسـخه منـوط بالكلمـة والقلـم، لكـن الواقـع المشـهود يبرهـن عـلى أنَّ وطـأة الجينـات المجتمعيـة الوراثيـة للمبالغـات المتولـدة مـن البيئـة والمجتمـع والعـادات كانـت أقـوى مـن أن ينعتـق غـير قليـلٍ منهـم مـن ربقتهـا ويتحـرر مـن أسرهـا، ناهيـك عـن أن يسـعى العبيـد في عتـق أرقـاء يرسـفون في مثـل أغلالهـم، وزاد في طنبـور العويـل نغمـةً تمويـهٌ أو سـطوٌ ومسـخٌ للمصطلحـات، فألبسَـت فئـةٌ مـن المتحدِّثـين المشـهورين كلًّا مـن الغلـو والمغـالاة والإيغـال في المداهنـة والمجاملـة والاسـتجداء والتزلُّـف والخنـوع والتصنُّـع والكـذب المقنَّـع لبـاسَ المبالغـة المحمـودة والكياسـة واللطافـة والدماثـة واللـين المحبـوب، بـل إنَّ ضروبَ النقـدِ البنَّـاء والنصـحِ ولـو في الخفاء وأعلى الأسـاليب المثاليـة في الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر بشروطهـا والدعـوةِ إلى الفضائـل بالحكمـة والموعظـة الحسـنة لا تـكاد تخـرج في تصنيـف تلـك الفئـة عـن واحـدةٍ مـن ثـلاثِ شُـعَب، فهـي عندهـا إمَّـا:

أ_ فظاظة وغلظة وجفاء إنْ كانت موجَّهة إلى العامة.

ب_ وإمَّـا سـماتٌ خَوَارِجيَّـةٌ تجعـل الآمـرَ الناهـيَ خارجيًّـا وكلمـةَ الحـقِّ خروجًـا مسـلَّحًا عـلى الحاكـم إن كان المخاطَـب بـذاك النصـح أو النَّقـدِ ملِـكا أو مسـؤولًا.

ج_ وإمَّـا تخلُّـف وإخـلال باللياقـة واللباقـة أو شيءٌ مـن هـذا القبيـل إنْ كان المخاطَـب ثريًّـا أو وجيهًـا.

هـذا وعمـدت فئاتٌ أخـرى من المدرجـين في قوائـم المثقفـين والدعاة إلى تقمـص شـدة الأعـراب وغـلاظ الأكبـاد، فأغرقـت مصطلـح الأنفـة والعـزة والاسـتغناء وبـذل النصـح والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر بمياه آسـنة مـن الجهالـة العمياء المركبـةِ مـن خليـطِ مصطلحـاتٍ متنافـرة ليـس لهـا جامـع، أهمهـا البـراء والجفـاء والصراحـة والمواجهـة والصَّـدْعُ بالحـق وكشـف الحقيقـة والتكبـر عـلى المتكبريـن وإعـزاز الحـقِّ والدِّيـن، وكفـى بهـذا عدوانًـا يقترفـه يَـراعُ أربـابِ الفكـرِ ولسـان المنـبر والتعليـم والإعـلام يسـومون بـه وعـيَ جيـلِ هـذا القـرنِ قـرنِ الخلايـا الصابئـةِ الصـادَّةِ عـن سـبيل الله والعقـل والعلـم.

(١) الرفع والتكميل، اللكنوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ص٣٧٤.
(٢) أربع رسائل في علوم الحديث، السبكي والسخاوي والذهبي، جمع وتحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ص٤٦.

ومن تشويه المبالغات للوعي ما صوَّره أولئك الغلاة حقًّا وحقيقة مقدَّسة، حملَتْهم على أن يستبدلوا بالمبالغة في حديثٍ له سياقٌ خاصّ وفي سنده خلاف غلوًا لا يصح في الأذهان شيء إن صح أنَّ الرسل أتت به، فالمبالغة الهادفة في حديثِ حاكم الضرورة لئلا تخلو الأرض من خليفة: ((ثم ينشأ دعاة الضلال، فإن كان لله في الأرض خليفة جلد ظهرك وأخذ مالك؛ فأطعه، وإلا فمت وأنت عاض على جِذل شجرة))[٣] استبدلوا بها فتاوى لغلاة الخنوع تقول: فإن كان للإلحاد في الأرض رئيسٌ سفكَ دمَك، واغتصبَ عرضك، وغصبَ مالك، وفعل بالملايينِ مثلِك أكثر من ذلك، فاسمع وأطع، ولا ينبسنَّ فمك ببنت شفة.

إنه كما ترى غلوٌّ فعل فعلته في الوعي، فسمَّى الكلمة طلقة، والخطبة قنبلةً، وجماهير الهُتاف جيشًا إرهابيًّا، وأغصان الزيتون أسلحة كيماوية، فهذا كله عند غلاة التأويل أنصار المستبدين السفاحين خروجٌ مسلَّحٌ على حاكمٍ حقّ بغير حقٍّ.

إن الحاكم المسلم العادل خليفة لله في أرضه، لكنه قد يُخطِئ فيظلمك بجلد ظهر أو أخذ مالك، فاسمع وأطع، فذاك خيرٌ من خلو الأرض من خليفة قائمٍ لله في خلقه بحكمه ومقصده من خلق الخلق؛ ولكن الغلوَّ في تكييف النوازل وتنزيل النصوص عليها قد أوقع على مدى عقودٍ مضتْ جيلًا برُمَّته في براثنِ ردِّ الفعل اليومَ، فمن غلوٍ إلى غلوٍ وهكذا دواليك، ومنشأُ ذلك الغلو كلِّه إحلال تأويل النص محلَّ النص رغم أنَّه تأويلٌ لا يحتمله اللسان ولا ينهض به البيان، ولا تصححه مناسبة النص ومقاصده ولا سياقه وسباقه، وتردُّه بداهة العقول وترفضه الجبلَّةُ والفطرة، وحسبك أن تتأمل كيف صوَّر هؤلاء الغلاة الشهيدَ -نصير المظلومين، الآمر للسلطان الظالم، الناهي عن ظلمه بالكلمة- منتحرًا! بل الأدهى الأمرّ قطْعُ قطيعٍ من أنصار هذا المؤول الغالي بأن ذلك التأويل الغالي الرخيص هو وحدَه المعنى المقصود بالنص، وإضفاؤهم عليه قداسةَ النصِّ وزيادة، ثم عدُّهم من أنكره منكرًا للنص، ويمضون في غلو تلك المبالغات ليجعلوا من المؤول رمزًا مقدَّسًا لا يحتمل كلامه أو تفسيره نقدًا، بينما تجد غلاة التأويل على الحافَّةِ الأخرى يوجبون مع نقض التأويل ونقده الإجهاز على ذاك المؤوِّل لا إجهاض فكره وفضح عوار تدليسه وغلوه في التأويل وكفى، فماذا أبقت حروب الغلاة هذه من وعي هذا الجيل!

وهذا الغلو فيه ما فيه من المصادرة على أي مطلوب يريده الرمز المقدَّس ناهيك عن سدِّه لبابِ الاجتهاد والتفكير وطلب الدليل، وثالثة الأثافي أن تتكشف دواهي الحوادث وحالك النوازل عن جوهر هذا الرمز المقدَّس في عين العامَّة فإذا به غَويٌّ مُبين وداعيةٌ على أبواب جهنم، وإذا هو خنجرٌ مسموم يَجَأُ عقول العامة، ويقتلهم حسرةً وجزعًا على ما ضاع من عقولهم وما فات من أعمارهم وأموالهم في مجالسه وخدمة مشاريعه ليستيقنوا أنَّ من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل، فكيف بمن حسبهم الناس كذلك والأمر على خلاف ذلك!

ومن تشويه وعي العامَّة أن جماعات غلو المبالغات والمغالاة في الأشخاص والأعلام والرموز إطراءً أو طعنًا يسومون الوعي خسفًا ومسخًا يبلغ بهم أن يعدُّوا إغراق فردٍ في الغلو والمغالاة -ولو كان جاهلا أو مجهولًا- عربونَ محبتِه وولائِه وصدقِ اتباعه لرمزهم المقدَّس المعصوم شخصًا كان أم حركةً أم فكرةً، أما مغالاة ذاك الفرد في الطعن بالمخالف للرمزِ المقدَّس تشنيعًا وتبديعًا وتضليلًا وتسفيهًا وتكفيرًا فيجعلونه عنوانَ جحدٍ وَخَلْعٍ وبراء، وبرهانَ زيادة إخلاص وإيمانٍ ويقينٍ يعلو بها ذاك المغالي على رتبة أعلى الأمة من غير المتسبين لهذا الرمز ولو كان أفسق الأمة وأجهلها، ومن مخرجات هذا التشويه أنَّ الغلوَّ والمغالاة على هذا النحو يغدوان من أسهل المسارب والسراديب والمخاتل التي يَخْتِلُ بها المنافقون والمرجفون والمخابرات، ويُدلِجون منها إلى تلك الجماعات والحركات والثورات؛ ليوقعوا بين أفرادها ويتحكموا فيها ويعتلوا قمة هرمها، ثم ينقضوا عليها فإذا هي كأمس الدابر، ويأتوا على بنيان وعيها الجمعيِّ المشوَّه مسخًا وسلخًا، ويستنسخوا صورًا صهيونيةً ماكرة يطبعون بها وعي تلك الجماعات المشوَّه، فإذا بتلك الجماعات جملةً وتفصيلا قد غدت أدواتٍ للمخابرات والغزاة والصهاينة من حيث لا تدري، ومنه نُدرِك كيف انحرف فريقُ التنسيق الأمنيّ مع المحتل الصهيوني عن هدفه -وهو التعاون الأمني لإقامة دولة فلسطين المستقلة في إطار حل الدَّولتين- حتى قضى على حلم الدولة عندما تحول إلى

(٣) مشكاة المصابيح: التبريزي، رقم (٥٣٩٦)، (٣/ ١٤٨٤).

تنسيق جاسوسي يقتل المقاومة ويخدم المحتل الصهيوني وحدَه بأجرٍ سياسي ومادِّي معلوم، وهو ما مُنيتْ به بعض فصائل المصالحة في الثورة السورية.

وليس ببعيدٍ عن ضلالات تضليل الوعي أن ينبعث قومٌ من كهوفهم ليرسخوا في أذهان البُلهِ أن الشريعة ليست سوى بضعة حدود لا يقوم الإسلام إلا بها، فإذا بالوسائل والفروع والظنيَّات مقاصد وأصول وقطعيَّات، نعم «هذا الجانب جزء من الإسلام ولا ريب، لا يجوز إغفاله أو الإعراض عنه، لكن المبالغة في المطالبة به والحديث عنه واعتباره رأس الأمر وعموده وذروة سنامه كان لها آثار سيئة على التفكير الإسلامي والعمل الإسلامي، وآثار أخرى على أفكار الناس العاديين، فالقوانين وحدها لا تصنع المجتمعات ولا تبني الأمم، إنما تصنع المجتمعات والأمم التربية والثقافة، ثم تأتي القوانين سياجا وحماية»[٤].

إن أمثلة تضليل وعي العامَّة كثيرة يعسر حصرها، فأنت في غنى عن ذِكرها، وليس يخفى منها أمرُ فريق من العامَّة المتصدِّرين وقادتهم الجهلة الغلاة الذين ضيَّعوا المستضعفين وذراريهم بمغالطات أشبعوها مبالغةً وغلوًا ووهمًا؛ ليقنعوهم أنّ طيور أولئك المستضعفين مجتمعةً ستهزمُ أسراب الطائرات والدُّولَ العظمى التي تقاتلهم بوغدها السفَّاح وعيونه التي تحصي أنفاسهم، وأن حجارتها ستجعل من المغيراتِ عصفًا مأكولًا بلا صولات ولا جولات، وحسبهم السجِّيل والطير الأبابيل دليلًا على ما يؤملون أو يحلمون، فما إن يطلقوا أول رصاصة حتى يبدأ إعلامهم بتضليل وعي العامة بحديثه عن انتصارات وهمية يعقبها خراب البصرة، وكأن آيات الأمر بالإعداد والحذَر وشرط النصر بالنصر منسوخة! فكان ما كان وما أغنتْ عن المستضعفين تلك الدعاوى أو الأكاذيب ولا الألقاب العريضةُ من شيءٍ، وباتوا يرزحون في أغلالهم مكبَّلين في سجنِ وطنٍ كبيرٍ كأنَّ عليه أبابيلَ من الطير تَنْعَبُ، كما قال الأعشى الأعمى الذي لم يخطئه ذاك المشهد كما ترى، فقد ألقى السمع فإذا به شهيد على مآلاته، فترنم متحسِّرًا يحدوه الألم وحسرة الخسران والأماني.

نعم لقد ضرب الوعاظ والقصاص والشعراء والأدباء من الغلو في المبالغة وتضليل الوعي بسهم حتى قيل: أعذب الشعر أكذبه أي أشده مبالغة، وحسبك الكناية عن أبلغ الشعر بالأكذب دلالةً على أن في المبالغة الغاليةِ ما فيها، وأسوأ ما فيها أنها قد تنسب إلى العبد صفة الألوهية، فمن نسب إلى فردٍ ما لا طاقة به للمئات أو الآلاف من البشر فقد نسب إلى مخلوق عاجز ما لا يقوم به إلا الخالق سبحانه كما يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورسيّ رحمه الله تعالى، وأمثلة ذلك ليست سرًّا لدى الشيعة وبعض مشايخ الطرق والهَتَّافين باسم الحكام المستبدين، ولعلَّ هذا الغلو هو سرُّ الهلاك الأخروي والعقليّ المشهود في رعاع القوم حتى اليوم: «يَهلك فيَّ رجلان: مفرطٌ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ»[٥]، وكأنَّه هو لغزُ خذلان الله لعامَّتهم ولعلمائهم الذين يعرفون الحق أكثر مما يعرفون أبناءَهم لكن الفريقين أبوا إلا صراط المغضوب عليهم والضالِّين: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»[٦]، فهذا رسول الله ينهى عن سلوك النصارى في شخصه فما الظنُّ بسيدنا علي وبالأولياء والمشايخ والمرجعيات الدينية؟! ولعله هو أيضًا تفسيرُ طرد الله للغلاة من أبواب التوفيق العقلي والهداية القلبية، وكأن هذا الطردَ استجابةٌ لازمة لطبيعة تجاهل الحقّ وإجابةٌ لدعاء العارف بحقيقة الغلو ومآلاته إذ دعا رضي الله عنه: «اللهم العن كل مبغض لنا، وكل محب لنا غال»[٧].

> " وقد أثبت علم نفس الجماهير كما أكدت الخبرة أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار الملح لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع "

(٤) يوسف القرضاوي في صفحته الرسمية على «فيس بوك».
(٥) فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل، (٢/ ٥٧١).
(٦) صحيح البخاري، ٣٤٤٥.
(٧) مصنف أبي شيبة، (٦/ ٣٧٤) رقم (٣٢١٣٨).

ومن خفي غلو المبالغات خلط البشري بالمقدَّس، وهو ما ضلَّ به قوم في عزير وعيسى والأحبار والرهبان والأولياء والأشراف والأعراق والأنساب، وهذا أمر لا تكاد تخلو منه جماعةٌ أو تجمع أو مذهب أو مدرسة، دعك من الذين لا يؤمنون بهذا المقدَّس، فإنما أحدثك عن المؤمنين به، فليس معنى ثبوت العصمة للأنبياء وحدهم أن تُعصم عاداتهم وبشريتهم عن حكم الطبائع، فإذا كان زواج النبي صلى الله عليه وسلم من بعض نسائه بوحي معصوم لتعلق ذلك الزواج بأمر من أمور الدين كتحريم التبني فمن غلو التقديس سحب ذلك الحكم على كل أزواجه أو على طلاقِه لإحداهنَّ أو همِّه بطلاق أخرى، إنه غلو التقديس الذي برئ منه عصر الصحابة كما تبرأ من غلو تعميم صفة البشرية إنكارًا للقدسية والعصمة، عن ابن عباس قال: «خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأمسكني، واجْعَلْ يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [النساء: ١٢٨] الآية...، قال: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز»[٨] وهذا ليس بسرٍّ في حدس عائشة لَمَّا رأتْ جويريةَ بنت الحارث وقد جاءت تستعين رسول الله في كتابتها، قالت: (وكانت امرأة حلوة مَلَّاحة، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن وقفت على باب الحجرة فرأيتها، كرهتها، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرى منها مثل ما رأيت)[٩] فهذا ليس من غيرة الضرائر فحسب بل هو مقتضى الطبائع «لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه»، وهذه أمُّ هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها لما خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذرت إليه، فعذرها[١٠]، ويشهد لرَشَاد وعيهم هذا بالفصل بين البشريِّ والمقدَّس آيتا سورة الأحزاب: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ} [الأحزاب: ٥٢] {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [الأحزاب: ٣٧] فالحكم بمقتضى البشرية في الآية الأولى وبالقدسية والعصمة والوحي في الثانية من الجلاءِ بمكانٍ، أمَّا من سوى الرسل فأيّ ادعاءٍ لصفةٍ سوى البشريةِ فيهم فهو غلو في مبالغات الولاء والمحبة من شأنه أن يمسخَ الوعي والفطرة ويستبدل بهما تيهًا ربما لا تهتدي الأجيال التالية إلى سبيلٍ للخروج منه، وفي تهود النصرانية ومجوسية التشيع وهندوسية بعض جهلةِ الصوفية عِبَرٌ في هذا الباب ليس من العسيرِ على ذي الفطرةِ أو العقلِ الخام تتبعُ آثارها في الأجيال على مدى قرون.

المطلب الثاني: الوعي بين منابرِ الإعلامِ والعوامِّ

كلُّ ما رأيتَ من ضروب المسخ البنيوي يُنبئُ بأن للعدوان الثلاثيّ على الوعي جراثيم هجوميّة وأخرى ناشرة، منها المعلوم ومنها المجهول، وكلها تتآزر لتبث سمومها بمخلبين أو نابَيْنِ هما من أخطر أسلحة تلك الجراثيم صناعةً ونشرًا وانتشارًا وحراسةً:

الأول: الإضرامُ المستمرّ بغلوٍ وإيغالٍ في رُهَابِ الثنائيات، وتأجيج نيرانها بوَقودِ المغضوبِ عليهم الذين أنبتَهم أو استنبتَهم المفسدون في الأرض وعيونُهم وعملاؤهم ووكلاؤهم ومخابراتهم وإعلامهم، والشيء من معدنه لا يُستغرَب؛ فهؤلاء دأبهم وديدنهم الغلوّ في تشبيبِ أُوار النيران بين المختلفين في تبنيهم لفكرٍ أو رؤيةٍ أو تصوُّرٍ أو مذهبٍ أو دينٍ أو عرقٍ أو سياسة، وبين المتنازعين جرَّاءَ انتمائهم إلى حزبٍ أو مدرسةٍ أو حضارةٍ أو تجمُّعٍ أو جماعةٍ دينية أو دنيوية.

والآخَر: غلوُّ الإعلام التقليدي والرقمي وبرامجه وكتَّابه ومتحدِّثيه وسَدَنَةِ سادتِه المستثمرينَ تجارَ الدمِ والدِّين، لا سيما أولئك الإعلاميين الذي يستغلون مبدأ حرية الإعلام لتجنيد ألسنتهم وعقولهم وأقلامهم ومصوِّراتهم ومهاراتهم الفنية وأحكامهم المطلقة خدمةً للمفسدين في الأرض ومخابراتهم، بل إنَّ غلوَّ هؤلاء لطالما تجاوز المبالغة إلى الكذبِ الصريح باستعلاءٍ وصفاقة، فحقيقٌ بأحدهم لقب الكذَّاب الأشر لا الغالي في مبالغاته إحقاقًا للحق بتسمية الأمور بأسمائها، وهذا

(٨) مسند أبي داود، رقم (٢٨٠٥) (٤/ ٤٠٣)، سنن الترمذي: رقم (٣٠٤٠) (٥/ ٩٩).
(٩) صحيح ابن حبان: (٤٠٥٤) (٩/ ٣٦١).
(١٠) المستدرك للحاكم، رقم (٢٧٥٤)، (٢/ ٢٠٢)، قال الذهبي: صحيح.

ليس من الجفاء والفظاظة في شيء كما سيأتي في الحديث عن تزييف المصطلحات؛ فعلى قدر الجريمة يكون التوصيف (وقد أثبت علم نفس الجماهير كما أكدت الخبرة أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار الملح لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع، وتنظر سيكولوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التلفزيون على الأخص باعتباره وسيلةً ليس لإخضاع الإنسان فحسب، بل للتأثير في الجوانب الغريزية والعاطفية بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة، وهكذا أصبح التليفزيون تهديدًا للحرية الإنسانية أكثر خطرًا من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي، وأعتقد أن الأجيال القادمة -ما لم تكن قدرتها على التفكير قد دُمِّرت تمامًا- سوف تُصدم باستشهاد الجيل الحالي المستهدف بدون عائق لتأثير هذه القوة الضاربة التي لا رابط لها؛ فإذا كانت الدساتير في الماضي توضع للحد على سطوة الحكام فإن دستورًا جديدًا سنحتاج إليه لكبح جِماح هذا الخطر الجديد الذي يُهدِّد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع)[١١].

في عصر الإعلام الرقمي بدأنا نرصد ظاهرةً عُجابًا مضتْ سنةً في شبكات التواصل والفضاء الإعلامي الغادر بالوعي بسيفٍ ماضٍ مسموم؛ فاليوم نشهد (رحلة انتقال «الحمقى والمغفلين» من كتب الأخبار إلى شاشات الأخبار، فما رواه كُتَّاب الأخبار والأمثال والطرائف في كتب الأدب وأخبار الحمقى والمغفلين لم يعد يُقال الآن للتندُّر والضحك ومجالس الفكاهة، بل صار يقال في وسائل الإعلام على أنَّه حقائقُ جادة، وحين ينتقل الحمقى والمغفلون من خانة النوادر إلى منافذ التوجيه والتأثير ينتقل معهم الناس من النور إلى الظلمات، يشترون الضلالة بالهدى وهم لا يبصرون)[١٢].

روى ابن قتيبة في عيون الأخبار أن أبا حية النميري -وكان مشهورًا بالجُبن والكذب والكِبر- سمع يومًا صوتًا فظنَّه لِصًّا، وأقنع نفسه ومن حولَه بذلك، ومضى يهدِّده بسيفه الخشبيِّ ويتوعَّد (ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخكَ كلبًا وكفاني حربًا)[١٣]. (واليوم يُبعث أبو حية هذا إعلاميًّا له قناة، يستطيع إقناع الناس حقًّا بأن الذي في يديه كان سيفًا صقيلًا، وأن الذي حاول التهجم عليه كان بشرًا وقد مسخه الله كلبًا!)[١٤] وإنك مهما تكن قاطعًا بهول أساليب تثبيتِ الكذب المزيِّف للوعي فإنك على أهوال القطع بتكذيب الحقيقة المعاينةِ أقوى وأشد {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤، ١٥]، وتلك هي سنة كُبراء الجاحدين الذين يستهدفون تزييف الوعي: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام:٣٣].

في الإعلام يمتاز خوارجُ الفكر وبُغاةُ الوعي بسرعة البداهة واستمراء الكذب إلا أنَّ بغاياهن أمهر من بغاتهنّ، فلا عفة لهنَّ في لسانٍ ولا فكر، ولا حياءَ يَزَعهنَّ ولا سيِّد يُكرِهُهنَّ، شعارهنَّ: أَلِّف، ولا تقل: لا أعرف، ولا أصْدقَ في هذا الضرب من قول الكاتب الساخر جلال عامر: «كان بالإمكان أن أكون خبيرًا استراتيجيًّا لكني فضّلتُ أن أُكمِلَ دراستي»، فهم من فرط الجهل بمكانٍ، وإنَّما يبرِّح بنا الأسى لعجز أهل الحق عن مقاومتهم وتصديق العامة لهم حتى إنَّ تصديقهم لهم في شأن محرقة رابعة وكيماوي بشار أغرب وأعجب من تصفيق قوم وإشادتهم بعلمِ من سُئل: متى وُلِدت؟ قال: وُلِدتُ غُرَّةَ الهلالِ في نصف رمضان بعد العيد بأسبوع، فاحسبوا كيف شئتم! وسُئل: ماذا تشتهي؟ فقال: رأس كبشيْن، فقيل له: ذلك لا يكون، فقال: فَرَأْسَيْ كبشٍ!.

ومن أخفى أضراب الغلوِّ في الأحكام وإعلام الحكَّام أن تَجْمعَ في موضعٍ واحد أو في مقامٍ وخطابٍ واحد كلَّ ما قيل عن معنى أو شخص أو أمرٍ ما أو واقعة علمًا أنك إن نظرت في مفردات ما جمعتَ لم تر فيها مبالغة، لكن جمعها وسوقها في مقامٍ أو خطاب واحد يغدو كذلك.

إن للغة الإعلام المشبعةِ بالمبالغة في الأحكام والتصورات أثرًا

(١١) علي عزَّت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ص ١٠٨_١٠٩.
(١٢)/ ١٧٥٦٣/ https: / /ar.islamway.net /article
(١٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار (١/ ٢٦٠).
(١٤)/ ١٧٥٦٣/ https: / /ar.islamway.net /article

اجتماعيًّا لا يكاد يجهله أحد، بل يمكن القول إنها حالة مَرَضية غير مُرضية لأحد وما من أحد إلا وبه منها لوثة، فهي أحدُ عوامل الحروب وتضليل العامة في تبيُّنِ الحقائق، والباعثُ على تكفير قوم لشخص وتقديس آخرين له، ومؤشِّرٌ على الانحطاط الحضاري لدولةٍ ما كما تشهد على ذلك أحوال دول التخلف والانحطاط.

هذا وقد اعتاد الإعلام على تضليل وعي العوامّ، فأغرى مجتمعنا بحروب المثالية والواقعية، وغدا فريقٌ من مجتمعنا حالِمًا بالمثاليات الفرضيات، فهو ينسج له صورًا خيالية ومثاليات من العسير تحقيقها، لذا تجد مجتمعنا لا يتفق على شخصية تمثله، لأنه ينزع إلى شخصية خيالية الأوصاف والقدرات لن يجدها في بني البشر.

خاتمة

غالبًا ما تلفي المغرم بالمبالغة قد انعدمت ثقته بنفسه، وعاش تجارب خاسرة فاشلة؛ فيجد في إطلاق الأحكام والصفات عوضًا عما فات، وكأنها منظومة دفاعية يستر بها سوءة خسارته وهزيمته فإذا به يؤكِدها من حيث لا يعلم[١٥]، وفاتَه أن من قَتَل الوعي بسهام الغلو في إطلاق الأحكام فقد أحيا في نفوسِ مرضَى القلوبِ أدواءً، وبعث فيها أمراضًا تجمع للفرد والمجتمع: الوهمَ والإيهامَ، والغَيَّ والعِيَّ، والمراء والنفاق، والاستكبار والتعالي والمكر، والتمادي في الباطل وتنكب طريق الحق، والموازين المختلَّة والطبائع المنحلَّة؛ كما أنَّ من أماتَ بحراب صفاته المطلقة وأحكامه المثبِّطة قلوبَ نَشْءٍ تنبض بالحياة فقد أتى على قِمَمٍ هِمم من قواعدها، وقضى على حلم جيلٍ يستهدف إحياء أمجادِ أمَّةٍ كانتْ يومًا ما رائدةً قائدةً.

وإذا كان توازن الثنائيات ينبغي أن يعد مؤشِّرًا دالًّا على سلامة بنية الوعي، فإنه يلزم أن يكون لغلو المبالغات كبيرُ الأثر في ظاهرة اختلال موازين الثنائيات هذه، وحسبك في ذلك أن تتأمَّل الحريات بين طرفي كلٍّ من زنازين الاستبداد الاجتماعي أو السياسي أو الفكريِّ أو الدِّيني المحرَّف أو الوضعيّ وبين غابات الانفلات المطلق على الآخرين تجسسًا وتلصُّصا وهتكًا لحرماتهم وخصوصياتهم واعتداءً على حقوقهم، وقل مثل ذلك في كفاية الذات بين طرفي تعذيبِ الجسد جوعًا وحَرًّا وقَرًّا ورهبانيةً وتعذيبِ العقول بحَجْر التفكير وإعدام المفكرين وبين النَّهم والإفراط في السِّمنة وإشباع الشهوات والإدمان هدْرًا للطاقات والعقول والأوقات وتضييعًا للشباب وقتلًا للطفولة ووأدًا للفطرة.

أمَّا يوم أن كانت سوق توازن الثنائيات رائجة فقد كان الممدوح يحثو في وجه المدَّاحين التراب، وأنى لك أن تقف يومئذٍ على واحدة فقط من دونكيشوتيات العجرفة والتطرُّف في المغازي والسِّير على مدى ثلاثة وعشرين عامًا؟! وأنت خبير أن قانون السببية سنَّةٌ لم تتخلف ولو مرَّةً واحدة اللهم إلا أن يكون للمعجزة مقتضٍ يستدعيها لتحقيق غرضها وإصابة هدفها في سياق التحدِّي بشقيه: تحدي المنكرين للنبوة، والتحدي في مواجهةِ بقاءٍ أو فناء.

ولو أنَّ للدونكيشوتية أدنى وجود في هدي نبيِّنا لَما أثنى على جيش مؤتة بأنهم كرَّار، هذا بينما كان الخُمْسُ من الناس للجيش يلومون قائلين: يا فرّار! لأنَّهم كانوا يعدون الإخفاق في الفتح فرارًا، ولو أنَّها وجدت إلى عقول صحابته صلى الله عليه وسلم من سبيلٍ لَما تريثوا وتداولوا الأمر قبل مؤتة، ولَأوردَ خالدٌ -بعد استشهاد الأمراء الثلاثة- الجيشَ المهالكَ، مُعرِضًا عن عوامل النصر والهزيمة، موغلًا في غلو عقائد وهمية تنتظر النصر بالعقيدة دون أن تعد له العدة التي يأمرها بها كتاب العقيدة الذي وعد بالنصر لمن نصر مبادئه وعقائده جملةً واحدةً لا لمن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وإنَّ في بدر وأحد وحنين ومؤتة دروسًا وعِبَرًا لا إخَالك بحاجةٍ إلى استفصالها.

(١٥) إياد الزهيري: لغة المبالغة وأثرها الاجتماعي، http: //www.almothaqaf.com /qadayaama /qadayama-٩٠٢٣٨٩/١٦

القومية
ودورها في تفكيك وَحدة الأمة الإسلامية

د. محمد سليمان الفارس
أستاذ علم الاجتماع في جامعة ماردين

مَرَّت أمة الإسلام عبر تاريخها بفترات عرفت فيها فتوحات أنقذت العالم من مشكلاته ونشرت العدل بين الناس، وبفترات أخرى واجهت فيها هذه الأمةَ خلافاتٌ داخلية أو حروب خارجية؛ فتقلصت مساحتها أو قلَّ نفوذها العالمي لكنها بقيت محافظة على مقدساتها وشعائرها، وكانت أَزَماتها تزيد وحدة المسلمين ولا تنقصها، واستمرت هذه الحالة من بداية تأسيس الميثاق الذي كتبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبَنى من خلاله مفهوم الأمة المسلمة التي تضم كلَّ من آمن بالله سبحانه ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم بغض النظر عن جنسه وقومه، مرورًا بعهد الراشدين الكرام فالأمويين ثم العباسيين ومن تلاهم من الأيوبيين الذين فتحوا بيت المقدس وحرروه من الصليبيين، ثم المماليك الذين أوقفوا الغزو المغولي، وكذا من عاصرهم وخلفهم من العثمانيين الذين حملوا راية الدين الشريف ودافعوا عن الأمة المسلمة بمختلف أعراقها حتى عام ١٩٢٣م.

لقد كان الحكام المسلمون ومواطنوهم شيئًا واحدًا لا يميز بينهم عرق أو لون أو انتماء إذ الرابط بينهم الإسلام، وليس هناك خلاف جوهري بينهم على من يتولى الحكم عربيًّا كان أم عثمانيًّا أم أندلسيًّا أم كرديًّا إذ كان الجامع بينهم هو الانتماء للإسلام لا العرق أو الإثنية، ثم جدَّت في المجتمع الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى دواعٍ تغيرت فيها حالة الأمة الإسلامية، فتحولت من الصدارة وقيادة العالم في طريق العلم والسلام وحماية الضعفاء وإرساء العدل إلى أمة مُستَذَلَّة ضعيفة مفككة، وكان أبرز ما أدى إلى تفككها وتشرذمها في هذا العصر الدعوة القومية، فكيف ظهرت هذه الدعوة وكيف ساهمت في تفكيك الأمة وتشرذمها؟ هذا ما جاء البحث لبيانه، ويكمن جوهر البحث وأهميته بتحديد ما يأتي:

- الظروف الموضوعية التي لعبت دورها في إثارة مشاعر القوميات المتنوعة المختلفة في جسد الأمة، وتوظيفها توظيفًا سياسيًّا لغايات مدروسة في فكر من دعموا نشوء هذه القوميات أو أثاروا تلك النعرات.

- كيف أدت هذه المشاعر المتعصبة لجنس دون آخر إلى صدع بنيان الأمة الواحدة ثم تشكيل كيانات مستقلة متناحرة.

- وكيف أثرت هذه الدعوات على حضارة المسلمين التي كانت تقود العالم عبر نشر المبادئ الأخلاقية الفاضلة وتطبيقها في العالم حتى أصابتها بالتراجع، فغدت تُصَنَّف ضمن دول العالم الثالث الضعيف المتناحر.

- أصل نشأة القوميات في الغرب، لبيان أن ما يناسب شعبًا من الشعوب ليس بالضرورة أن يناسبنا، فنحن -المسلمين- لنا خصائصنا التي تختلف عن غيرنا.

مفاهيم البحث: القومية - وحدة الأمة الإسلامية

تعريف القومية:

إن إيجاد مفهوم محدد للقومية صعب نسبيًّا؛ ذلك أن قومية كل مجتمع من المجتمعات قد عبرت عن نفسها بشكل يخالف الآخَر، لكن سنذكر بعض التعريفات السائدة التي توافق عليها أغلب المهتمين بهذا الشأن:

يعرف الإيطالي مانشيني **Mancini** القومية بأنها: مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي[1]. ويعد هذا التعريف من أهم تعريفات القومية وأشهرها لأنه حدد السمات والعناصر الأساسية للقومية. وأما المفكرون العرب فقد حاول العديد منهم خصوصًا دعاة القومية العربية وضع مفهوم محدد للقومية يتناسب مع الحالة العربية ومعطياتها، ومن هذه التعريفات تعريف جورج حنا، فقد عرف القومية بأنها: عقد اجتماعي في شعب له لغة مشتركة وجغرافية مشتركة وتاريخ مشترك ومصير مشترك، ومصلحة اقتصادية مادية مشتركة وثقافة نفسية مشتركة، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة[2].

وإذا ما تناولنا ما يسمى بالمفهومين الألماني والفرنسي في تعريف القومية نجد عدة فروقات، فالمفهوم الألماني يركز على اللغة وأهميتها في بناء القومية، بينما ترى القومية الفرنسية أن مشيئة العيش المشترك هي محور القومية ومعيارها، ويظهر من هذين المفهومين الهدف الذي يسعى إليه دعاة كل قومية من هاتين القوميتين، فالألمانية تسعى إلى ضم جميع المتكلمين باللغة الألمانية في أوروبا -ومنهم سكان «الإلزاس»- إلى الدولة الألمانية، بينما نرى أن القومية الفرنسية التي سبقت القومية الألمانية بقرن من الزمان قد أتمت وحدتها السياسية بالاستيلاء على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها الفرنسية، ومنها طبعا منطقة «الإلزاس»[3].

الأمة الإسلامية:

إن وحدة الأمة الإسلامية تعني اجتماع المنتسبين إلى الإسلام على أصول الدين وقواعده الكلية، وعملهم معًا لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وبذلك يحققون معنى الأمة كما قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، وقد وصف الله تعالى المسلمين في الآية الكريمة بأنهم خير أمة، وذكر موجبات تلك الخيرية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى، وأتى على جميعها بصيغة الجمع ليدل على وجوب اجتماعهم واتفاقهم[4].

المسلمون أمة واحدة لاتِّفاقهم على كليات العقيدة ودعائم الشريعة وإن اختلفوا في الفروع والجزئيات، فقد كوَّن الإسلام الأمة الواحدة من خلال جمعها على رابطة العقيدة، فقال سبحانه: {إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء/ ٩٢].

من خلال تتبعنا آيات القرآن الكريم نجد فرقًا في مفهوم الأمة وما يشبهه مثل «الشعب»، فالأمة مرتبطة بالإيمان وتطلق على جماعة ذات عقيدة دينية، أما الشعب فهو لفظ يجمع أفرادًا وجماعات يربط بينهم أي رابط لغوي أو جغرافي أو ثقافي، فنستطيع أن نقول: أمة المسلمين أو أمة النصارى وأمة اليهود، دليل ذلك قول الله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]. ولا نقول: أمة العرب أو أمة الترك وأمة الفرس، بل نقول: الشعب التركي والشعب العربي والشعب الفارسي، دليل ذلك أيضا قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] فجعل لفظ الشعوب جمعًا ليدل على التنوع، وأفرد لفظ الأمة ليدل على الوحدة.

يقول المناوي رحمه الله عن الأمة: هي (كلُّ جماعة يجمعها أمر إما دين أو زمن أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع

(١) ساطع الحصر، ما هي القومية، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٦٣م، ص (٤٠).
(٢) جورج حنا، معنى القومية العربية، بيروت، دار الثقافة، ص (٢١).
(٣) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، بيروت،١٩٥٩م.
(٤) موقع المسلم (وحدة الأمة الإسلامية فريضة وضرورة).

تسخيرًا أم اختيارًا)[٥] فهو يميز بين أمتين: أمة تسخيرية وأمة اختيارية، مثال الأمة التسخيرية أمة الطير، قال تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام: ٣٨]، وكذلك أمة الكلاب، عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم))[٦] وأما الأمة الاختيارية فهي التي اجتمع أفرادها على دين أو مذهب كأمة اليهود وأمة النصارى وأمة الإسلام، قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [سورة النساء: ٤١]، وجاء في حديث الشفاعة قوله صلى الله عليه وسلم: ((فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي))[٧].

نشأة القومية في الغرب ودواعيها

تُعد الدولة الأوربية في القرون الوسطى دولة ثيولوجية (دينية) تحكم باسم الرب؛ كون حكامها من ملوك وأمراء وقياصرة يستمدون شرعيتهم من الكنيسة الكاثوليكية، والبابا يعطي لأولئك الحكام الشرعيةَ بوصفه حامل مفتاح الجنة ووريث بطرس، وكانت الكنيسة ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعًا منهم، بل هو حق لها يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي، جاء في البيان الذي أعلنه البابا «نقولا الأول» قوله: (إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل...؛ فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكامًا كانوا أو محكومين)[٨] وظلَّ النصر حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي؛ لذلك كان الباباوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة كما كان في إمكانهم -في أحيان كثيرة- خلع الملوك وعزلهم، فكان الملوك يطلبون رضاهم ويخضعون لهم ليمنحوهم الشرعية في الحكم، ومن كان يرفض الرضوخ لهم يغدو حكمه غير شرعي.

وكانت الكنيسة قد فرضت قوانين على الناس ليست من الدين في شيء، ومنعت البحث في العلوم وشؤون الدنيا بحجة أن الدنيا دار زهد، وفي بداية ما يسمى عصر النهضة بدأ صراع كبير في أوربا بين الكنيسة والشعب بدفع من العلماء المتنورين، وانتصرت إرادة الشعوب الأوربية على سلطة الكنيسة والملوك وأتباعهم، وفي حقبة الانتقال تلك من سلطة الكنيسة والملوك إلى سلطة الشعب حاول الناس أن يجدوا صيغة بديلة جامعة يتفقون عليها فيما بينهم للعيش المشترك بحيث تحفظ لهم حرية آرائهم ومعتقداتهم، وتكفل لهم المساواة فيما بينهم بصفتهم مواطنين في دولة واحدة، فظهرت القومية في أوربا وارتبطت بما يسمى (بالعلمانية) **secularism**، وترجمتها الدقيقة «الدنيوية» أي إن شؤون الدنيا ينبغي أن يديرها الناس بقوانين وضعية لا الكنيسة.

وأدت التطورات التي عرفتها أوروبا في العصر الذي سمي عصر النهضة بدءًا من القرن السادس عشر إلى الفصل بين الكنيسة والدولة؛ أي إن القومية في ظل التطورات الغربية التي صاحبتها كانت حركة توحيد وتحرر لأنها جمعت الشعب على مبدأ واحد بعيدا عن الخلافات الدينية، فحققت الوحدة لهم كما كانت حركة تحرير؛ فقد خلَّصت أوروبا من تسلط الكنيسة الكاثوليكية التي فرضت التخلف على العقل الغربي وحاولت التحكم في كل الأشياء، فنستطيع أن نقول: إن القومية (**Nationalism**) ظهرت في الغرب بوصفها مصطلحًا له أبعاده ومفاهيمه في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

إن عددًا كبيرًا من الباحثين متفقون إلى حد كبير على أن الثورة الفرنسية تعد نقطة البداية للتعبير الواضح عن الإرادة القومية عمليًّا، فيذهب «كون» في كتابه (فكرة القومية) إلى أن أول تعبير كبير عن القومية هو الثورة الفرنسية، وله مقولة: (القومية بنت الثورة الفرنسية) ثم يذهب إلى أن الشعوب المتمدنة لم تشعر بأن الولاء القومي أهم وأقدس مصادر الوحي في الحياة إلا منذ الثورة الفرنسية، ويؤكد أيضًا أن الثورة الفرنسية كانت أولى التعبيرات الكبرى عن مذهب القومية، ومن أقوى عوامل تكثيف الوعي القومي[٩].

(٥) عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب القاهرة، مصر ١٩٠٠، ص (٦٢).
(٦) رواه أصحاب السنن الأربعة.
(٧) رواه البخاري ومسلم.
(٨) هربرت فيشر، تاريخ أوربا الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، دار المعارف الإسكندرية، ١٩٦٩، ص (٧١).
(٩) عبد الكريم أحمد، القومية والمذاهب السياسية، القاهرة الهيئة المصرية العامة للنشر، ١٩٧٠، ص (٦١).

وتوصف الثورة الفرنسية بأنها الحركة التي لعبت فيها المشاعر القومية دورًا واعيًا حاسمًا، وعبرت فيها الإرادة القومية -لأول مرة في التاريخ- عن ذاتها بإجراءات محددة تستهدف فرض (اللغة القومية) ووضع أسس (التربية القومية)، بل ظهر فيها لأول مرة ما يمكن أن نسميه (الإيديولوجية القومية)، فكانت هذه الثورة المرحلة الأخيرة في بناء الوعي الفرنسي ونضوج الأمة الفرنسية وتبلور إرادتها، وكان ذلك إيذانًا بمولد القومية الحديثة[١٠].

ويظهر البعد القومي في الثورة الفرنسية من خلال الإجراءات التي تمت خلال الثورة وكانت تعبيرًا حقيقيًّا عن إرادة قومية لا عن إرادة طبقة تسعى إلى فرض نفسها على المجتمع كله، فقد أسهمت الثورة الفرنسية بعناصر كثيرة محددة بارزة صارت منذ ذلك الوقت من علامات ظهور الإرادة القومية في كل مكان تقريبًا، فقد دعمت الثورة الدولة القومية الجديدة على حساب الكنيسة، وسمحت للأفراد بمجال واسع في اختيار ولاءاتهم الدينية، لكنها غرست في نفوسهم مبدأ أن كل المواطنين ملزمون بالولاء الأول للدولة القومية وحدها، وابتكرت رموزًا جديدة أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الحركات القومية في جميع أنحاء العالم مثل العلم القومي والنشيد القومي والأعياد القومية واستخدام لغة واحدة هي اللغة القومية[١١].

بدايات التوظيف السياسي للقومية العربية

ثارت فكرة القومية العربية في بلداننا بوصفها نوعًا من التأثر بالتوجه القومي الأوروبي حيث نشأ دعاة القومية العربية مقلدين لذلك التيار، وغدوا يلهثون للحاق بركبه، والواقع أن الذين أثاروا القومية العربية في بلاد المسلمين وكان لهم اليد الطولى في الدعوة إليها إنما هم النصارى العرب؛ إذ إنهم يدركون فائدة التفاف العرب المسلمين على القومية بدلًا من الدين الذي لا يتوافق مع دمج المسلم وغير المسلم في أمة واحدة على حد زعمهم، فبدأ القوميون العرب من النصارى وغيرهم الدعوة إلى القومية، وأخذوا يكيلون المديح لها، وأشاعوا أن العرب في حاجة شديدة إلى قيامها إن أرادوا العزة والمنعة واحترام سائر الأمم لهم، وزينوها للناس بزخرف من القول، وهكذا أشعلوا بوادر الحركة القومية في نهايات القرن التاسع عشر مستعرةً بالحقد على الدولة العثمانية التي كان يمثل وجودها إحباطًا كاملًا لأحلامهم.

تشكلت بدايات الفكر القومي في البلدان الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها جمعيات وخلايا عدة في عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت شاملة للترك والأرمن والعرب وغيرهم، وقد ظهرت في بلادنا علانية من خلال جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقده في باريس سنة ١٩١٢م أدباء ومفكرون مسيحيون من لبنان مثل «بطرس البستاني» و «أحمد فارس الشدياق» و«إبراهيم اليازجي» وغيرهم، وكانوا جميعًا مرتبطين بالإرساليات النصرانية الغربية، وقد عملوا على إبراز تاريخ العرب قبل الإسلام وإثارة الشعور القومي العربي، فهؤلاء هم أول من فَصَل في العصر الحديث بين العروبة والإسلام، ويعترف صليب كوراني بذلك فيقول: (الأثر الأول للحضارة الغربية في الحياة العربية بعث القومية العربية، وقيام الحركة الاستقلالية التي تشمل العالم العربي في الوقت الحاضر، وكانت هذه الحركة نتيجة مباشرة للتعليم الغربي)[١٢].

انتشرت الجمعيات القومية السرية والعلنية مطالبة بإصلاح الوضع في الدولة العثمانية التركية، وبحق العرب في الحصول على حقوق سياسية وثقافية في إطار الدولة التركية العلمانية التي حلت بدعم أوربي محل الخلافة العثمانية، وقد كان ظهور القومية التركية الذي مثلته جمعية «الاتحاد والترقي» سببًا أساسًا في ظهور تيار قومي عربي، لكنه لم يكن في بداية نشأته مطالبًا بتفكيك الدولة العثمانية، وإنما كان يطالب بحقوق خاصة للعرب، يقول زين نور الدين زين: (إن فكرة الانفصال العربي عن الدولة العثمانية لم تظهر إلا في إطار التطرف القومي للاتحاد والترقي بعد عام ١٩٠٩م). وإبَّان الحرب العالمية الأولى وبانضمام تركيا إلى ألمانيا بدأت بريطانيا توظف رغبة العرب في الانفصال عن تركيا بقطع عهود على نفسها بإقامة خلافة عربية على رأسها الشريف حسين إذا هم ساعدوا الحلفاء في

(١٠) المرجع السابق، ص (١٥٠).
(١١) المرجع نفسه، ص (١٥٩).
(١٢) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، ط ٤، دار النهار، بيروت، لبنان،١٩٨٦م.

الحرب، وبعد مساعدة العرب للحلفاء في حربهم ضد تركيا خدعتهم بريطانيا وقامت بتقسيم الدول العربية في الاتفاق المعروف باسم «سايكس - بيكو» بين بريطانيا وفرنسا، وهنا بدأ التوظيف السياسي لفكرة القومية، وكانت الغاية من ذلك عزل العرب عن السلطنة العثمانية الممتدة على جغرافية تمتد من المحيط غربًا إلى حدود الصين شرقًا ومن بلاد الهند إلى قلب أوربا.

وفي غَمرة موجة تأثُّرٍ فريقٍ من العالم الإسلامي بالأفكار الغربية ظهرت الفكرة القومية في أوائل القرن العشرين مطلبًا أساسيًّا روجت له النخبة العلمانية، وكان نفوذ هذه النخبة يتعاظم بتعاظم التفوق الغربي في المجال الصناعي؛ إذ كانت الفكرة المهيمنة على عقول النخبة المتغربة في هذا الوقت تقول: لكي نحقق الإصلاح والتقدم في العالم الإسلامي لا بد من انتهاج خط الغرب، ونسي هؤلاء أن ما يصلح في مجتمع ما ويُنتِجُ خيرًا فيه قد يُنتِجُ شيئًا خبيثًا في مجتمع آخر؛ فليس ثَمَّة مجتمع واحد بل مجتمعات لكل منها خط إصلاح مختلف، يقول زين نور الدين زين في كتابه «نشوء القومية العربية»: (في الغرب كانت القومية السياسية جزءًا من حركة علمنة الحضارة المسيحية، وأسفرت المعركة عن انتصار القومية، أما في الشرق العربي فالإسلام لا يزال عميق الجذور، فلم تستطع الأفكار القومية أن تحدث ثغرة فيه بل استطاع الإسلام أن يقف في وجه كل محاولة للعلمنة، والمسيحيون القلائل وإلى جانبهم قلة قليلة من المسلمين ممن كانوا يحلمون بإنشاء دولة عربية علمانية تقوم على حدود جغرافية وطنية معينة لا على أساس ديني لم يلقَوْا تشجيعًا ولا تعضيدًا من قِبَل غالبية سكان البلدان الإسلامية)[١٣].

إذًا إن المسلمين لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني ولا بأشباهها، ولا يقولون: فرعونية وعربية وفينيقية وسوريَّة ولا شيئًا من هذه الألقاب والأسماء التي يتمايز بها الناس دون أدنى فائدة لكنهم يؤمنون بما قاله الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، وبما علمنا رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- من أن معيار التفاضل الحقيقي وميزانه هو التقوى والإيمان والعمل الصالح لا عصبيات جاهلية مُثارة بالأجناس والأشكال واللغات وغيرها[١٤].

بريطانيا ووعودها لتفكيك كيان الخلافة العثمانية

> لحكمة إلهية لم ينفرد بحكم العالم الإسلامي عرق معين، بل تداولته الشعوب الإسلامية من عرب وترك وصقالبة وكرد وبربر وفرس

عملت بريطانيا على التوظيف السياسي لفكرة القومية بكل الاتجاهات، ففي الوقت الذي كان فيه الإنجليز يتواصلون مع دعاة القومية العربية كانوا يتواصلون أيضًا مع الأكراد ويمنونهم بدولة كردية مستقلة معترف بها، فانساق الأكراد خلف هذا الحلم خاصة بعد أن خالفت جمعية الاتحاد والترقي التركية بزعامة أتاتورك مبادئ الدولة في المساواة بين المواطنين، يومئذٍ شعر الأكراد بغُبن الأتراك لهم وأرادوا الانفصال عن الدولة التركية، فاستغلت بريطانية هذه الدوافع بحكم وجودها في الجنوب الإيراني على شكل شركات تجارية مثل شركة الهند وشركة تصنيع التبغ، وكان وجودها في الشرق الأوسط يوفر لها معرفة تامة بالمنطقة تمكنها من التخطيط لإضعافها وإبعادها عن الخلافة العثمانية القوية في الشرق التي كانت تمثل تحديًا كبيرًا للتجارة الأوربية، وكانت قبل الحرب العالمية الأولى تسيطر على كل المضائق البحرية في الشرق الأوسط وتتحكم بحركة التجارة العالمية، إذ تبسط سيطرتها

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) محمد الحسن، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الاسلامي، ط٤، دار البشير، طنطا، ١٩٩٨، ص (٢٦٤).

على معظم أجزاء المتوسط التي تضم القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا.

في عصر الدولة العثمانية كانت معابر التجارة القديمة من آسيا إلى أوروبا ترتبط بسلطة واحدة؛ ما سهل وصول التجارة المارة بسرعة أكبر وتكلفة أقل، ومن هذا المنطلق لم يتردد السلطان سليم الأول منذ أول يوم في اتخاذ التدابير اللازمة لإنعاش حركة التجارة في الطريق التقليدي القديم المار بالشرق الأدنى، فبدأ بتأمين شرق المتوسط بالقضاء على القراصنة الصليبيين، وبإرسال الحملات إلى البحار الشرقية للحد من نفوذ البرتغاليين، ولم يتردد في عقد معاهدة تجارية مع البندقية عقب دخوله إلى مصر مباشرة في ١٤ فبراير ١٥١٧م، تلتها كثير من المعاهدات مع دول أوروبية مختلفة مثل فرنسا وإنكلترا في عهد خلفائه، زاد على إثرها التبادل التجاري بين الشرق والغرب عبر الأراضي العثمانية الممتدة على ثلاثة أرباع البحر المتوسط[١٥].

أرادت حكومة بريطانيا أن تفصل المسلمين الكرد عن دولة الخلافة بصنع حواجز اجتماعية قومية بينهما، أو على الأقل أن تحيِّد الكُرد بعيدًا عن صف الأتراك إن شنت هجوما عسكريا على الدولة العثمانية، ولعل من أهدافها إيجاد منطقة عازلة بين أتراك الأناضول والأقوام التي تتكلم اللغة التركية في آسيا الوسطى والقفقاس وخاصة أذربيجان، وكانت وسيلتها هي ترغيب الأكراد بوطن قومي لهم، وقد انتهجت بريطانية في فترة ما بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ سياسة الوعود بأوطان قومية مستقلة عن الدولة العثمانية مثل وطن قومي للكرد ووطن قومي للعرب مستغلةً ومستخدمة القومية رغبةً في الانفصال بعد انتهاج الأتراك الجدد سياسة التمييز بحق المواطنين غير الأتراك، وبذلك هيأت الأرضية لتكوين وطن قومي لليهود أيضًا.

حصلت محاولات من الكرد أنفسهم للتقرب من البريطانيين في بداية القرن العشرين، وكانت جهود الدبلوماسي الكردي شريف باشا واضحة في هذا المجال، إذ حاول الاتصال بالإنجليز عام (١٩١٤) لكي يعرض خِدْماته، لكن الحكومة البريطانية لم تستجب له، وبحلول عام (١٩١٨) يوم احتلت بريطانيا العراق طلبت وزارة الخارجية البريطانية من السفير برسي كوكس أن يلتقي بشريف باشا في مدينة مرسيليا الفرنسية للاستماع إلى أقواله[١٦].

> العرب بحد ذاتهم حينما مالوا إلى القومية ووالوا وعادوا من أجل العروبة ازدادوا فرقة وفقرًا وعداوة فيما بينهم، وكادَ بعضهم للبعض الآخر

وقبل ذلك كله بدأت الدعوة في تركيا إلى القومية الطورانية التركية، والذين دعوا إلى القومية الطورانية التركية كانوا من اليهود، وهذا شيء ثابت، بل إن المؤرخ الأمريكي واتسون يقول: (إنه لا يوجد أحد في حركة الاتحاد والترقي -الحركة القومية التركية- من أصل تركي حقيقي وإنما هم من اليهود وغيرهم، أي: يدعون إلى القومية التركية وليس فيهم رجل واحد من أصل تركي)[١٧].

ولو تمت المقارنة بين وضع الأمة في تلك الفترة التي يسميها بعضهم «عصر القوميات» والفترة السابقة لوجود القوميات لأدركنا سبب هذا الضعف والفرقة والهوان، فقد كان حكم الدولة الإسلامية يتنقل بين الأعراق المتنوعة في العالم الاسلامي العرب والترك والكرد والصقالبة والمماليك، ولم

(١٥) أحمد سالم، من جديد حول إشكالية الحُكم العثماني للعالم العربي، جريدة القدس العربي، ١٥ مايو ٢٠١٩م.
(١٦) عبدالله محمد العلياوي، جذور المشكلة الكردية، الجزيرة نت : https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/4f935dae-8e08-4c54-83ca-16f692c7ab35.
(١٧) سفر الحوالي، القومية العربية.

يكـن هنـاك خـلاف عـلى مـن يحكـم مـن أي قوميـة أو عـرق كان، بـل كان الهَـمُّ الأكـبر عنـد جمـوع المسـلمين فيمـن يحكـم أن يقيـم العـدل بـشرع الله ويكـون متأهبًـا للدفـاع عـن هيبـة المسـلمين وأرضهـم، وسـنذكر ملامـح موجـزة لتاريـخ المسـلمين قبـل ظهـور القوميـات المتنوعـة في العـالم الإسـلامي.

تعاقب الأعراق على الحكم في الأمة الإسلامية

لحكمـة إلهيـة لم ينفـرد بحكـم العـالم الإسـلامي عـرق معـين، بـل تداولتـه الشـعوب الإسـلامية مـن عـرب وتـرك وصقالبـة وكـرد وبربـر وفـرس، حتـى وصلنـا إلى العصـور الحديثـة بفتـح القسـطنطينية عاصمـة البيزنطيـين عـام ١٤٥٣م عـلى يـد الشـاب المسـلم محمـد الفاتـح ولـمَّا يبلـغ عمـره حينـذاك خمسـة وعشريـن عامًـا، وبمراجعـة الثقافـة العثمانيـة مثـلًا نجـد أنهـا لم تسـتند إلى العـرق أو روابـط الـدم، بـل كان الإسـلام سر وجودهـا وحياتهـا، ولم يكـن العثمانيـون في أي وقـت يصفـون أنفسـهم «بالأتـراك»، بـل يعـدون ذلـك ضربًـا مـن ضروب التخلـف الاجتماعـي، أي إن التـداول الحضـاري والسـياسي في الإسـلام لم يسـتند إلى العـرق بـل اسـتند بشـكل أسـاس إلى رسـالة الإسـلام، وأعـرض هنـا بشـكل موجـز أهـم الحكومـات التـي تداولـت حكـم العـالم الاسـلامي وهـي مـن أعـراق مختلفـة، وحافظـت عـلى مقدسـات الأمـة ونـشر تعاليـم دينهـا وإقامـة العـدل بـين النـاس.

الخلافة الراشـدة (11 - 40هـ / 632 - 661م)

تُسـمى أيضـا دولـةَ الخلفـاء الراشـدين، وهـي أولى دُول الخِلافـة الإسـلاميَّة التـي قامـت عقِـب وفـاة الرسـول مُحَمَّـد صـلى الله عليـه وسـلم سـنة ١١هـ، (٧ تمـوز سـنة ٦٣٢م)، وكانـت المدينـة المنـورة عاصمتهـا، وهـي دولـةُ الخِلافـة الوحيـدة في التاريـخ الإسـلامي التـي لم يكـن الحكـم فيهـا وراثيًّـا بـل كان قائـمًا عـلى الشـورى، وكان الخلفـاء عربًـا[١٨].

الدولـة الأموية (41 - 132هـ / 662 - 750م)

هـي دولـة بنـي أميـة، وهـي ثـاني خلافـة وأكـبر دولـة في تاريـخ الإسـلام، كان بنـو أميـة أولى الأسر المسـلمة الحاكمـة، إذ حكمـوا مـن سـنة ٤١ هـ (٦٦٢م) إلى ١٣٢هـ (٧٥٠م)، وكانـت عاصمـة الدولـة في مدينـة دمشـق، وبلغـت الدولـة الأمويـة ذروة اتسـاعها في عهـد الخليفـة العـاشر هشـام بـن عبـد الملـك، فامتـدت حدودهـا مـن أطـراف الصـين شرقًـا حتـى جنـوب فرنسـا غربًـا[١٩].

الدولة العباسـية (132- 656هـ / 750 - 1517م)

الدولـة العباسـية أو الخلافـة العباسـية أو العباسـيون هـو الاسـم الـذي يُطلـق عـلى ثالـث خلافـة إسـلامية في التاريـخ، وثـاني السـلالات الحاكمـة الإسـلامية[٢٠].

الدولـة الفاطمية (297 - 567هـ / 909 - 1171م)

هـي إحـدى الـدول التـي نشـأت في عـصر الخلافـة العباسـية، وتسـمى أيضـا بالدوْلَـة العُبَيْدِيَّـة، وهـي الوحيـدةُ بـين دُولِ الخلافـةِ التـي اتخـذت مـن المذهـب الشـيعي الإسـماعيلي مذهبًـا رسـميًّا لهـا، شـملت الدولـة الفاطميَّـة مناطـق واسـعة مـن المغـرب إلى مـصر، ثُـمَّ توسَّـع الفاطميّـون أكثـر فضمّـوا إلى مُمتلكاتهـم جزيـرة صقليـة والشَّـام والحجـاز، فأضحـت دولتهـم أكـبر دولـةٍ اسـتقلَّت عـن الدولـة العبَّاسـيَّة[٢١].

وبـين مؤرخـي المسـلمين خـلاف كبـير حـول أصـل أئمـة هـذه الدولـة وحكامهـا: هـل هـم مـن آل بيـت النبـوة أم مـن اليهـود؟

الدولـة الأيوبية (569 - 661هـ / 1174 - 1263م)

الأيوبيـون أو بنـو أيـوب هـي أسرة مسـلمة حكمـت أجـزاء واسـعة مـن المـشرق العـربي خـلال القرنـين الثـاني عـشر والثالـث عـشر الميـلادي، تأسسـت الدولـة الأيوبيـة عـلى يـد السـلطان صـلاح الديـن الأيـوبي في مـصر ثـم امتـد حكمهـا إلى الشـام والحجـاز وشـمال العـراق وديـار بكـر جنـوب تركيـا، وإلى شرق

(١٨) محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس، بيروت – لبنان، ٢٠٠١، ص (٦٧) وما بعدها.
(١٩) المرجع السابق، ص (١١١) وما بعدها.
(٢٠) المرجع نفسه، ص (١٤٧) وما بعدها.
(٢١) المرجع السابق، ص (٢٦٧) وما بعدها.

ووسط وجنوب اليمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[٢٢].

الدولة المملوكية (648 - 923هـ / 1250 - 1517م)

المماليك هم سلالة من الجنود المسلمين أتراك الأصل، حكموا مصر والشام والعراق وأجزاءً من الجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧م، تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى قبل أن يستقروا بمصر، من أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، ثم السلطان الشركسي برقوق الذي تصدى فيما بعد لتيمورلنك واستعاد مناطق احتلها التتار في بلاد الشام والعراق ومنها بغداد، والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص[٢٣].

الدولة العثمانية (698 - 1342هـ / 1299 - 1923م)

الخِلَافَةُ العُثْمَانِيَّة، وتسمى أيضا بالدَّولَة العَلِيَّة العُثمانيَّة، هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، واستمرت قائمة نحو ٦٠٠ سنة، نشأت الدولة العُثمانيَّة بدايةً بصفتها إمارة حُدودية تعمل في خدمة سلطنة سلاجقة الروم وترد الغارات البيزنطيَّة عن ديار الإسلام، وبانهيار حكمهما انهارت دولة الإسلام الواحدة[٢٤].

انعكاس القومية على المجتمع السوري

سوريا كغيرها من الأقاليم العربية تأثرت بدعوات القومية العربية، فظهرت فيها شخصيات عدة تفتتن بالتقدم الغربي وتتبنى الفكر القومي، ولاقت أفكارهم في نظام الدولة رواجًا واسعًا خاصة مع ظهور أحزاب تحمل فكرهم، منها أحزاب شمولية مجرمة قسرت المجتمع على فكرها كان من أبرزها حزب البعث، وامتد تأثير القومية إلى فترة الثورة السورية عام ٢٠١١، فكانت أكثر فترة تاريخية مُنيت باستقطابٍ للفكر القومي في سورية ما بعد الانفصال عن مصر عام ١٩٦١م، إذ ترسخت القومية أكثر بصفتها نظام دولة، وصيغت في دستور الدولة في عهد حزب البعث، الذي نشأ عام ١٩٤٧م وتمكن من التسلط على مفاصل الدولة بعد انقلاب الثامن من آذار سنة ١٩٦٣م.

لقد تأثر المجتمع السوري كثيرًا بسلبيات سيطرة القومية على نظام الدولة، فبرز تأثيرها السلبي بوضوح في مسألتين هما:

أ- الدين والقومية ونمط العلاقات الاجتماعية الجديد بين الدولة والشعب.
ب- المسألة الكردية.

الدين والقومية:

بنى حزب البعث -بوصفه حزبًا قوميًّا شموليًّا- علاقته مع جماعات المجتمع السوري على أساس الهوية العربية، جاعلًا الدين شيئا سيئًا يعود بالدولة إلى الانقسامية، واتخذ من هذا الفكر ستارًا لإجبار الناس على البعد عن الدين في المواضع التي تتعارض فيها رُؤاه مع مبادئ الدين، وقد حاول من خلال فكرة ضرر الدين على الناس تسويغ النهج العلماني الذي أخذ يفرضه على المجتمع السوري بقوة السلطة والسلاح.

كانت أفكار حزب البعث ناتجة عن تصورات خاطئة عن الإسلام وتقليد أعمى للغرب في مساواتهم الكنيسة الغربية في القرون الوسطى بدين الإسلام المُكَمَّل، وهنا أورد نصًّا لأحد قادة حزب البعث يوضح تصور الحزب عن الدين، يقول ميشيل عفلق[٢٥]: (الدولة الدينية كانت تجربة في القرون الوسطى، تجربة انتهت بالفشل، وكلفت البشرية كثيرًا من الجهود ومن الدماء ومن المشاكل، وحدثت تقريبًا في أوقات متفرقة في البلاد الإسلامية وفي أوروبا المسيحية...، الإسلام كان المحرك للعرب، أما اليوم فالقومية وحدها هي

(٢٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام وإقليم الجزيرة، ط ٢، دار النفائس، بيروت - لبنان،٢٠٠٨، ص (٧) وما بعدها.
(٢٣) أصل المماليك، أطلس التاريخ الحديث، الجزء الثالث، ص (٣١١) وما بعدها.
(٢٤) محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس، بيروت - لبنان،٢٠٠١، ص (٣٣٩).
(٢٥) ميشيل عفلق ولد في دمشق ١٩٠٨م وتابع دراسته في باريس، يعد من مؤسسي حزب البعث ومنظريه، تأثر بزكي الأرسوزي وكارل ماركس، ومات ١٩٨٩م.

الأساس، ولا يمكن أن يَفْهم العرب لغةً غيرَها)[٢٦].

الأكراد في سورية:

الشعب السوري أغلبه شعب مسلم، ويتكون من عدة أعراق يغلب عليها العرب، ويعيش معه مجموعة من أبناء الديانات الأخرى، وقد أثرت فكرة القومية سلبًا على أحد أبرز مكوناته ألا وهم «الأكراد»، فغيرت فكرة القومية نمط العلاقات السائدة بين الأعراق التي تتشارك الأرض السورية، فأقصت غير العربي وتجاهلته لأنه غير عربي فحسب، وأعلت من شأن العربي كُفُؤًا كان أم غير كُفُؤٍ لأنه عربي فقط؛ فظهرت في المجتمع السوري فئة محرومة من جل حقوقها في التمثيل السياسي وغيره لأنها غير عربية فحسب وهي «الكرد»، بينما فتح الباب لغير المسلمين على مصراعيه بوصفهم عربًا قوميين.

على مستوى الدساتير السورية نجد أبرزَها دستورَ عام ١٩٥٠م، وقد قيل إنه لُخص من خمسة عشر دستورًا لدول رائدة في الديمقراطية والحرية، ورغم هذا لا نجد فيه ذكرًا لأي خصوصية للكرد، ففي المادة الأولى من الدستور عرفت الدولة السورية بأنها «جمهورية عربية، والشعب السوري هو جزء من الأمة العربية» وتقول المادة الرابعة: « اللغة العربية هي اللغة الرسمية»، وجاء الدستور السوري الخامس الذي وضعه حزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٧٣م، فركز كثيرًا على عروبة سورية واشتراكيتها، ولم يعط للكرد حق تعليم أبنائهم بلغتهم الأم في مدارس خاصة بمناطقهم، فنجد دساتير الحكومات -التي تداولت السلطة في سورية بعد نشوء الفكر القومي- تبنى على فكرة الدولة القومية المأخوذة عن الفرنسيين دون خصوصيات.

واشتدت النزعة الإلغائية في سوريا بعد استلام حزب البعث للسلطة في آذار سنة ١٩٦٣م، فقام بإقصاء المتدينين لأنَّ التدين منافٍ لمبادئ الحزب، وبإقصاء غير العرب من الأقوام الذين احتفظوا بأسلوب عيش توارثوه عن آبائهم، فنتج عن ذلك حرمان مئات آلاف الأكراد السوريين من حقوق المواطنة حتى عام ٢٠١٢م، فكان ما يزال نحو ٤٠٠ ألف شخص في محافظة الحسكة يعدون أجانب في السجلات المدنية للدولة، ويحرمون من أبسط الحقوق الإنسانية مثل البطاقة الشخصية وجواز السفر وحق السفر خارج البلاد لأنهم كرد فحسب.

نتائج القومية في البلاد الإسلامية

ضعف الأقاليم الإسلامية واحتلالها:

ما دام باب القومية قد فتح على المسلمين فقد كان طبيعيًّا أن تنتهي إلى ظهور القومية العربية والكردية، والبنغالية في باكستان، والطورانية في تركيا لإبعاد الإسلام بصفته صلة وصل وحيدة بينهم؛ فتفرقت بلاد المسلمين ووقعت تحت الاحتلال الأوربي، الذي كان سببًا أساسًا في ظهور هذه الدعوات القومية، وقد شجعت الدول الأوربية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ظهورَ القومية العربية في صورها العلمانية لتحقيق مطامعها في احتلال الشرق الإسلامي، وما قامت الثورة العربية على الأتراك إلا بتأييد بريطانيا ودعم حليفتها فرنسا، فقد ثبت أن عددًا من الزعماء كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم[٢٧].

الفُرقة:

يقول الدكتور غالب العواجي: (العرب بحد ذاتهم حينما مالوا إلى القومية ووالوا وعادوا من أجل العروبة ازدادوا فرقة وفقرًا وعداوة فيما بينهم، وكادَ بعضهم للبعض الآخر، بل دارت بينهم حروب شرسة حين بغى بعضهم على بعض ببركات حب القومية وافتخار كل بقومه، فقامت الأحزاب والتكتلات الصغيرة والكبيرة على حمية القومية الجاهلية، فازدادت المسافة بينهم وبين الوصول إلى السعادة المنشودة في ظل القومية)[٢٨] فليس الترك وحدهم من تمزقوا بهذا التآمر وإن كانوا أكثر من تضرر، وإنما الكرد أيضا تم تقسيمهم بين عدة دول قومية، وأما العرب فقد تم تقسيمهم إلى اثنتين

(٢٦) ميشيل عفلق، خطاب ألقي على مدرج الجامعة السورية في ٥ نيسان عام ١٩٤٣م.
(٢٧) علي محمد جريشه وآخَر، الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام-المدينة المنورة، ط٣، عام ١٩٧٩ ص (٧٧-٧٨).
(٢٨) غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ج ١، ص (٣٦).

وعشرين دولة، وأدى هذا التقسيم الجائر إلى خلق توترات دائمة في كل منطقة، وهكذا قامت الدولة القومية وفق نسق سلطة خارجية.

جامعة بروابط وهمية:

حاولت الأنظمة العربية الناشئة أن توفق بين مصالحها الخاصة ودعواتها إلى القومية فأنشأت جامعة الدول العربية، لكنها كانت شبه وهمية؛ فقد اكتفت ببضع اتفاقيات تجارية وعسكرية وثقافية هشَّة تخللها صراع واسع بين أعضائها.

إخفاقات القومية:

لم تستطع القومية العربية أن ترقَى إلى مستوى التحديات المنوطة بالشعوب العربية؛ فأخفقت في تحقيق الوحدة العربية ولم تفلح كل محاولات الوحدة حتى الجزئية، وأخفقت أيضًا في تحقيق أي مستوى من مستويات التعاون الاقتصادي، فلم تحقق التنمية، ولم تستطع أن تنجز مهمة التحرير والتحدي للهيمنة الغربية وربيبها الكيان الصهيوني.

قوميون وقومية بدوافع أجنبية:

تبين من حوادث العصر أن دخول القومية إلى البلاد الإسلامية عمومًا والعربية خصوصًا إنما كان بدافع الحقد الصليبي واليهودي والرغبة في تمزيق الوحدة الإسلامية والانتماء إلى الإسلام؛ فالانتماء إلى القومية العربية بدل الإسلام سيسهل لهم مهمة احتلال بلدان المسلمين بعد أن يفرقوا بين العرب وسائر إخوانهم المسلمين على مبدأ «فرق تسد»، وقد أثبتت الأيام علاقة القوميين العرب بالقوى العالمية وخضوعهم لها وعملهم على خدمتها حتى ولو كان ذلك يتنافى مع مبادئ القومية التي يتغنون بها، يقول جميل مطر في مقاله «مستقبل العروبة»: (لم تعد القومية قادرة بظروفها الراهنة وظروف السياسة والسياسيين في العالم العربي على ملء فراغ الفكر السياسي، وهو الفراغ الذي تدور فيه النخب السياسية والقوى الحاكمة العربية، وتجر شعوب المنطقة بأسرها لتدور معها في هذا الفراغ المدمِّر)[٢٩].

ولا يخفى على المتأمل لنشأة القوميات المتتبع لحركة تغيرها الدورُ الايجابي لها في الغرب في جمع شتات الأمم المتفرقة بعد صراع الكنيسة والشعب وفوضى العصور الوسطى.

وحين حاول الأوربيون لفت أنظار شعوبهم عن الخلافات الداخلية بينهم بعد الثورة الفرنسية خاصة، وتأمين سوق خارج بلدانهم لتصريف إنتاجهم الصناعي بعد تأسيس الدول الحديثة، وتأمين مصادر الطاقة الأولية لتلك العملية الإنتاجية؛ لم يجدوا أمامهم أفضل من الشرق الأوسط، لكن هذا الشرق لم يكن متاحًا لهم بهذه السهولة لوجود دولة قوية تتحكم باقتصاده وتستمد من الإسلام قوة شرعيتها رغم تنوع الأعراق الموجودة في المجتمع الذي تقوده؛ لذلك بدؤوا بدراسةٍ تحليلية لطبيعة تكوين هذه المجتمعات، وعلموا أن أفضل طريقة لغايتهم هي توظيف العرقيات الموجودة توظيفًا سياسيًّا بحيث تطالب كل جماعة ذات عرق واحد بدولة خاصة بها مستقلة عن الخلافة، فبدأ العمل من مركز الخلافة يوم ظهرت فكرة القومية الطورانية في قلب الأناضول عاصمة الخلافة العثمانية التي بدأت بالتمييز بين الأتراك وأبناء الولايات التابعة لها على أساس عرقي.

وتبعا لظهور فكرة القومية التركية ظهرت الدعوات للقومية العربية ثم الكردية وغيرها، فتكونت القوميات ودعت أتباعها للانفصال عن دولة الخلافة بعد سيطرة الاتحاديين، وكانت النتيجة أن تفرق الكُرد بين أربع دول والعرب في ٢٢ دولة والمغرب بين عرب وبربر؛ فأدت هذه الخطوات إلى احتلالِ العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، وتأخيرِ حركة نهوضه وتقدمه، وتصنيفِه عالمًا ثالثًا متخلفًا، وزرعِ دولة جديدة بدواعٍ «قومية دينية» في قلب العالم الإسلامي اسمها دولة «إسرائيل».

إن واجب دعاة المسلمين وقادتهم اليوم أن يفضحوا دعاة القومية، ويبينوا أضرار العصبيات العرقية والإقليمية على الأمة، ويعملوا على إعادة الأمة إلى وحدتها الدينية لتتخلص من الذل والفرقة التي تعيشها أمة الإسلام.

(٢٩) جميل مطر، مستقبل العروبة، الهلال، يوليو ١٩٩٣م، عدد (٧).

المشروع الإيراني الصفوي في المنطقة العربية

الشيخ عباس شريفة
باحث في مؤسسة رؤية للثقافة والإعلام

مثَّلت الثورة الخمينية انقلابًا تامًّا في واقع الشعب الفارسي وتاريخه المعاصر، ولم تقتصر نتائج هذه الثورة على تغيير الحكم وشكل النظام الإيراني من ملكي إلى جمهوري فقط، بل طالت كينونة النظام من العلماني إلى الديني المذهبي -الجعفري الاثني عشري- وَفق تفسير سياسي يتجاوز قضية الإمام الغائب إلى نظرية سياسية معدلة هي نظرية الولي الفقيه، جاء ذلك في كتاب الخميني «الجمهورية الإسلامية» إذ نصت المادة الثانية من الدستور الإيراني على أن «الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، والمذهب هو المذهب الجعفري الاثنا عشري، وهذه المادة إلى الأبد غير قابلة للتغيير»[1].

إن المتتبع لمسيرة الثورة الخمينية يلحظ بشكل واضح اعتماد هذه الثورة على القوة الناعمة والخشنة معًا، وفي مقدمتها القوة الدينية والمذهبية والتاريخية والسلوك الطائفي في مخاطبة الشعوب العربية والإسلامية، وكشفت أدبيات هذه الثورة عن رغبة إيرانية واضحة في تمثيل المسلمين وحكم العالم الإسلامي وفق نظرية الولي الفقيه؛ فالعرب والترك سبق لهم أن قادوا العالم الإسلامي وحان دور الفرس في هذه المرحلة لتسنم مركز القيادة، وبذلك أعادت إيران أمل التطلع إلى السلطة للفئات الشيعية السياسية في المنطقة العربية وحركات إسلامية كانت في مرحلة صراع مع حكومات عربية قومية ويسارية حول صلاحية المرجعية الإسلامية لأنظمة الحكم، وخدعت كثيرًا من قيادات الحركات الإسلامية بخطاب الخميني الذي أظهر رغبة في الوحدة الإسلامية ونبذ الخلاف المذهبي بين المسلمين.

ورغم ذلك فقد أثار شعار تصدير الثورة خوفَ عدة دول عربية من تبعاتها على أنظمتها السياسية وتأثيرها السلبي على النسيج الاجتماعي العربي، وعزز هذا الخوف سعي إيران لاستقطاب الرموز الفكرية والدينية والنخب والطلاب، وتكوين مؤسسات متخصصة بهذا الشأن يشرف عليها المرشد الإيراني وتخضع لسلطته مباشرة وتعمل في المجالين المدني والعسكري، مهمتها نشر أفكار الثورة الإيرانية وشعاراتها مثل: مقاومة قوى الاستكبار والشيطان الأكبر، ومناصرة المظلومين، وتحرير فلسطين من اليهود.

ومن الملاحظ أنه بقدر ما شكل المشروع الإيراني عاملَ جذبٍ للحركات الشيعية العربية التي تدين للولي الفقيه من كحزب الله اللبناني وحركة أنصار الله اليمنية، ولبعض الحركات السنية مثل حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وبعض فروع وشخصيات الإخوان المسلمين؛ كانت نتائجه عكسية سلبية على علاقات إيران بالمجتمعات العربية وأنظمتها بعد انكشاف الوجه الطائفي لهذا المشروع الخطير[2].

لم تعد الاستراتيجية الإيرانية خفيَّةً رغم محاولاتِ إيران انتهاجَ سياسة مزدوجة ذات أبعاد متعددة؛ فطابعها الحداثي يقرُّ شكل

١ - عبد الحليم خدام، التحالف السوري الإيراني والمنطقة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص (٥٥).
٢ - إبراهيم عبد الكريم وآخرون، مشاريع التغيير في المنطقة العربية ومستقبلها، مركز دراسات الشرق الأوسط، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص (٤٤).

الدولة القطرية، وفي الوقت ذاته تعمل على استعادة الإمبراطورية الفارسية ومكانتها في المنطقة من خلال صناعة ميليشيات عسكرية شيعية داخل الدول، مهمَّتُها العمل للسيطرة على الحكومات مع الإبقاء على شكل الدولة الصُّوْريِّ، وإدارةُ الدولة بواسطة أذرع طائفية تدين بالولاء للولي الفقيه الإيراني، الأمر الذي سيؤهل إيران للاضطلاع بدور إقليمي ودولي، وقد طبقت هذه الاستراتيجية في لبنان والعراق واليمن، والعمل جارٍ عليها في سورية.

يقوم مشروع إيران الإيديولوجي على كون إيران دولة متفردة قادرة على طرح بديل جديد عن أنظمة الحكم المختلفة، لا يتبع للغرب الديمقراطي ولا للشرق الشيوعي، وفكرة هذا التفرد لم يستمدها الخميني من الفقه الشيعي بل هي دائمة الحضور في الثقافة الفارسية المستبطنة للتاريخ، المعتقدة بتفرد الحضارة الإيرانية الفارسية، وهنا تأتي فكرة التشيع الصفوي بصفتها معزِّزةً للعصبية الفارسية وفقًا للنظرية الخلدونية التي تعد العمران والحضارة نتيجة التزاوج بين العصبية والفكرة، والعصبية هنا هي العرق الفارسي الآري بتاريخه الحضاري القديم، والفكرة هي التشيع الصفوي بنموذجه المعدل المسمى «نظرية الولي الفقيه».

المبحث الأول: توصيف المشروع الإيراني

أولًا: النظريات المحدِّدة للمشروع الإيراني

نظرية الولي الفقيه:

(لو قام الشخص الحائز لهاتين الخصلتين «العلم بالقانون والعدالة» بتأسيس الحكومة، تثبت له الولاية ذاتها التي كانت ثابتة للرسول الأكرم (ص)، ويجب على جميع الناس إطاعته؛ فتوَهُّمُ أنَّ صلاحيات النبي (ص) في الحكم كانت أكثر من صلاحيات أمير المؤمنين (ع) وصلاحيات أمير المؤمنين (ع) أكثر من صلاحيات الفقيه هو توهُّمٌ خاطئ وباطل).

هذه الفقرة من كتاب «الحكومة الإسلامية» للخميني تدخل بنا مباشرة إلى ولاية الفقيه كما نظر إليها النراقي مستدلًا بأدلته مثل مقبولة عمر بن حنظلة وغيرها، معتمدًا على قواعده الفكرية واجتهاداته التي أرساها بعد أن نفاه إلى العراق الشاه محمد رضا بهلوي سنة ١٩٦٣م.

إذًا الأدلةُ التي تدل على وجوب الإمامة هي الأدلة ذاتها التي تدل على وجوب ولاية الفقيه عنده[٣] فهي أمور اعتبارية عقلانية توجد بالجعل والتبني والوضع الإنساني أيضًا[٤] وذلك كجعل القيِّم للصغار[٥] فالقيِّم على الأمة لا يختلف عن القيم على الصغار من ناحية الوظيفة[٦]، والفقهاء هم ورثة الأنبياء وأمناء الرسل[٧] وهم لم يرثوا العلم والحديث فقط كما هو ظاهر الروايات[٨] فالولاية قابلة للانتقال والتوريث أيضًا[٩].

وتعتقد الشيعة الاثنا عشرية المعاصرة أنَّ الولاية المطلقة للفقيه تجعل الفقيه ينتقل من الحكم الأوَّلي إلى الحكم الثانوي في فترة معينة لإحاطته بالفقه والمصالح الإسلامية، ويعتقدون أيضًا أنَّ الحكم الثانوي قد يكون من الأحكام الإلهية نتيجةً للتنصيب الإلهي العام للولي الفقيه[١٠]؛ فجعل الخميني لنفسه الولاية على الأمة بوصفه ممثلًا للنيابة عن الإمام المطلق في فترة غيبته الكبرى، ومن حقِّه بل واجبه التدخل في كل شؤون الدول الإسلامية لما يمثله من الولاية العامة على المسلمين.

وعارضَ نظريةَ الولي الفقيه بعضُ الشيعة في لبنان أو من يطلق عليهم «مدرسة جبل عامل» لا سيما محمد حسين النائيني القائل بولاية الأمة على نفسها، وسار على نهجه محمد مهدي شمس الدين ومحمد حسين فضل الله ثم محمد حسين الأمين وهاني فحص وغيرهما[١١].

نظرية أمِّ القرى:

نظرية أم القرى لصاحبها محمد جواد لارجاني هي استعارة من الاسم الذي يطلق على مكة المكرمة، قال تعالى: {وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الأنعام: ٩٢]، وقد قيل: (إن مكة سميت «أمّ القُرى» لتقدُّمها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها)[١٢]، فهل أراد لارجاني من ذلك قدسيةً ما لإيران، أم المركزية وتبعية من

٣ – الحكومة الإسلامية، الخميني، صادر عن مركز بقية الله الطبعة الثالثة، ص (١٠٩).
٤ – البيع، الخميني ص ٩٢، الحكومة الإسلامية له، ص (١٥٠ – ١٥١).
٥ – موقع سماحة آية الله مصباح اليزدي، نسخة محفوظة ٠٥ مارس ٢٠١٦ على موقع واي باك مشين.
٦ – القوة الناعمة في المنطقة العربية (السعودية، تركيا، إيران)، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، الطبعة الأولى ٢٠١٨، صفحة (٢٠٥).
٧ – تفسير الطبري، (١/ ١٠٨).

حولها لها، أم أراد الاثنين معًا؟

إن نظرية أم القرى -حسب هذا التصور- ترشح الجمهورية الإيرانية الشيعية بوصفها دولةً جمعت الشروط اللازمة لكي تصبح أم قرى العالم الإسلامي، وهي تعد نفسها بمنزلة «القلب المذهبي والدولة المركزية للعالم الشيعي والإسلام الصحيح»، ومن يمتلك القلب المذهبي الشيعي وفق الإمكانيات والموارد المتوفرة المتاحة لإيران اليوم ينبغي عليه السعي لتحقيق هدفه المذهبي النهائي، وهو التوسع لبناء الإمبراطورية الشيعية الموعودة لتكون نواة دولة المهدي الشيعي المنتظر الذي سينقذ العالم.

لا شك بأن إيران الدولة والثورة الخمينية تسعى للانتقال من فكرة أم القرى بإطارها النظري إلى بعدها الإجرائي، فمشروع «أم القرى» لن يتحقق إلا إذا تمت السيطرة على المجال الحيوي المطلوب، وبدونه لن تقوم دولة إيرانية مذهبية عظمى إقليميًّا، وقادة أم القرى في إيران يريدون توظيف الظروف والمتغيرات الإقليمية القائمة لتصبح من خلالها إيران قائدة للإقليم كله بما فيه من مصادر القوة الكامنة، وقد مهدت إيران لجمع (عقد أم القرى) بهدف إيجادِ مجالات داعمة لهذه القوة ولنظمِ عقدِ حباتها مذهبًا وجغرافيًّا؛ فالعالم الشيعي -بحكم هذه التطورات- يتجه لأن يصبح وحدة مذهبية شيعية وسياسية بعد أن يتحقق هدفه النهائي بتكوين الإمبراطورية الشيعية الموعودة[٨].

> " لإيران خطة عمل تسمى «الخطة الخمسينية»، تُنفَّذ خلال خمسين عامًا "

ثانيًا: الخطة الخمسينية

لإيران خطة عمل تسمى «الخطة الخمسينية»، تُنفَّذ خلال خمسين عامًا، وهي مقسمة على خمس مراحل:

الأولى: التأسيس ورعاية الجذور، وتعتمد على إيجاد تكتل صفوي في البلدان المستهدفة. الثانية: مرحلة البداية، وجوهر هذه المرحلة عنصران: أولهما شرعنة الوجود الإيراني في تلك الدول، والثاني الوقيعة بين حكومات هذه الدول وأهل السنة. الثالثة: مرحلة الانطلاق، وفيها توطَّدُ علاقات العملاء الإيرانيين بالأنظمة الحاكمة والمؤسسات الحكومية دون إظهار أنشطة دينية، ويزيد النفوذ الإيراني في الأجهزة الأمنية والحكومية، وكذلك التغول الاقتصادي. الرابعة: بداية قطف الثمار، وتعتمد على إحداث الوقيعة بين الحكام والشعوب بزعاماتها السنية، فعن طريق السيطرة الإيرانية على اقتصاديات الدولة يحدث الخلل الاقتصادي بين النظام والشعب، وهو ما يؤدي إلى سخط شعبي، يستغله العملاء الإيرانيون في الوصول إلى مواقع أكثر حيوية وشراء مزيد من الأراضي والمؤسسات والعقارات، بينما هم يقومون بمساندة النظام وحثِّ الناس على الهدوء.

الخامسة: مرحلة النضج، عند الوصول إلى هذه المرحلة يفترض وفق الخطة أن تكون الدولة قد فقدت عناصر قوتها، وهي الأمن والاقتصاد والهدوء، فيستغل العملاء الإيرانيون الفوضى والاضطرابات وانعدام الثقة بين الحكام والشعوب لطرح أنفسهم بصفتهم مُخلِّصين[٩].

ثالثًا: مرتكزات القوة للمشروع الإيراني

المرتكز الجغرافي:

تتمتع إيران بموقع استراتيجي مهمٍّ بجوار المنطقة العربية من جهة الشرق، وإن هذه الطبيعة والموقع الجغرافي واتصالها بضفتي الخليج العربي حقيقة ثابتة لا يمكن تجاوزها ولا الحد من نتائجها التي تكونت عبر التاريخ، فإيران اليوم حلقة وصل بين الشرق والغرب وممر مهمّ لحركة التجارة العالمية،

٨ - مقولات في الاستراتيجية الوطنية شرح نظرية أم القرى الشيعية، محمد جواد لارجاني، ترجمة نبيل عتوم، مركز العصر للدراسات الاستراتيجية والمستقبلية، لندن ص (٩- ١٠) طبعة ٢٠١٣م.

٩ - نشرت رابطة أهل السنة في إيران -مكتب لندن- هذه الخطة المضمَّنة في الرسالة السرية للغاية الموجهة من شورى الثورة الثقافية الإيرانية إلى المحافظين في الولايات الإيرانية، راجع كتاب الخطة الخمسينية وإسقاطاتها في مملكة البحرين، د. هادف الشمري ط٢، ١٤٢٩هـ، ص (١٨).

لكن هذه القيمة قد تضاءلت بعد فتح قناة السويس.

وهناك ثلاث دوائر جغرافية تشكل محط اهتمام إيران خارج حدودها: أ- دول القوقاز وبحر الخزر أو بحر قزوين وآسيا الوسطى، وتقع شمالي إيران. ب- منطقة الجزيرة العربية والخليج العربي، وتقع جنوب إيران. ج- المنطقة الواصلة بين إيران والبحر المتوسط، وتشمل: العراق وسورية ولبنان، وتكمن أهمية هذه المناطق في كونها تشكل الامتداد المذهبي لإيران؛ لوجود أقليات شيعية فيها، ولأهمية موقعها على معابر مائية مهمة، ولما تتمتع به من ثروات نفطية غنية.

المرتكز الديمغرافي:

يصل عدد سكان إيران إلى ٨٠ مليون نسمة، فهي تحتل المركز السابع عشر عالميًّا التاسع آسيويًّا من حيث عدد السكان، وتتكون إيران من مزيج قومي يبلغ ٣٠ قومية يشكل الفرس نسبة ٥٠٪ منها، ثم الأذريون الأتراك التتر، وتبلغ نسبتهم ٢٠ ٪، يليهم الأكراد ويشكلون نسبة ٩٪ من مجموع السكان، ثم العرب ويتركزون في إقليم عربستان –الأهواز/ خوزستان- والأقاليم المطلة على الخليج العربي[١٠]، وتتضارب المعلومات عن نسبة السنة في إيران، فهم في الإحصائيات شبه الرسمية ١٠٪، وفي المصادر السنية ٣٠٪، وفي المصادر المستقلة ١٥ ٪ - ٢٠ ٪ من سكان إيران[١١].

هذا التنوع العرقي والمذهبي في إيران عامل قوة وضعف في الوقت ذاته، فهو يهدد التماسك الداخلي بين مكونات الشعب الإيراني، وفي الوقت نفسه يشكل عامل تواصل وتمدد خارج الحدود؛ فتقوم إيران بتشجيع سكانها الشيعة على الهجرة للبلاد العربية والاستقرار فيها، وقد استقرت عوائل إيرانية كثيرة في الكويت والعراق والبحرين، وأصبحت هذه الأسر تمارس دورًا ثقافيًّا واقتصاديًّا كبيرًا في الدول التي استقرت فيها، وتنظم زيارات سنوية للدول العربية تحت غطاء زيارة الأماكن المقدسة الشيعية.

المرتكز التاريخي:

إن التاريخ الإيراني الطويل الغني المتعاقب على كثير من الدول والإمبراطوريات يدفع الإيرانيين دائما إلى التطلع خارج الحدود لبناء إيران الكبرى وريثة الحضارة الفارسية، هذا مع تركيز خاص على العرب بسبب الجوار الجغرافي والنفسية الثأرية الإيرانية تجاه العرب، فنهاية الإمبراطورية الفارسية كانت على أيدي العرب المسلمين، ويمكن رصد هذه النفسية الإيرانية المشحونة بعقد التاريخ من خلال الوقوف على تصريحات علي يونسي مساعد الرئيس الإيراني حسن روحاني ووزير الاستخبارات السابق حين وصف بغداد بأنها عاصمة إيران كما كانت في السابق، وكذلك تصريح رحيم صفوي مستشار المرشد عندما قال: إننا وصلنا إلى البحر المتوسط للمرة الثالثة[١٢]. وأيضًا تجد أخبار المهدي عندهم كثيرًا ما تركز على انتقامه من العرب وإعمال السيف فيهم، معبِّرةً تعبيرًا طبيعيًّا عما يعتلج في الذهنية الفارسية الرافضية من أوهام أو أحقاد.

> " النظام السياسي الإيراني من أعقد الأنظمة السياسية في العالم، فهو يجمع بين الدولة الثيوقراطية والنظام الديمقراطي الحديث "

المرتكز المذهبي:

وجدت إيران في التشيع ترسًا يحمي هويتها الثقافية والقومية ورمحًا تطعن به وقوسًا ترمي به سهامها ووسيلة تخترق بها الدول العربية والإسلامية، وما حصل من حروب صفوية عثمانية وما تفعله اليوم في العراق وسورية واليمن يظهر بوضوح مدى اعتماد السلطات الإيرانية على هذا المرتكز، فعلى الصعيد الداخلي تُعامِل الشيعي العربي الأهوازي من منطلق قومي عنصري، وتعامل السني الفارسي من منطلق طائفي، فهي ترى في الفكر الإسلامي السني مشروعَ تعريب، وترى في الفكر العربي عدوًّا تاريخيًّا وثقافيًّا؛ أمَّا معاملتها الخارجية فتتجه

١٠ - صباح الموسوي وآخرون، المشروع الإيراني في المنطقة العربية والإسلامية، مركز أمية للدراسات والبحوث الاستراتيجية، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية، ص (٥٥).
١١ - بختيار أحمد صالح، الأقليات الإيرانية... ثغرات تسمح بضرب الأمن القومي، صحيفة الشرق الأوسط ٦/ ٨/ ٢٠١٥/ العدد (١٣٤٠٠).
١٢ - موقع الجزيرة نت، إيران: المسار التاريخي، رابط المقال http://cutt.us/bZAue، تاريخ الاطلاع ٣٠/ ٦/ ٢٠١٩/.

إلى استغلال عواطف الشيعي العربي وربطه بإيران بخطاب طائفيٍّ لتحوِّله إلى خنجر إيراني في خاصرة بلده التي يسكنها[١٣].

رابعًا: الأدوات الناعمة للمشروع الإيراني

أولًا: الثقافة

نشطت إيران في المجال الثقافي والفني والأكاديمي، ووظفت حضورها في هذه الفضاءات لاختراق الإقليم العربي كلِّه، وعملت على استحداث المراكز الثقافية الإيرانية لتكون نقطة ارتكاز مباشرة لدعم الدبلوماسية الشعبية تعويضًا عن انسداد مجالات التواصل السياسي الفاعل خلال حقبة الحصار والعزلة الطويلة التي أعقبت الثورة الخمينية؛ لذلك عُدَّت إيران من أنشط دول العالم الثالث في الدبلوماسية الشعبية والاتصال بالمجتمع المدني.

ثانيًا: القيم السياسية

النظام السياسي الإيراني من أعقد الأنظمة السياسية في العالم، فهو يجمع بين الدولة الثيوقراطية والنظام الديمقراطي الحديث، علاوة على أنه يتكون من منظومة معقدة من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية التي تشارك وتؤثر في عملية اتخاذ القرار[١٤]، ومنذ قيام الثورة الخمينية لم يتداول منصب المرشد الأعلى للجمهورية الإيرانية سوى شخصين: الأول الخميني وبوفاته جاء خامنئي، وفي النظام السياسي الإيراني نجد ثنائية المحافظين والإصلاحيين التي تشبه ثنائية الديمقراطيين والجمهوريين في الولايات المتحدة مع الفارق الديمقراطي بين التجربتين.

ثالثًا: السياسة الخارجية

يرى عباس مالكي أن السياسة الإيرانية الخارجية مشغولة بثلاثة مستويات: الأول ضمان طريق النفط والغاز عبر طريق هرمز، والثاني تهيئة جميع السبل لدعم التنمية داخل إيران، والثالث الاستدارة شرقًا نحو الجمهوريات الإسلامية الوليدة لضخامة المصالح بينهما.

وتغاضت إيران عن المحرك العقدي تمامًا إلى درجة مخالفة الدستور لأجل مصالحها عندما وقفت مع دولة مسيحية مثل أرمينية ضد أخرى مسلمة شيعية مثل أذربيجان في الحرب التي جرت بين البلدين مطلع التسعينيات، وقامت بتسليح أرمينية وأيدت احتلالها لإقليم ناغورنيكا رابخ[١٥].

رابعًا: التشييع

تشكِّل إيران مركز الجاذبية للشيعة ليس على المستوى المذهبي فقط بل على المستوى السياسي أيضًا؛ فالسياسة والدين متمثلان في الولي الفقيه المرشد الأعلى الذي يمتلك قوة ناعمة هائلة بحكم الموقعَيْن لدى أتباعه المنتشرين داخل إيران وخارجها، وهم يقومون طوعًا بخدمة مصالح الدولة الإيرانية نظرًا لطبيعة العلاقة الدينية التي تربطهم بتبعية الولي الفقيه؛ وذلك لارتباط الديني بالسياسي بشكل وثيق نظرًا لكون الأخير قائدًا سياسيًّا لإيران إلى جانب كونه مرجعًا دينيًّا.

وتعمل إيران على نشر فهمها للنموذج الشيعي المتمثل بولاية الفقيه (تشيع قومي فارسي) حول العالم، وتُعلي من شأن «قم» بصفتها إطارًا مرجعيًّا مقابل «النجف» لتخريج أئمة موالين لها يعملون سفراء لقوتها الناعمة، وينشرون رسائل إيران الدينية والثورية والإعلامية والثقافية والسياسية.

وعلى عكس الأداة الثقافية فإن أداة التبشير الشيعيِّ تركز على الخليج العربي الذي يحتل الأولوية في الاستراتيجية الإيرانية العشرينية «إيران ٢٠٢٥»، وساعد ذلك على تقوية موقع «قم» في اجتذاب أبناء المنطقة، ويبدو ذلك واضحًا في تركيبة البيت الشيعي اللبناني الذي تحول جزء كبير منه من مرجعية النجف إلى «قم» خلال أقل من عقدين، ناهيك عن أن عدد الطلاب العرب الذاهبين إلى «قم» ازداد مقارنة بما كان عليه سابقًا؛ فعدد البحرينيين في «قم» مثلًا زاد عن نظيره في النجف بخمسة أضعاف تقريبًا عام ٢٠٠٩م.

وتسعى طهران لتوحيد الأقليات الشيعية تحت رايتها أينما وُجدت، وتستخدم لنشر التشيع في بيئات أخرى كل ما يساعدها على توسيع نفوذها من المصطلحات كالوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي والتسامح والحوار؛ فينعكس مكسبًا سياسيًّا لها[١٦].

١٣ – إيران تلعب على وتر مظلومية الأقلية، ٢٣ يناير ٢٠١٦م، تم الاطلاع في ٣٠/ ٦/ ٢٠١٩ / رابط المقال http://cutt.us/QPKBM

١٤ – الدستور الإيراني.

١٥ – القوة الناعمة في المنطقة العربية، دراسة صادرة عن مركز التفكير الاستراتيجي، مجموعة من الباحثين، صفحة ٢١٤ .

١٦ – مركز الجزيرة للدراسات، علي حسين باكير ١٧ أبريل ٢٠١٣، الرابط http://cutt.us/zmp6Z

خامسًا: المتاجرة بالقضية الفلسطينية

لا يمكن إنكار ما تقدمه إيران من دعم للقضية الفلسطينية بغض النظر عن المكانة التي تبحث عنها إيران من خلال تقديم هذا الدعم، وتنوع هذا الدعم بين الدعم المادي والمعنوي والرسمي والشعبي، ورغم ذلك كشف استطلاعُ رأيٍ للنخبة العربية أجراه مركز الجزيرة للدراسات أنَّ أغلبية العيِّنة ترى أن إيران تستغلُّ القضية الفلسطينية ولم يعد لحديثها عن فلسطين أي مصداقية، فقد وافق ٨٨ ٪ منها على أن إيران تستغل القضية الفلسطينية لتعزيز نفوذها في العالم العربي وعارض ١٢ ٪ هذه الفرضيةَ[١٧].

وتمتلك إيران إمبراطورية ضخمة من الشبكات الإعلامية التي تخاطب العالم العربي عبر قنوات فضائية وصحافة وإعلاميين ورموز ثقافية، وتعتمد أيضًا على المراكز الثقافية والملحقيات الثقافية.

خامسًا: القوة الصلبة الإيرانية في المنطقة العربية

تعتمد إيران في قوتها الصلبة على شبكة كبيرة من الخلايا والمليشيات الشيعية الطائفية، فهي تأتمر بأمر الولي الفقيه الإيراني وتشكل حالة مسلحة خارج سيطرة الدولة، وأحيانا تتحول هذه المليشيات إلى قوة مسيطرة حتى على الدولة نفسها، وتتم شرعنة وجود مثل هذه المليشيات بحجة محاربة الإرهاب تارةً وبحجة المقاومة والممانعة تارة أخرى، وأهم هذه الأذرع الإيرانية في المنطقة العربية:

حزب الله الشيعي اللبناني:

تأسس حزب الله عام ١٩٨٢ نتيجة انشقاق التيار الخميني في حركة أمل الشيعية إثر انضمام الأخيرة إلى جبهة الإنقاذ اللبنانية الوطنية، التي تضم مختلف القوى السياسية اللبنانية التي رفضتها إيران حينذاك؛ لذلك قرر الخمينيون في الحركة الانشقاق وتأسيس الحزب، ففي بيان صادر عن الحزب في ١٦ / شباط/ ١٩٨٥م أن الحزب «ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه، وتتجسد في روح الله آية الله الموسوي الخميني مفجر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة».

إذًا إنَّ حزب الله مؤسسة عسكرية أمنية سياسية دينية من المؤسسات الإيرانية في لبنان، وعين مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي كلًّا من «حسن نصر الله» الأمين العام للحزب والشيخ «محمد يزبك» عضو شورى حزب الله والمدرس في حوزة الإمام المنتظر في بعلبك وكيلَيْنِ شرعيين لمرشد الثورة الإسلامية في لبنان، وهناك عشرات الخطابات للأمين العام للحزب حسن نصر الله يقر فيها بأنه جندي صغير في جيش ولاية الفقيه علي خامنئي، ومن أهمها قوله: «إن رواتب حزب الله وصواريخه ومصروفاته كلها مصدرها الجمهورية الإسلامية، وما دام هناك أموال في إيران فنحن عندنا أموال»[١٨].

> " يُعد الوصول إلى مياه المتوسط حلمًا تاريخيًّا كبيرًا يشغل القيادة الإيرانية منذ عصور "

ميليشيا الحوثي:

تأسست الميليشيا تحت اسم «جماعة أنصار الله» عام ١٩٩٢، وبدأت نشاطًا عسكريًّا مسلحًا منذ عام ٢٠٠٤ بالدخول في ستة حروب ضد الجيش اليمني حتى عام ٢٠١٠؛ ووجدت إيران في الحوثيين منذ زمن بعيد أداة قوية لتنفيذ مشروعها في اليمن، فأمدتهم بالسلاح حتى استطاعوا استغلال الوضع الأمني الهش عام ٢٠١٤م، وانقلبوا على السلطة الشرعية المنتخبة لتدخل البلاد في دوامة من العنف.

١٧ – إيران في ميزان النخبة العربية، http://bit.ly/2UVBrwu

١٨ – مؤسسات النفوذ الإيرانية في سورية، حسام السعد وطلال المصطفى https://harmoon.org/archives/8432-12744/

الميلشيات الشيعية في العراق:

ويأتي على رأسها قوات الدفاع الشعبي وعصائب أهل الحق وسرايا السلام وكتائب بدر، وقد شاركت جميعها في الحرب بسورية، و«الدفاع الشعبي» هي البذرة التي خرجت من نواة كتائب حزب الله، وتنتشر الآن في مدينتي بغداد وديالَى، وتعتمد عليها الحكومة العراقية اعتمادًا كبيرًا؛ أمَّا «عصائب أهل الحق» فهي الوكيل الرسمي لتصدير الإرهاب الإيراني إلى العراق، وهي التي أعلن زعيمها الشيخ قيس الخزعلي الانفصال عن رجل الدين الشيعي البارز مقتدى الصدر؛ وأما «سرايا السلام» فهي التي تتبع رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر، وتُسمَّى الآن بالتيار الصدري، وتنتشر في جميع أنحاء العراق بدءًا من مدينة سامراء إلى قرية آمرلي، وصولًا إلى مدينة جرف الصخر وديالَى في الشرق، وأمَّا «منظمة بدر» فهي جماعة مسلحة تحظى بدعم طهران لتطوير الميليشيات الشيعية، وتشارك في القتال بسورية حيث أسست قوة «الشهيد باقر الصدر»، وتتجه الحكومة العراقية إلى دمج هذه المليشيات داخل الجيش العراقي ليصبح وجود هذه الأذرع رسميًّا في الحكومة العراقية.

الميليشيات الشيعية في سورية:

سيأتي الحديث عنها في العنوان اللاحق ضمن توصيف المشروع الإيراني في سوريا.

سادسًا: المشروع الإيراني في سورية

يُعد الوصول إلى مياه المتوسط حلمًا تاريخيًّا كبيرًا يشغل القيادة الإيرانية منذ عصور، ولم يتبدل هذا الهدف حتى في ظل حكم الولي الفقيه الإيراني، ولتحقيق هذا الحلم ابتدعت إيران وسائل استراتيجية خطيرة، فلم يتوقف المشروع الإيراني في سورية على التدخل العسكري ضد الثورة السورية دعمًا لنظام الأسد بل امتد الأمر إلى التغلغل الإيراني في مؤسسات الدولة والجيش والمخابرات والسيطرة على الاقتصاد، هذا إضافة إلى مشاريع ثقافية وفتح مراكز التشييع في بعض المحافظات السورية، وقد بلغ حجم ما ضخته إيران في سورية من أموال في سبيل مشروعها ٤٠ مليار دولار تقريبًا.

يؤكد قائد الحرس الثوري الإيراني محمد علي جعفري أن :»هناك نحو ٢٠٠ ألف مقاتل يرتبطون بالحرس الثوري في عدة دول بالمنطقة منها سورية»؛ وذلك للتعبير عن خطة لتعزيز الوجود الإيراني في مناطق مختلفة من سورية أبرزها منطقة الفرات ومدينة البوكمال ودير الزور شرقًا، وحلب والغوطة الشرقية بدمشق، ومحافظتي درعا والسويداء، وتتضمن خطة الانتشار الإيرانية الجديدة في سورية عدة محاور أبرزها:

١- بسط السيطرة على ميناء اللاذقية، الذي سيشكل مصبًّا للطريق البرية الواصلة بين إيران وسورية عبر العراق.

٢- إنشاء وحدة قوات خاصة في الجولان، فتولى «حزب الله» تشكيل نواة تلك القوة وتزويدها بالقدرات اللازمة وامتلاكها أدوات التصعيد والتهدئة مع إسرائيل.

٣- بسط السيطرة على مطار دمشق الدولي بحيث تسيطر إيران على أهم منفذ بحري وجوي في سورية.

٤- الهيمنة على قاعدة «الناصرية» الجوية الواقعة على مسافة ١٠ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة «جيرود» في منطقة القلمون الشرقي لاستخدامها في أغراض عسكرية سرية تخص صناعة الصواريخ.

٥- الاستحواذ على حصة من موارد سورية النفطية، فقد أكد يحيى رحيم صفوي المستشار العسكري لعلي خامنئي أن سورية مستعدة لسداد ديونها لإيران من مواردها النفطية والغازية والفوسفات.

٦- نصب منصات صاروخية في المناطق الحدودية بين سورية والعراق، وتحدثت مصادر إيرانية عن تزويد الميلشيات العراقية بقدرات صاروخية لردع الهجمات التي يمكن أن تستهدف مصالحها.

٧- السيطرة على المعابر الحدودية بين سورية والعراق بنشر ميلشيات الحشد الشعبي عليها.

٨- إنشاء ضاحية «شيعية» في دمشق على شاكلة بيروت، وتم الكشف عن شراء الحكومة الإيرانية مساحات كبيرة من الأراضي والمباني حول العاصمة السورية لتنفيذ مشروع إسكان «شيعي» ضخم بات يعرف «بحزام دمشق».

٩- تعزيز التبادل التجاري مع سورية، وذلك من خلال إنجاز ١٨ اتفاقية تعاون ثنائي قيد العمل في مختلف المجالات التجارية، وتتضمن إدراج ٨٨ مجموعة سلعية ضمن قائمة التبادل التجاري بين إيران وحكومة النظام وتصفير التسعيرة التجارية بين سورية وإيران[١٩]

١٠- تغيير الهوية الثقافية للمجتمع السوري من خلال فتح عشرات مراكز التشييع وشراء ولاءات زعماء العشائر وبعض الوجوه الاجتماعية، ولتحقيق ذلك بدأت إيران توظف المقامات الشيعية في سورية كمقام عمار بن ياسر والسيدة سكينة ومشهد الحسين...، ومؤسسات التعليم الثانوي والعالي الشيعي الشرعي، والحسينيات، والحوزات العلمية المنتشرة حديثًا في سورية، وكذلك الجمعيات الخيرية والهيئات الشيعية[٢٠].

المبحث الثاني: استراتيجية مواجهة المشروع الإيراني

يجب التأكيد على عدد من المبادئ الأساسية التي يجب أن تكوِّن محورًا ثابتًا راسخًا في أذهاننا خلال تتبع الخطوط العامة للسياسة التي نقترحها في مواجهة المشروع الإيراني في الوطن العربي، الذي يطال الشعوب بالدرجة الأولى، من هذه المبادئ:

أ- الحفاظ على وحدة وتماسك النسيج الداخلي للدولة والشعب في الوطن العربي، فالاستقرار الداخلي والاجتماعي ضمن الإطار الأعمّ لهوية المنطقة العربية الإسلامية شرط أساسي في نجاح تطبيق سياسة مواجهة المشروع الإيراني التفتيتي.

ب- ضرورة مواجهة الدعاية التي تقوم إيران بترويجها الآن وهي اتهامها كل من يعارض مشاريعها التدميرية بالعمالة للمشروع الأمريكي الصهيوني، بينما يؤكد الواقع على حقيقةِ تكامل المشروع الإيراني مع المشروعين الأمريكي والإسرائيلي، واتفاقهما في الوسائل والأهداف.

ج- يجب أن نعلم أنّ إيران ستعمد إلى التظاهر بالتراجع بغية تنفيس الاحتقان ضدّها كلما اضطرت إلى ذلك، لكن هذا لا يعني أنّها تراجعت عن مشروعها، فهناك فرق كبير جدًّا بين تغيير الهدف وتغيير الأسلوب.

د- سنجد إيران وأجراءها يتهمون كل من يعارض مشروعهم بإثارة الفتنة الطائفية، وسنسمع من وقت إلى آخر دندنة حول الوحدة الإسلامية والحوار والتعايش والتسامح ومصطلحات أخرى من هذا القبيل؛ فلنوقنْ أنها مناورة إيرانية أثبتت الوقائع أنها محاولة منها لرمي غيرها بدائها.

خطوات عملية في مواجهة المشروع الإيراني[٢١]

إن مواجهة المشروع الإيراني لا يعني بالضرورة الانزلاق إلى المشروع الصهيوني أو مشروع الثورة المضادة، فيجب التركيز على أنَّ مواجهة المشروع الإيراني لا تعني تناسي أو تجاهل مواجهة المشاريع الأخرى الموازية أو المكمِّلة للمشروع الإيراني الصفوي، وأهمها المشروع الصهيوني ومشروع الثورة المضادة. ولمواجهة المشروع الإيراني خطوات عملية أبرزها:

1- دعم الثورة السورية:

استطاعت الثورة السورية وبإمكانيات بسيطة إلحاق الهزيمة بالمليشيات الإيرانية الطائفية في سورية، ولولا تخاذل العالم والتدخل الروسي في سورية لكانت إيران اليوم ترفع الراية البيضاء وتجر أذيال الهزيمة منكفئة على نفسها؛ فعلى الدول العربية والإسلامية التي تعاني من التدخل الإيراني في دول المنطقة أن تدعم الشعوب التي تواجه المشروع الإيراني في بلداننا، فلها دور مهم في مواجهة الغدر الإيراني لا يقل عن أهمية التنسيق السياسي والعسكري بين دول المنطقة.

2- عدم تعميم الأحكام على الشيعة:

الحرص على عدم جمع الشيعة في سلة واحدة يزيد من النِّديَّة للمشروع الإيراني، ففي الآونة الأخيرة ظهرت حالة تململ

١٩ - التقرير الاستراتيجي السوري، العدد رقم ٦٦ – الصادر في ٢١ مارس ٢٠١٩، شؤون أمنية.
٢٠ - موقع جيرون https://:net.geiroon/archives/117632
٢١ - انظر في ذلك (كيف نواجه المشروع الإيراني بـ ١٣ خطوة)، علي حسين باكير، مجلة الراصد ٢٠٠٧م.

من المشروع الإيراني في بعض أوساط الشيعة العرب غير الموالين «للولي الفقيه»؛ وذلك لأسباب مختلفة منها الاستعلاء القومي[٢٢] عبر اختراق المرجعية العربية وتنصيب إيرانيين عليها يدَّعون عدم موافقتهم على مبدأ الولي الفقيه لكنهم ينفذون أجندة إيران السياسية والطائفية والمصلحية بامتياز وآية الله الإيراني السيستاني مثال صريح على ذلك؛ ومنها تضارب المصالح، فلا بدَّ أن نأخذ بعين الاعتبار وجود حد معين من تضارب المصالح فيما يتعلَّق بالمرجعيّة فإيران تسعى إلى نقل الثقل الأساسي للمرجعية الشيعية من مدرسة «النجف» التاريخية إلى مدرسة «قم»، لتكرِّس إيران نفسها مرجعًا أساسيًّا لشيعة العالم.

> " إن التركيز على التناقضات الإيرانية في المواقف ونفاقها في مختلف الملفات الإقليمية وعرضها في إطار مشروعها له أهمية كبيرة في مواجهة الخداع الإيراني لشعوب المنطقة "

ومن الأسماء التي بدأت تُظهر تململها من الاستحكام الإيراني الشيخ محمد الحاج حسن منسقُ التيار الشيعي الحر الذي سرَّب حزب الله فتاوى إهدار دمه مؤخرًا، والشيخ صبحي الطفيلي ورغم أنَّه لم ينضم بعد إلى التيار إلا أنه يبقى الأمين العام الأول لحزب الله وله مكانة خاصة في صفوف الشيعة، وهو يؤكد أنّ إيران عميلة للمشروع الأمريكي الإسرائيلي ومشاركة معه في العراق وأفغانستان وسورية، ومثلهما الشيخ حسين المؤيد فمن أجرأ ما أدلى به تصريحه بأنَّ إيران أخطر على العرب من إسرائيل.

3- التركيز على العلاقة الإيرانية الإسرائيلية:

يجب عرض الأهداف الإيرانية التي تريد تحقيقها في المنطقة ومقارنتها بشكل دائم بأهداف المشروع الصهيوني؛ كي يستطيع القارئ الربط بشكل آلي فوري وسيكون هذا سهلًا جدًّا خاصَّة أنّ أهداف المشروعين واحدة تقريبًا وبما أنّ الأحداث تتمحور حاليًا حول العراق فلا بد من التركيز على تلاقي دور الصهاينة والصفويين في تدمير العراق وتدمير سورية، وقد رحبت إسرائيل بالتدخل الإيراني لمساعدة النظام بداية الثورة السورية.

4- فضح التلاعب الإيراني:

إن التركيز على التناقضات الإيرانية في المواقف ونفاقها في مختلف الملفات الإقليمية وعرضها في إطار مشروعها له أهمية كبيرة في مواجهة الخداع الإيراني لشعوب المنطقة، فإيران ذات وجهين ولا يقتصر تناقضها على توزُّعِهِ بشكل متعمد وماكر بين ما يسمى إصلاحيين ومحافظين بل تعداه ليصبح تناقضًا داخل كل واحد منهما، وإليك هذين المثالين:

اشتهر أحمدي نجاد بتصريحاته الشهيرة عن ضرورة إزالة إسرائيل عن الخريطة و تدميرها ثمَّ أطلق تصريحه الشهير الآخر في ٢٦ -آب - ٢٠٠٦ بمناسبة افتتاح مصنع إنتاج الماء الثقيل في «آراك» قائلًا: «إيران لا تشكّل خطرًا على الغرب ولا حتى على إسرائيل»، فهذه التصريحات توضح السياق الإعلامي الذي تندرج تحته تصريحات إيران ضد الغرب وإسرائيل.

وأعاد الإيرانيون تطمين الغرب في ١١ - شباط - ٢٠٠٧ فقال لاريجاني: (برنامج إيران النووي لا يمثل تهديدًا لإسرائيل وبلاده مستعدة لتسوية جميع الأمور العالقة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية خلال ثلاثة أسابيع...، وكل ما يرد بشأن رغبة إيران في تهديد إسرائيل هو كلام خاطئ).

٢٢ - راجع في هذا كتاب علي شريعتي: التشيع العلوي والتشيع الصفوي.

5- كشف أدوات إيران ووسائل اختراقها للمنطقة:

ينبغي العمل على ذلك من الناحية البشرية والمادية والمذهبية والاجتماعية، وتحديد حلفاء إيران في البلدان العربية، وتحديد طرق وأساليب التعامل معهم من خلال إثارة نقاشات فكرية علمية لنقل الصورة الحقيقية عن إيران وعن سلبية التبعية لها، واستخدام الوسائل والأساليب والأدوات المناسبة في مخاطبة الجمهور من العامة والخاصة فيما يتعلق بالخطر الإيراني، فلكل فئة مستهدفة طريقة خاصة بالتفكير أو الاستجابة للخطاب الموجَّه إليهم؛ فمنهم من يستجيب للمحاجَّات العقلية والمنطقية، ومنهم من يتأثر بالمحاجَّات الشرعية الدينية، ومنهم يصغي للمحاجَّات التاريخية، ومنهم تقنعه الوقائع والأحداث والصور البصرية؛ وعليه فلا يجوز استخدام أسلوب واحد جامد خشبي في مخاطبة كل هذه الفئات وكأنَّها عقل واحد.

6- توظيف الأوضاع الراهنة:

توظيف الأوضاع والتطورات الراهنة والتعامل معها بشكل ذكي لكشف المشروع الإيراني ومحاصرته والضغط عليه، ومن ذلك تسليط الضوء على تلقي إيران لضربات إسرائيلية متكررة في سورية واكتفائها بالصمت المطبق، وهي التي لطالما تبجحت برفع شعار المقاومة والممانعة.

7- إنشاء مراكز مراقبة وأبحاث:

إنشاء مركز أبحاث جامع هدفه دراسة ورصد السياسات التوسعية الإيرانية تجاه المنطقة، وتقديم الاقتراحات بشأن سبل معالجتها أو مواجهتها والاهتمام برعاية باحثين وإعلاميين عرب، ودفعهم إلى إتقان اللغة الفارسية لما لها من أهمية في تناول ونقل وتحليل ونقد وكشف الأخبار والوثائق الإيرانية المكتوبة بالفارسية التي يستعصي على كثيرين منَّا فهمها أو ترجمتها.

8- فضح العلاقة بين التنظيمات الإرهابية وإيران:

كثيرًا ما تستتر إيران وهي تنجز مشروعها الطائفي وتمارس الإرهاب بشعار محاربة الإرهاب، ولا بد هنا من الإشارة إلى العلاقة الوثيقة التي تجمع بين إيران وتنظيم القاعدة الذي يقطن عدد من قياداته في إيران؛ ففي خطاب عام ٢٠٠٧ بعنوان «خطاب إلى كارم» يقدم ابن لادن المسوِّغاتِ التي تستوجب عدم الهجوم على إيران قائلًا: (إيران هي شريانا الرئيس الذي يمدنا بالأموال والرجال وقنوات الاتصال، ولا يوجد ما يستوجب الحرب مع إيران إلا إذا اضطررت إلى ذلك). وينهَى بن لادن بقوة عن أي هجوم ضد إيران، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيحض عناصر التنظيم على طلب المشورة أو الإذن في أي مواجهة مع إيران.

والخطاب الذي أرسله الظواهري لأبي مصعب الزرقاوي -الذي كان يومئذٍ قائدًا للقاعدة في العراق- يطلب منه عدم التعرض للشيعة والإيرانيين، نظرًا لوجود أكثر من ١٠٠ من أعضاء القاعدة تحت قبضة النظام الإيراني، وفي خطاب لأبي محمد العدناني الناطق باسم تنظيم الدولة أكد أن عدم تعرضهم لإيران كان بتوجيه من الشيخ الظواهري؛ ولا تخفى الخيرات التي جنتها إيران من تنظيم القاعدة وفروعه في العراق وسورية خصوصًا وفي مجمل المنطقة العربية والإسلامية عمومًا.

خاتمة

إن المشروع الإيراني مشروع منظم طويل الأمد، يقوم على الإرهاب والدم فضلًا عن الوسائل الناعمة الدينية والثقافية، وإن مواجهته تقتضي إدراكًا حقيقيًّا لامتداداته وتوقعًا حصيفًا لخطواته المستقبلية، فالمواجهة الفوضوية له لا تفضي إلا إلى تمدده وتوسعه، وهذا يستدعي منَّا دراساتٍ منهجيةً حقيقية توصِّفُ أصول المشروع الإيراني وفروعَه للعمل على مواجهتها بأناةٍ وصبر وحكمة.

القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي تؤخذ منه مبادئ التربية وتستمد منه القيم في الإسلام، فقد أولى القرآنُ السلوكَ البشري عنايةً خاصَّة، وبيّن أن ثمرة العبادات هي أن يرتقي الإنسان بسلوكه وأخلاقه، وفي القصص والأخبار التي أوردها الله -عزَّ وجلَّ- عن الأنبياء والأمم السابقة ما يوضِّح سنن الله -عزَّ وجلَّ- في الإنسان، فهي تغرس فيه القيم الراقية وتحمل في أحداثها مضامين تربوية سامية.

كل هذا يدعونا إلى أن نتدبر معاني سور وآيات كتاب الله عز وجل، وأن نعمل عقولنا في استنباط ما تحمله من مضامين تربوية ومبادئ أخلاقية وقيم فاضلة؛ ومن هنا جاءت هذه الدراسة التحليلية لسورة يس في فصلين، أستخلص فيهما ما تدل عليه السورة من مضامين تربوية وقيم أخلاقية ترقى بالمجتمع والإنسان.

الفصل الأول: التعريف بسورة يس ومواضيعها

والفصل الثاني: المضامين التربوية في سورة يس.

الفصل الأول: التعريف بسورة يس ومواضيعها

المبحث الأول: التعريف بالسورة

تسمية السورة

يقول ابن عاشور: «سمّيت هذه السّورة يس بمسمّى الحرفين الواقعين في أوّلها في رسم المصحف لأنّها انفردت بهما فكانا مميّزين لها عن بقيّة السّور، فصار منطوقهما علمًا عليها، وكذلك ورد اسمها عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم، روى أبو داود عن معقل بن يسارٍ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ((اقرأوا يس على موتاكم))، وبهذا الاسم عنون البخاريّ والتِّرمذيُّ في كتابي التَّفسير، ودعاها بعض السَّلف «قلب القرآن» لوصفها بذلك في قول النّبي صلّى الله عليه وسلّم: ((إنّ لكلّ شيءٍ قلبًا، وقلب القرآن يس))، رواه التّرمذيّ عن أنسٍ، وهي تسميةٌ غير مشهورةٍ».

وهي مكّيّةٌ، حكى ابن عطيّة الاتّفاق على ذلك وقال: «إلّا أنّ فرقةً قالت: قوله تعالى: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقال لهم: ((دياركم تكتب آثاركم))، وليس الأمر كذلك، وإنّما نزلت الآية بمكّة، ولكنّها احتجّ بها عليهم في المدينة»[1].

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج٢٢ ص ٣٤٢، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤).

فضل السورة

بيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- فضل سور القرآن الكريم في أحاديث كثيرة دفعت بعض العلماء السابقين إلى تصنيف مؤلفات في فضائل القرآن الكريم مثل فضائل القرآن للقاسم بن سلام[٢]،وفضائل القرآن لابن الضريس[٣]، وفضائل القرآن للفريابي[٤]، وفضائل القرآن للنسائي[٥]، وفضائل القرآن للمستغفري[٦]، وفضائل القرآن وتلاوته للرازي[٧]، وفضائل القرآن لابن كثير[٨]، ذكروا فيها ما يتعلق بسور القرآن الكريم من فضائل في نزوله وتلاوته وفضله على غيره وتجويد التلاوة وتحسين الصوت فيه، كما ذكروا ما ورد من أخبار في فضل بعض السور ومنها سورة يس، إلا أن هذه الأخبار في مجملها ضعيفة، وبعضها مكذوب على النبي صلى الله عيه وسلم، وفيما يلي نعرض نموذجين من هذه الأخبار مع بيان درجتهما:

> ((مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله غفر له)).
>
> رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ

الأول: ((سُورَةُ يس تُدْعَى فِي التَّوْرَاةِ الْمُعِمَّةُ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا الْمُعِمَّةُ؟ قَالَ: تَعُمُّ صَاحِبَهَا بخير الدنيا والآخرة، وتكايد عَنْهُ بَلْوَى الدُّنْيَا، وَتَدْفَعُ أَهَاوِيلَ الآخرة)). رواه الخطيب عن أنس مرفوعًا، وهو موضوع. اتهم بوضعه محمد ابن عبد بن عامر السمرقندي، ورواه العقيلي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعًا، وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرحمن بن أبي بكر الجدعاني، وهو متروك، وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ من طريقه، وفي إسناده مجاهيل وضعفاء[٩].

الثاني: ((مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله غفر له)). رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا، وإسناده على شرط الصحيح، وأخرجه أبو نعيم والخطيب، فلا وجه لذكره في كتب الموضوعات[١٠]، وهناك مجموعة أخرى من الأحاديث التي ترتقي عن الضعيف بقليل، ولا بد من مراجعتها ودراسة متونها وأسانيدها.

المبحث الثاني: موضوعات السورة

الموضوعات الإيمانية

«قامت السّورة على تقرير أمّهات أصول الدّين على أبلغ وجهٍ وأتمّه من إثبات الرسالة والوحي ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القدر وعلم اللهّ، والحشر والتّوحيد وشكر المنعم، وهذه أصول الطّاعة بالاعتقاد والعمل ومنها تتفرّع الشّريعة، وإثبات الجزاء على الخير والشّرّ مع إدماج الأدلّة من الآفاق والأنفس بتفنُّنٍ عجيبٍ، فكانت هذه السّورة جديرةً بأن تسمَّى «قلب القرآن» لأنّ من تقاسيمها تتشعَّب شرايين القرآن كلِّه، وإلى وتينها ينصبُّ مجراها»[١١].

«الموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها: {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)

(٢) هو أبو عُبيد القاسم بن سلاَّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ).
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس بن يسار الضريس البجلي الرازي (المتوفى: ٢٩٤هـ).
(٤) هو أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابي (المتوفى: ٣٠١هـ).
(٥) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).
(٦) هو أَبُو العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ المُعْتَزِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ المُسْتَغْفِرِ بنِ الفَتْحِ بنِ إِدْرِيْسَ المُسْتَغْفِرِيُّ، النَّسَفِيُّ (المتوفى: ٤٣٢هـ).
(٧) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي المقرىء (المتوفى: ٤٥٤هـ).
(٨) هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ).
(٩) الفوائد المجموعة، باب فضائل القرآن، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ج١ ص٣٠٠، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
(١٠) المصدر السابق (ج١ ص٣٠٢).
(١١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (ج٢٢ ص ٣٤٤).

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}.

وإنَّ قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}.

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية، فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ}.

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة: تجيء في أولها {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}، وتأتي في قصة أصحاب القرية فيما وقع للرجل المؤمن، وقد كان جزاؤها العاجل في السياق: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ،} ثم ترد في وسط السورة: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}، ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة، وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}.

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها تتكرر في السور المكية، ولكنها تُعرض في كل مرة من زاوية معينة تحت ضوء معين مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها»[١٢].

الموضوعات التربوية

تعرض السورة جملة من الموضوعات التربوية على مستوى الفرد في الجانب الإيماني والسلوكي، كما تعرض جملة من الموضوعات التربوية الاجتماعية، فتعالج بعض الظواهر الاجتماعية كظاهرة التطير {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}، قال القرطبي: (قالُوا لَهُمْ {إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ} أَيْ تَشَاءَمْنَا بِكُمْ، فقالت الرسل: {طائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أَيْ حَظُّكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعَكُمْ وَلَازِمٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ شُؤْمِنَا، قَالَ مَعْنَاهُ الضَّحَّاكُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَعْمَالُكُمْ مَعَكُمْ، وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ الْأَرْزَاقُ وَالْأَقْدَارُ تَتْبَعُكُمْ، وقال الْفَرَّاءُ: «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» رِزْقُكُمْ وَعَمَلُكُمْ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ)[١٣].

وتتناول ظاهرة اجتماعية خطيرة، وهي عموم البلاء عند عموم الفساد، قال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}، فقد كان هذا نتيجة للعناد والاستكبار الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}.

ومما تقدم يمكننا أن نلخّص موضوعات سورة يس بأنها موضوعات السور المكية التي تتناول قضايا العقيدة الإسلامية حول الإيمان بالله عز وجل والإيمان بالنشر والحشر ويوم القيامة، والموضوعات التي تكوّن شخصية المسلم من الناحية الفكرية والسلوكية، وتوضح بعض معالم المجتمع الإسلامي من خلال معالجة بعض المشكلات والظواهر.

(١٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ج ٥ ص ٢٩٥٥، دار الشروق – القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، سنة ١٤١٢هـ.

(١٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج ١٥، ص١٦، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية.

الفصل الثاني: المضامين التربوية في سورة يس

«عني المفكرون بالقرآن الكريم عناية لم يظفر بمثلها كتاب سواه، وتبدو هذه العناية في كثرة المؤلفات والدراسات عن القرآن الكريم، فتعددت مناحي الأخذ منه إلا أن أعظم وجوه الأخذ من القرآن الكريم الوجه التربوي، فهو مبثوث في القرآن كله، فلا تكاد تخلو سورة منه»[١٤]؛ ومن هنا جاء هذا البحث لاستنباط المضامين التربوية في سورة يس، «فالقرآن الكريم كتاب شامل في التربية، وقد وضع منهجًا للتربية العقلية والنفسية والجسمية»[١٥].

والمقصود بالمضامين التربوية بشكل عام: «خلاصة الفكر التربوي الذي يشتمل عليه كتاب معين بغض النظر عن المجال الرئيسي الذي ألف فيه الكتاب، فقد يكون الكتاب مرجعًا فقهيًّا أو أدبيًّا أو تاريخيًّا بالدرجة الأولى إلا أنه لا يخلو من فكر تربوي متضمن في ثناياه، ويمكن استخراجه والإفادة منه»[١٦]. والمضامين التربوية في هذا البحث هي ما تتضمنه سورة يس من أهداف وتوجيهات وقيم تربوية يمكن استنباطها من خلال الدراسة والتحليل في حدود اطلاع الباحث واجتهاده، ولا شك أنه يمكن استنباط مضامين أخرى تحتويها السورة غير التي أشرت إليها.

المبحث الأول: المضامين التربوية الإيمانية

١- النظر في خلق الله تبارك وتعالى

دعت سورة يس إلى التأمل والتفكر في هذا الخلق وإدراك أنه لا بد له من خالق عليم حكيم، فالأرض وما فيها من زرع ونبات وخير هي آية من الآيات الدالة على عظيم صنع الله {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}.

إن تنوع ما على هذه البسيطة من زروع وأنعام وطيور وبهائم ودواب وتسخيرها للإنسان وتذليلها له يسوقها منقادة له مستسلمة لأمره ينتفع بها دليلٌ على وجود الخالق وعظيم صنعه {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}، وتنوع البشر في أعراقهم ولغاتهم وألوانهم من أعظم الآيات التي تدل على الخالق العظيم {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}.

وتقلب الليل والنهار وطلوع الشمس وغروبها وانتقال القمر بين المنازل وحركة الكواكب بهذا التناغم والتوازن دون أن تصطدم ببعضها أو تتقدم أو تتأخر آيةٌ من آيات الله العظيم {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

وفي البحار وما تحمله من الأثقال والسفن المواخر آية على قدرة الخالق وعظيم صنعه {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}، فالكون هو الكتاب المنظور الذي ينطق بوجود الخالق وعظيم قدرته: (وفي كل شيء له آية --- تدل على أنه الواحد).

٢- النظر في أصل خلق الإنسان وأطوار نموه

في خلق الإنسان من نطفة ثم وصوله إلى أرذل العمر دليل واضح على ضعفه أمام خالقه وحاجته له وافتقاره إليه، قال الله عز وجل: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: ٧٧] فمع هذه البداية الضعيفة للإنسان إلا أنه يجادل ويخاصم في وجود الخالق عز وجل، وأشارت السورة إلى حال الإنسان في حال الكبر: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ

(١٤) عماد الشريفين، مضامين تربوية من علوم القرآن: نماذج مختارة، مجلة جامعة الإمام، العدد الحادي عشر – ربيع الآخر ١٤٣٠هـ.
(١٥) المرجع السابق.
(١٦) المرجع نفسه.

فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨] أفلا يرون ضعفهم وقلة حيلتهم وافتقارهم إلى خالقهم؟! فمن أدرك حقيقة ذاته أيقن أن هناك خالقًا منعمًا عظيمًا لا يسع الإنسان إلا أن يؤمن به ويستسلم لأمره، ولا شك أن في عرض أدلة الإيمان بالله -عز وجل- دعوةً إلى إعمال العقل والتفكر في خلق السموات والأرض، فسائر الموجودات تحتاج إلى موجد يوجدها، ولا يمكن أن تكون قد حصلت صدفة أو عبثًا.

٣- القرآن دعوة وإنذار لمن يبحث عن الحق

جاء القرآن الكريم نذيرًا وداعيًا لمن ينشد الحق ويبحث عنه، فلا ينتفع به المعاندون المصرون على الكفر والباطل {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: ٧٠]، قال ابن كثير: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِنِذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ، مُسْتَنِيرُ الْبَصِيرَةِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: حَيُّ الْقَلْبِ حَيُّ الْبَصَرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي عَاقِلًا)[١٧]، وقال ابن عاشور: (الإِنْذَارُ: الْإِعْلَامُ بِأَمْرٍ يَجِبُ التَّوَقِّي مِنْهُ، وَالْحَيُّ مُسْتَعَارٌ لِكَامِلِ الْعَقْلِ وَصَائِبِ الْإِدْرَاكِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ مَنْ كَانَ مِثْلَ الْحَيِّ فِي الْفَهْمِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ التَّعْرِيضُ بِالْمُعْرِضِينَ عَنْ دَلَائِلِ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُمْ كَالْأَمْوَاتِ لَا انْتِفَاعَ لَهُمْ بِعُقُولِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [النَّمل: ٨٠])[١٨].

٤- الاعتبار بالأمم السابقة

يذكر الله -عز وجل- أخبار الأمم السابقة للعبرة والموعظة {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ} [يس: ٣١] يقول ابن كثير: (ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [المؤمنون: ٣٧])[١٩].

٥- يوم القيامة يأتي على حين غفلة

لا بد للمؤمن من الاستعداد الدائم وتجديد التوبة ولزوم الاستغفار {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} [يس: ٥٠] يقول ابن عاشور: (أي لا يتمكنون من توصية على أهليهم وأموالهم من بعدهم كما هو شأن المحتضر)[٢٠]. وقد وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أحوال الناس وقت قيامها فقال: ((لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها))[٢١].

٦- يوم القيامة توفَّى كل نفس ما كسبت

إن يوم القيامة هو يوم الحساب الذي توزن فيه الأعمال وتوفَّى فيه الأجور {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، يقول ابن عاشور: (أما وقد أيقنتم أن وعد الله حق وأن الرسل صدقوا فاليوم يوم الجزاء كما كان الرسل ينذرونكم)[٢٢]. ويوم القيامة هو دار العدل المطلق، قال تعالى: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر: ١٧] فلا ظلم هناك حيث يقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء كما قال صلى الله عليه وسلم: ((حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء))[٢٣]. وهو اليوم الذي يجازى الناس فيه على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر كما قال تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: ٣١] وفي هذا دعوة للإنسان أن يحرص على صالح الأعمال ومحاسن الخصال كما قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢].

(١٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (ج٦ ص٥٩٢)، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٩٩٢).
(١٨) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (ج٢٣ ص ٦٦).
(١٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج٦ ص٥٧٤).
(٢٠) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (ج٢٣، ص٣٥).
(٢١) البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، رقم الحديث (٦٥٠٦).
(٢٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (ج٢٣، ص٤٠).
(٢٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث (٢٥٨٢).

المبحث الثاني: المضامين التربوية الاجتماعية

١-ظاهرة التطير مذمومة شرعًا

ذكر القرآن الكريم تطير أهل القرية من المرسلين {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [يس:١٨]، يقول ابن عاشور: (والتطير في الأصل تكلف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرض نوع الطير ومن صفة اندفاعه أو مجيئه، ثم أطلق على كل حدث يتوهم منه أحد أنه كان سببًا في لحاق شر به، فصار مرادفًا للتشاؤم، وفي الحديث: ((لا عدوى ولا طيرة، وإنما الطيرة على من تطيّر))، وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية، أي قالوا: إنا تشاءمنا بكم)[٢٤]. والطيرة من معتقدات أهل الجاهلية والأمم السابقة، فجاء الإسلام ونهى عنها لما فيها من سوء الظن بالله؛ لهذا (كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره الطيرة ويحب الفأل)؛ لأن الفأل فيه حُسن ظن بالله عز وجل، والمؤمن مأمور أن يحسن الظن بربه عز وجل.

٢-التكافل الاجتماعي مظهر حضاري دعا إليه الإسلام

ذكر الله عز وجل شماتة المشركين بضعفاء المسلمين فقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يس:٤٧]، فكانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحّون على فقراء المسلمين، فيمنعونهم البذل تشفيًا منهم، فإذا سمعوا من القرآن ما فيه الأمر بالإنفاق أو سألهم فقراء المسلمين من فضول أموالهم يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقنا من الله فلماذا لم يرزقكم، فلو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا)[٢٥]. فعندما يأمر الإسلام بالإنفاق فهو يأمر بتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي، وهو معاونة الفقير والضعيف ودفع حاجته بالمال؛ لذا قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [البقرة:٢١٥][٢٦] وعلى رأس الإنفاق الزكاة الواجبة، فهي تنفرد بأنها تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الناس، فالغني بحاجة إلى الفقير، والفقير بحاجة إلى الغني[٢٧]، وفي ذلك إسعاد الفرد والجماعة، وإشاعة الرفاه والرخاء للجميع[٢٨].

٣-الحذر من الفتنة وحماية المجتمع من الإلحاد

أخذ الله عز وجل العهد على بني آدم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس:٦٠] فكل من يعبد غير الله يتبع خطوات الشيطان، فلا سبيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتطهير المجتمع من أدران الإلحاد وعبادة غير الله إلا بترك عبادة الشيطان، قال تعالى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل:٦٣]. يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان ولا ركعوا للشيطان ولا صاموا له ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله))[٢٩]. فلا سبيل لوقاية المجتمع المسلم من هذا الإلحاد الذي انتشر عبر وسائل الاتصالات الحديثة والقنوات الفضائية المغرضة إلا عن طريق نشر عقيدة التوحيد وغرس الإيمان في النفوس وتربية المجتمع عليه.

٤-الرأفة والرحمة بأصحاب المعاصي:

تذكر سورة يس ما كان عليه صاحب يس من قيم وأخلاق حيث دعا قومه بكل لطف فقال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}، وبعدما قتلوه قال: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}، قال ابن كثير نقلا عن ابن عباس رضي الله عنهما: (نصح قومه في حياته بقوله: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} وبعد مماته في قوله: {يَا لَيْتَ

(٢٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (ج٢٢ ص٣٦٢).
(٢٥) المصدر السابق، (ج٢٣، ص٣٢).
(٢٦) محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، (ج٢، ص٦٧٧)، دار الفكر العربي.
(٢٧) وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج١، ص١٥٢، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
(٢٨) المرجع السابق (ج١، ص٢٠٩).
(٢٩) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير، تحقيق خالد بن عثمان السبت، ج٥، ص٤٨٦، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [٣٠]. فينبغي على المسلم أن يقف على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع العصاة والمذنبين، جاء في الحديث عن تميم الداري -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الدين النصيحة)) قلنا: لمن؟ قال: ((لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[٣١].

لقد عامل النبي -صلى الله عليه وسلم- العصاة بكل رفق ورحمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتي النبي صلى الله عليه وسلم بسكران، فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ما له أخزاه الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم))[٣٢]. قال ابن حجر: (وجه عونهم الشيطان بذلك أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي، فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان، ويستفاد من ذلك منع الدعاء على العاصي بالإبعاد عن رحمة الله كاللعن)[٣٣].

المبحث الثالث: المضامين التربوية السلوكية

١-القسم للأمر العظيم

أقسم الله -عز وجل- في أول سورة يس بالقرآن الكريم على صحة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} جاء في تفسير البغوي: (أقسم الله بالقرآن أن محمدًا صلى الله عليه وسلم من المرسلين، وهو رد على الكفار حيث قالوا: {لَسْتَ مُرْسَلًا} [الرعد: ٤٣][٣٤]. والآية تشير إلى تعظيم الأيمان، وألا يحلف المسلم على أتفه الأسباب وأهون الأمور، يقول الشيخ أبو زهرة: (ومن لا يصون يمينه لا يبر بها بل يقع في الحنث الكثير، وقد يكفر وربما لا يكفر، ومن يعرض اليمين في القليل والكثير والعظيم والحقير من الأمور لا يكون متقيًا لله)[٣٥].

٢-التلطف والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

خاطب صاحب يس قومه بقوله {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} يقول الشيخ الطنطاوي: (قال لقومه على سبيل الإرشاد والنصح: يا قوم اتبعوا المرسلين الذين جاؤوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذي انغمستم فيه)[٣٦]. ولا يخفى ما في قوله {يا قوم} من التلطف في القول واللين في الكلام، وهو أدلُّ على النصح لهم والإشفاق عليهم، وأقرب إلى صرفهم عن طريق الضلال والإضلال، وهو مسلك تربويّ نبوي حكيم لا يرى ألطف ولا أحكم ولا أعدل مدخلا منه إلى النفس، قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يحب الرفق في الأمر كله))[٣٧].

> " إذا أدرك الإنسان أن أثره يكتب بعده اجتهد في ترك الأثر الصالح "

٣-الحرص على هداية الناس:

{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس: ٣٠] قال مجاهد: (يا ندامة عليهم في الآخرة باستهزائهم بالرسل في الدنيا!)[٣٨] والمعنى: يا حسرة الرسل

(٣٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج٦ ص٥٧٢).
(٣١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم الحديث (٢٠٥).
(٣٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة، رقم الحديث (٦٧٨١).
(٣٣) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (ج١٢، ص٦٧) دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م.
(٣٤) محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين، (ج٧، ص١١٠).
(٣٥) أبو زهرة، زهرة التفاسير، (ج٢، ص٧٤٣).
(٣٦) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (ج١٢، ص٢٣).
(٣٧) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم الحديث (٦٠٢٤).
(٣٨) التفسير الوسيط (٣/ ٥١٣).

والملائكة على العباد[٣٩]، وسبب التحسر استهزاؤهم بالرسل وتكذيبهم إياهم، وفيه إشارة إلى شفقة الداعية وحرصه على هداية الخلق وإرشاد الحيارى، وأن يطرق كل باب ويبذل كل جهد من أجل هدايتهم، وألا ييأس في سبيل إنقاذهم من عذاب الله في الآخرة، وفي الحديث: ((لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم))[٤٠].

٤-شكر المنعم على نعمه

ذكر الله عز وجل نعمه على عباده في موضعين من سورة يس، وأنكر على المشركين عدم شكر الله -عز وجل- على هذه النعم فقال: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} قال ابن عاشور: (والاستفهام: إنكار وتعجب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة)[٤١]، والمعنى: (فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى)[٤٢]، يقول البيضاوي: ({أَفَلَا يَشْكُرُونَ} أمر بالشكر من حيث إنه إنكار لتركه)[٤٣]. ولا يخفى أن الشكر على ثلاثة أنواع، قال النيسابوري: (وهو على ثلاث منازل: شكر القلب وهو الاعتقاد بأن الله ولي النعم، قال الله: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣]، وشكر اللسان وهو إظهار النعمة بالذكر لها والثناء على مسديها، قال الله: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١]، وشكر العمل وهو إذْآبُ النفس بالطاعة، قال الله سبحانه: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [سبأ: ١٣]، وقد جمع الشاعر أنواعه الثلاثة فقال: (أفادتكم النعماء مني ثلاثة ..... يدي ولساني والضمير المحجبا)[٤٤].

٥-التوكل على الله والتسليم له

قال الله عز وجل: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]، في هذه الآية (يبين تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له: كن -أي مرةً واحدةً- فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] وقال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]، وقال الشاعر:

(إذا ما أراد الله أمرًا فإنما .... يقول له «كن» قولةً فيكون)[٤٥].

فإذا كان أمر الله نافذًا فلا ينافي الأخذ بالأسباب لكوننا أمرنا بالتماسها، فأمر الله فوق كل أمر، فنأخذ بالأسباب ونعتقد اعتقادًا جازمًا أن أمر الله نافذ، وهذا هو التوكل على الله والاعتماد عليه والتسليم له، يقول ابن رجب الحنبلي: (وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله -عز وجل- في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وَكِلَةُ الأمورِ كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه)[٤٦].

٦-كتابة الأثر تدفع الإنسان إلى ترك الأثر الطيب:

إذا أدرك الإنسان أن أثره يكتب بعده اجتهد في ترك الأثر الصالح، قال ابن كثير عند قوله تعالى {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}: (وفي قوله {وآثارهم} قولان: أحدهما نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أَثَرُوهَا مِن بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر كقوله صلى الله عليه وسلم: ((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن يَنقص من أجورهم شيءٌ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم

(٣٩) تفسير السمعاني (٤/ ٣٧٥).
(٤٠) البخاري (٢٩٤٢).
(٤١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (ج٢٣، ص ٦٧).
(٤٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج٦ ص٥٧٥).
(٤٣) ناصر الدين البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، ج٤، ص٢٦٨، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
(٤٤) أبو الحسن النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، ج١، ص٤٧١، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.
(٤٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج٦ ص٥٩٦).
(٤٦) زين الدين السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم، تحقيق الأحمدي ج٣، ص(١٢٦٦).

شيءٌ))[٤٧]. والقول الثاني أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، وقد ورد في هذا المعنى حديث جابر بن عبد الله قال: (خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: ((إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد))، قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: ((يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم))[٤٨].

" فحريٌّ بالمؤمن أن يكون حريصًا على عبادة التسبيح لما تنطوي عليه من أسرار ولما لها من فوائد في تهذيب النفس وغرس اليقين وتعظيم الخالق عز وجل "

وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان يستطيع أن يطيل من عمر نفسه وأن تكون له حياة بعد الموت، وذلك بأن يترك بعده أثرًا طيبًا، وقد أرشدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى بعض هذه الآثار بقوله: ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[٤٩].

٧-التسبيح والذكر من العبادات المهمة

ختم الله عز وجل سورة يس بقوله {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ،} وهذا يناسب ما ذكره الله -عز وجل- في السورة من الآيات الدالة على عظيم صنعه وقدرته، قال في أضواء البيان: (ومن قدرته على كل شيء وتصريفه لأمور ملكه كيف يشاء أن جعل العالم كله يسبح له بحمده تنفيذًا لحكمةٍ فيه كما في قوله: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٧٠]، فجمع الحمد والحكم معًا لجلالة قدرته وكمال صفاته)[٥٠]. وقد أخبر أن الملأ الأعلى مشغولون بهذه العبادة العظيمة عبادة التسبيح، قال تعالى: {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت: ٣٨] وقد أمر الله نبيه بالتسبيح في مواطن متفرقة، منها قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [الطور: ٤٩] فحريٌّ بالمؤمن أن يكون حريصًا على عبادة التسبيح لما تنطوي عليه من أسرار ولما لها من فوائد في تهذيب النفس وغرس اليقين وتعظيم الخالق عز وجل.

٨-الإصرار على الباطل من شأن الكافرين:

قال الله عز وجل: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يس:٧] أي (وجب العذاب على أكثرهم)[٥١] بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار وغلوهم في العتو والطغيان، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف[٥٢]، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه[٥٣]؛ ففي الآية تهديد الكافرين بسوء العاقبة، وأن الله قد مضى حكمه وثبت قضاؤه في أن جعل النار مصيرهم وعاقبة أمرهم، فقد وجدوا آباءهم على الباطل وأصروا على اتباعهم في باطلهم؛ لهذا فإن المسلم مأمور أن يفكر ويعمل عقله ويتبع الحجة والبرهان.

أخيرًا لا بُدَّ أن أشير إلى ما يلي:

١-على الباحثين في المجال الشرعي والدعاة والعلماء أن يُعنَوا بنشر التحليل التربوي ونتائجه؛ كي ينتقل الناس من مرحلة القراءة المجردة لآيات القرآن الكريم إلى مرحلة الوعي والإدراك لما تحتويه من معانٍ وتربية وأحكام.

٢-صياغة المناهج التعليمية على ضوء ما تحتويه العلوم من مضامين تربوية ليظهر أثر العلم في سلوك المتعلم.

٣-تقعيد علم التحليل التربوي على ضوء الثوابت في الشرع والتربية واللغة.

(٤٧) مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم الحديث (٦٩٧٥).
(٤٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج٦ ص٥٦٦)، والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد، رقم الحديث (١٥٥٢).
(٤٩) أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، رقم الحديث (٨٨٤٤).
(٥٠) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (ج٨، ص١٩٥).
(٥١) تفسير البغوي (٤/ ٦).
(٥٢) تفسير أبي السعود (٧/ ١٥٩).
(٥٣) تفسير السعدي ص (٦٩٢).

استشعار المسؤولية في القرآن الكريم

«من تحقيقِ المناط إلى ارتفاعِه»

أ. د. حسن الخطاف
جامعة قطر كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

خلق الله تعالى الإنسان وكرَّمه، فجعله مسؤولًا أمام الله تعالى وأمام نفسه وغيره، وهو تكريم يفضي إلى استقرار الحياة والعيش فيها وَفق المنهج الذي أراده ربُّنا سبحانه وتعالى، وغرض هذا البحث بيانُ ما تضمنه القرآن الكريم من مبادئ ومقاصد لا ينفك عنها الإنسان من حيث الفكر والروح والقِيَم والتعايش والعمل وعلاقته بالكون، ومنها مبدأ «استشعار المسؤولية من تحقيق المناط إلى ارتفاعه»، وأساس هذه المسؤولية التكريم الإلهي للإنسان إذ جعله مسؤولًا وأناط تلك المسؤولية بموطن التكريم الإلهي وهو «العقل»، فلا مسؤولية على من لا عقل له، وحيثما ارتفعت المسؤولية الأخلاقية والجنائية فليس للتكريم معنى يُنَاطُ به، وللمسؤولية في القرآن أبعاد شخصية وغيرية يكتمل بها تأسيس هذه القضية التشريعية، ثم ما على الفقهاء سوى استنباطِ جزئياتٍ متممة لها على هدي السنة النبوية ومقاصد الشريعة.

مصطلحات الدراسة:

الاستشعار: المقصود بالاستشعار أنّ القرآن الكريم أودعَ في الإنسان حتميَّة الإحساس بالمسؤولية والقيام بها بصفتها أساسًا لصلاح الدنيا.

المسؤولية: مدلولها معلوم، وكلُّ واحد يقوم بها، وهي تحمُّل الشخص ما التزم به طوعًا أو أُلزم به كرهًا.

تحقيق المناط وارتفاعه: أسَّس القرآن لقضية المسؤولية بربطها بالأخلاق والعقل والحرية والتكريم وبَعثة الرسل، فمن قامت به هذه المعاني ثبتت مسؤوليته، وهو المراد بتحقيق مناط المسؤولية، لكن يمكن أنْ ترتفع هذه المسؤولية أخلاقيًّا وجنائيًّا بفقد العقل، وهذا ما نعنيه بارتفاع المناط.

إذًا في كلِّ مسؤوليةٍ تكليفٌ ومشقة، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفقة والنصح والإرشاد وقول الحق، فما لا مشقة فيه لا يندرج في مفهوم المسؤولية، وهي إمَّا التزامٌ أو إلزامٌ، ومنها أن يلتزم الإنسان بشيء متطوِّعًا به، وليس المقصود بالتطوع أنَّه لا يأخذ أجرًا، ومن هذا القبيل كلُّ من يرشح نفسه للقيام بالمسؤوليات العامة كرئاسة دولة أو حزب أو وظيفة قضائية أو تدريسية...، ولعل في قول الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام دليلًا على هذا: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف:٥٥] ومثله قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٣٨-٤٠] عرَض سليمانُ عليه السلام أمرًا فاستجاب له اثنان: عفريت من الجنِّ وشخص عنده علم من الكتاب، وهي استجابة تطوعية، والأصل في تحُّمل المسؤولية أنها تطوَّعية أي أن الإنسان في خِيَرةٍ من أمره بأن يفعل أو لا يفعل، واتصافه بهذه الإرادة شرط لتحمُّل المسؤولية؛ وقد يكون تحُّمل المسؤولية إلزامًا عن طريق قوَّة ملزِمة لتحمُّل المسؤولية كالنفقة على الزوجة والصغار وردِّ الدَّين والعارية.

المبحث الأول

شروط تحمُّل المسؤولية في القرآن الكريم

الناظر في القرآن الكريم وفي الطبيعة التكوينية للإنسان يجد أن الشرط الوحيد لذلك هو الإرادة والقدرة، فالإرادة معنًى قائم بالنفس يوجهه نحو القيام بالفعل، والقدرة تنفِّذ ما كُلِّفَ به وتتنوَّع بحسبه؛ فقد تكون مالية أو عقلية أو بدنية، ولا أحدَ يَصْدُق عليه لفظ مسؤول بهذا المعنى إلا الإنس والجن، فالملائكة ليست مسؤولة لأنها مسيرة في أداء ما كُلِّفت به، فهي مجبولة على الطاعة، أما الحيوان ونحوه فمن باب أولى أنَّه لا يكون مسؤولًا لأنه لا عقل له ولا اختيار، فإن فُقد العقل انتفت الإرادة والقدرة وارتفعت عن الإنسان المسؤولية بجميع درجاتها ابتداء بالمسؤولية العليا وهي الإيمان وانتهاء بالمسؤولية الدُّنيا وهي مسؤوليته عمَّن حوله، وهو معنى قول الفقهاء (إذا أَخَذَ الله ما قَدْ وهَب أَسْقَطَ ما قَدْ وَجَب).

> " ومن أبرز مسائل المسؤولية في القرآن الكريم أنَّ طابعها شخصي فمن ارتكب جرما يتحمله هو ولا يتحمله غيره عنه "

إن اشتراط الإرادة والعقل للقيام بالمسؤولية مبثوث في ثنايا القرآن الكريم تصريحًا وتلميحًا، وأساس ذلك حمل الأمانة في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]، وهذا التَّحمل اختياري، فالعرض: تقديم شيء لشخصٍ ليختاره أو يرفضه، ومنه عرضُ الناقة على الحوض -أي عرضُها عليه لتشرب منه- وعرضُ المجندين على القائد لقبول من يصلح منهم، وفي حديث ابن عمر: ((عُرضت على رسول الله وأنا ابن أربع عشرة فردَّني، وعرضت عليه وأنا ابن خمس عشرة فأجازني))[1].

وحيثما ثبتت المسؤولية دلَّت على وجود الإرادة والقدرة، وبارتفاعهما ترتفع، ففي الإكراه تنتفي المسؤولية، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦] وفي الخطأ أو النسيان تنتفي المسؤولية الأخروية، قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة:٢٨٦] أما المسؤولية الدنيوية فهي باقية لأنها من متعلَّقات الحكم الوضعي وليس من شرطه التكليف، وأما حديث المتكلمين عن جواز تكليف الله تعالى عبادَه بما لا يُطاق فهو في الجواز العقلي لا الشرعي؛ فليست له تطبيقات واقعية، وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه مقدورٌ للإنسان، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء:٢٨] وقال سبحانه {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} [المائدة:٦].

ومن أبرز مسائل المسؤولية في القرآن الكريم أنَّ طابعها شخصي، فمن ارتكب جرما يتحمله هو ولا يتحمله غيره عنه في الدارين أيًّا كانت درجة القرابة، قال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:١٦٤]، وقال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٨٨ و٨٩] {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤-٣٧] وهو إنما يفر منهم خوفًا على نفسه من العذاب المنتظر ومن هول الأحداث يومئذٍ، وهذا يدلُّ أنه لا أحد يحمل عن أحد مسؤولياته وتبعاتها، وهذه المسؤولية لا نظير لها ولا بديل، ومن هنا يتبيَّن خطأ عقيدة النصارى في «قضية الصلب» التي تأتي تكفيرًا عن ذنبٍ لم يفعله عيسى عليه السلام.

نعم قد تكون المسؤولية غيْرية من وجهٍ شخصيةٍ من وجه، فالإنسان يُسأل عن أعمال غيره عندما يفتن غيرَه أو يُضلُّه مثلًا، قال تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل:٢٥]، ومن ذلك أنْ يسُنَّ سنة سيئة، قال صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))[2].

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية – تونس، ١٩٨٤ هـ، ٢٢/ ١٢٥، والحديث رواه الترمذي في سننه وقال: «هذا حديث حسن صحيح». الجامع، كتاب أبواب النكاح، باب ما جاء في حد بلوغ الرجل والمرأة، رقم: ١٣٦١، ورواه ابن حبّان في صحيحه، ١١/ ٢٩، ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم: ١٠١٧، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

المبحث الثاني

الأسُس النظرية للمسؤولية

١- المسؤولية والأخلاق:

الأخلاق هي أفعال اختيارية تصدر عن المُكلَّف ويُناط بها المدح أو الذم، وبذلك ندرك علاقة الأخلاق بالمسؤولية نظريًّا من ثلاثة أوجه:

الأول: ثبوت الاختيار للإنسان، وهذا وصف مشترك بين المسؤولية والفعل الأخلاقي، فما يصدر عن المُكرَه لا يتحمل الشخصُ مسؤوليَّته ولا يُعدُّ مذمومًا عليه أخلاقيًّا.

الثاني: التَّكليف وهو شرط تحمُّلِ المسؤولية ويندرج تحت القدرة، وهو شرطٌ أيضًا لتحمل مسؤولية الفعل الأخلاقيِّ، فإذا انتفى التَّكليفُ لعارضٍ من عوارضه كالجنون والصِّغر انتفت المسؤولية وانتفَى الفعلُ الأخلاقيُّ.

الثالث: المدحُ على الفعلِ والذمُّ على الترك، وهما ملازمان للفعل الأخلاقي، فقول الصدق وأداء الحقوق وترك القبائح مسؤولية وهو في الوقت نفسه فعل أخلاقي يُمدَح فاعله، والقتل ظلمًا وإهدار الحقوق يُذم مرتكبه لأنَّه أخلَّ بالمسؤولية، وهو فعل غير أخلاقي أيضًا؛ لذا لا تدخل المباحات كالنوم والشرب في مسمَّى المسؤولية ولا في الفعل الأخلاقي إلا إذا تجاوزت المباحات حدودها وأثَّرت في غيرها، عندئذٍ تثبت المسؤولية ويُوصف الفعل بأنه غير أخلاقي، ومنه السهر والإفراط في النوم المؤديان إلى التفريط بالحقوق من صلاة أو وظيفةٍ ونحوهما.

وعمليًّا ثمَّة ارتباط بين المسؤولية والفعل الأخلاقي، والآيات في هذا من الكثرة بمكان، من ذلك قول الله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء:٣٦].

٢- المسؤولية والتكريم الإلهي:

الإنسانُ المُكرَّم هو الإنسان المسؤول، وأساس ذلك العقل قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء:٧٠] يقول الشيخ ابن عاشور: (فَأَمَّا التَّكْرِيمُ فَهِيَ مَزِيَّةٌ خَصَّ بِهَا اللَّهُ بَنِي آدَمَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ...، وَالتَّكْرِيمُ: جَعْلُهُ كَرِيمًا، أَيْ نَفِيسًا غَيْرَ مَبْذُولٍ وَلَا ذَلِيلٍ فِي صُورَتِهِ وَلَا فِي حَرَكَةِ مَشْيِهِ وَفِي بَشَرَتِهِ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ لَا يَعْرِفُ النَّظَافَةَ وَلَا اللِّبَاسَ وَلَا تَرْفِيهَ الْمَضْجَعِ وَالْمَأْكَلِ وَلَا حُسْنَ كَيْفِيَّةِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَا الِاسْتِعْدَادَ لِمَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعَ مَا يَضُرُّهُ، وَلَا شُعُورَهُ بِمَا فِي ذَاتِهِ وَعَقْلِهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ فَيَسْتَزِيد مِنْهَا وَالْقَبَائِحِ فَيَسْتُرُهَا وَيَدْفَعُهَا).

٣- المسؤولية والجزاء بين النية وفعل الجوارح:

الجزاءُ الإلهيُّ في الدنيا والآخرة سواء أكان تكريمًا أم تعذيبًا، والجزاء الدنيوي العادل في الدنيا سواء أكان عقوبة أم تكريمًا؛ كلاهما مرتبط بأداء المسؤوليات، فمن قام بمسؤولياته حق القيام استحق الثواب، ومن أخلَّ بالمسؤولية استحق العقاب، ويربط القرآن الكريم أداء المسؤولية بفعل الجوارح والنية، فحُسْن النية مثلا ومحبة الخير للمسلمين جزء من المسؤولية، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور:١٩] ولكن القيام بالفعل وحده دون طلب الثواب من الله تعالى يُسقط المسؤولية وإن كان المكلف مقصِّرًا لتفريطه بالثواب، فلو ترك الإنسان القتل والزنا وشهادة الزور مثلًا خوفًا من الناس لا يُثاب على هذا الترك وإن امتثلَ لمقتضى المسؤولية؛ ذلك أنَّ المقصود بتحمُّل المسؤولية هو الجانب الدنيوي الذي يعود نفعه إلى الغير، أما النية في مثل هذه الأحوال فيعود نفعها إلى الفاعل، ومن ذلك الإنفاق على الزوجة، فالمقصود هو كفاية من يعوله المكلَّف أما نيَّة الامتثال لأمر الله فهي للحصول على الأجر.

> المسؤولية العلمية والفكرية وتكون بنشر العلم والثقافةومقاومة الخرافة والكهانة والأساطير وترك التَّقول على الله بغير علم

وبين المسؤولية والجزاء تلازم، فالتفريط بالمسؤولية يترتب عليه جزاء، وقد بيَّنت قواعد الشريعة أن العفو عن العقوبة الأخروية عند الإخلال بالمسؤولية إنما يكون في حقوق الله تعالى، وقد تسقط العقوبة الدنيوية أيضًا ما لم تكن حدًّا بلغَ القاضيَ خبره، أما حقوق الناس فإسقاط عقوباتها الدنيوية والأخروية مرهون بعفو أصحابها في الدَّارين، فمن مسؤوليات الشخص أن لا يقتل ولا يغتصب ولا يظلم، ومن فعل أخلَّ بمسؤوليته، فإسقاط الله لعقوبة هذه الجرائم رهنٌ بإسقاط أصحابها لها، وهذا المبدأ يُمثِّل أعظم حقٍّ إنساني متعارف عليه اليوم؛ فليس للرئيس أو الخليفة إسقاط عقوبة يتعلق بها حق لآدمي شرعًا.

٤- المسؤولية والتكليف:

مصدر المسؤوليات عند أهل السنة هو الوحي، فما حسَّنه الشرع فهو حسن وما استقبحه فهو قبيح، وهذا هو مقتضَى التكليف، فالعقل مناطه وبعثة الرسل شرطه، قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء:١٥] خلافًا للمعتزلة الذين يرون العقل مُحسِّنًا ومُقبحًا، وتتسع دائرة الشرع في ضبط المسؤوليات لتشمل أغلب شؤون الحياة، ولا ننسَ أن مسؤوليات العرف مسؤوليات شرعية؛ فالعرف مصدر من مصادر التشريع.

٥- المسؤولية والحكمة الإلهية:

التزام الناس بمسؤوليات شخصية وغيرية هو غاية الحكمة من الخلق وإلا صار خلق الناس عبثًا، وهو محال على الله، فالإنسان لم يُخلق سُدًى ولا عبثا بلا مسؤولية، يقول سبحانه وتعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة:٣٦] {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون:١١٥].

المبحث الثالث

مستويات المسؤولية الفردية والمجتمعية

أولا- توزُّع المسؤولية:

١. مسؤولية تجاه النفس: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم:٦]، وقال صلى الله عليه وسلم لابن عمرو: ((يَا عَبْدَ اللهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟))، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ((فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))[٣].

٢. مسؤولية تجاه الغير: وفي الآية السابقة دلالة على هذا، وهذا الغير له مراتب عدة أهمُّها: المسؤولية تجاه الوالدين والأولاد والجيران وولاة الأمور، والمسؤولية تجاه غير المسلم وتجاه البيئة والحيوان، علمًا أن المسؤولية تجاه غير المسلمين تكون على حسب الحال، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥].

ثانيا- مستويات المسؤولية المجتمعية:

أ- المسؤولية العلمية والفكرية، وتكون بنشر العلم والثقافة ومقاومة الخرافة والكهانة والأساطير وترك التَّقول على الله بغير علم، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:٩] {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:١١١].

ب- المسؤولية الحياتية المعيشية كصلة الأرحام ودفع الزكاة والصدقات.

ج- المسؤولية بإقرار العدل وعدم التظالم، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:٩٠].

د- المسؤولية بزرع القيم الأخلاقية وحمايتها، وتكون بزرع القيم ورعايتها كالإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [آل عمران:١١٠و١١١] وقال سبحانه: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٥].

وحسبنا هنا الحديث عن نوعين تمس الحاجة إليهما في بلدنا الحبيب: المسؤولية الجدلية بين الزوجين، والمسؤولية الجدلية بين ولاة الأمور والعلماء.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصيام، باب حق الجسم في الصوم، رقم: ١٩٧٥، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

المبحث الرابع

المسؤولية الجدلية بين الزوجين والمسؤولية الجدلية بين العلماء والأمراء

أولًا: المسؤولية الجدلية بين الزوجين

تُعدُّ هذه المسؤولية المشتركة بين الزوجين ركنًا مهمًّا في بناء المجتمع، فقيامها على أسس صحيحة ومراعاة كلٍّ من الزوجين لها يشكِّل لبنة في صلاح الأولاد وعلاقتهم ببعضٍ وفي علاقة الأولاد بالآباء؛ فالزوجان أبوان وصلاح ما بينهما يؤثِّر على سلوك الأولاد، وفساد علاقتهما يؤدي إلى تشتُّت الأسرة بل يؤثر على المجتمع لأنَّ خلاف الزوجين يؤثر على عائلة كُلٍّ منهما.

لقد تأثَّرت العلاقات الاجتماعية تأثُّرا كبيرًا على كلِّ المستويات في نير الإجرام الذي يرتكبه نظام بشار وزبانيته، وطال هذا التأثير العلاقة بين الزوجين سواء أكان ذلك في المناطق الخاضعة للنظام أو غيرها في سورية أو خارجها، ومن أسباب تأثُّر هذه العلاقة الاغتراب والنزوح خارج المحيط الذي كان يعيش فيه الزوجان، فكثير من حالات الطلاق قد وقعت، والأكثر منها بقاء العلاقة شبه معلقة بين الزوجين، فيبقى الرجل متعنِّتًا لا يطلِّق سواء كان هو المتسبب أم الزوجة، ولهذا الشرخ أسباب كثيرة منها:

١ –غياب الرقابة الدينية، وعدم شعور الطرفين بالمسؤولية وترك الامتثال لها.

٢ –الاطِّلاع على مجتمع جديد وخاصَّةً في المهجر، فرأت بعض النساء مثيلاتها يفعلن متى أردْن كلَّ ما يُردن.

٣ –شعور بعض النساء بالاستغناء عن نفقة الزوج، فكثير من قوانين بلدان المهجر وخاصة أوربَّا تكفل لها ولأولادها حقَّ العيش.

٤ –فسق بعض الأزواج نتيجة الهجرة ورؤية مجتمع جديد، فلم يَعُدِ الزواج عند بعضهم هو الطريق الوحيد للعلاقة بين الرجل والمرأة.

وهذا يقتضي استشعار كلٍّ من الزوجين واجب المسؤولية وصبرَ كُلٍّ منهما على الآخر حمايةً للأسرة من التفكُّك وحفاظًا على الودِّ الذي كان بينهما؛ كلُّ ذلك ما لم يكن هناك خروج على شرع الله تعالى، هذا ويُلحظ في النصوص القرآنية التي تضبط المسؤولية بين الزوجين أنها على شكلين:

الأول: نصوص تفصيلية، من ذلك قضية الطلاق وعَدده والعِدَّة وكيفيتها. الثاني: عامَّة، فقد اتَّجهت نصوص القرآن إلى ضبط العلاقة بين الزوجين بالمعروف، والضبط بالمعروف هو ضبط عام تتجه فيه النصوص إلى ضرورة مراقبتهما لله تعالى وعدم اللجوء إلى القضاء إلا في حالة ضيقة؛ فاللجوء إليه من غير تراضٍ يعسِّر على القاضي الوصول إلى الحقيقة لأنَّ العلاقة بين الزوجين مبنية على الستر، وهناك أشياء تحصل بين الزوجين لا يعلمها أحدٌ حتى الأولاد والأقربون، وليس من مصلحة الأسرة ولا الزوجين كشف المستور، ومن النصوص التي تربط الزوجين بالعرف الصحيح والقواعد الأخلاقية العامة وضرورة مراقبة الله تعالى قوله تعالى:

{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء:١٩]، {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ} [البقرة:٢٢٨]، {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة:٢٢٩]، {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [البقرة:٢٣١].

ثانيًا: المسؤولية الجدلية بين العلماء والأمراء

لم يخلُ تاريخنا وحاضرنا من جدل المسؤولية بين العلماء والأمراء وخاصَّة بعد قيام ثورات الربيع العربي، فقد طفت هذه المسألة على الساحة الفكرية حتى صارت من القضايا الكُبرى التي تحتاج إلى وضع ضوابط لهذه العلاقة، وأساس هذه العلاقة هي نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنها قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران:١٨٧و١٨٨]، أخذ الله على العلماء بيان الحق في المواقف التي تحتاج إلى بيان وعدم بيع هذه المواقف بجاهٍ أو سلطان، وقد لاحظنا هذا بكل وضوح فيمن وقفوا مع الأنظمة الفاسدة التي ثارت عليها شعوبها في سورية ومصر وليبيا واليمن، وأفتوا للسفَّاحين بأنَّ المعارض من الخوارج أو إرهابي، وقدَّسوا الحكَّام حتى صارت فتاواهم استجداءً لمحبتهم، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية السابقة: (والاشتراء هنا مجاز في المبادلة، والثمن القليل هو ما يأخذونه من الرِّشا والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامة على تأييدِ المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة، وتأويلِ كل حكم فيه ضرب على أيدي الجبابرة والظلمة بما

يطلق أيديهم في ظلم الرعية من ضروب التأويلات الباطلة وتحذيرات الذين يصدعون بتغيير المنكر، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتحاد جنس الحكم والعلة فيه)[٤].

هذا وليس فيما سبق ما يجيز عصيان أولي الأمر الذين يطيعون الله ورسوله، قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩].

وعندما نتأمل فقهاء السلاطين الذين باعوا فتاواهم للسلطة وعُرفوا بتملقهم وتزلفهم، أو الذين تعضد فتاواهم السلطان المستبد ولو لم يُعرف لهم ميل نحوه رغم ندرة ذلك؛ فسنجد أنها لا تخرج عن أمور ثلاثة:

أولًا: دعوة الناس إلى الصبر

دعوة الناس إلى الصبر والزهد في الدنيا وترغيب الناس بالآخرة والاكتفاء بلقمة الخبز وملء البطن استنادًا إلى أحاديث لقيت رواجًا لدى هؤلاء في أحداث الربيع العربي، منها حديث رواه الترمذي وغيره مرفوعًا: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)): قال الترمذي: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ)[٥] وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: (سنده ضعيف جدًّا، وعبد الله بن هانئ ترجم له ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» فقال: روى عنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مخلد الهروي عن أبيه عن إبراهيم بن أبي عبلة أحاديث بواطيل، سمعت أبي يقول: قدمت الرملة، فذكر لي أن في بعض القرى هذا الشيخ، وسألت عنه، فقيل: هو شيخ يكذب، فلم أخرج إليه، ولم أسمع منه. وقال الإمام الذهبي في «الميزان» و«المغني»: متهم بالكذب، ومع ذلك فقد ذكره المؤلف في «الثقات»، وأبوه هانئ بن عبد الرحمن ذكره المؤلف في «الثقات» وقال: ربما أغرب. وباقي رجال الإسناد ثقات)[٦].

أيًّا كان الحكم على سند هذا الحديث وأمثاله فلا ينبغي أن يكون موجِّهًا لرأي عامٍّ خدمةً لأغراض بعض السلاطين في تخدير الشعوب وسرقة ثرواتهم، فذلك ليس سببَ وروده فضلًا عن أن في قضية السلطان والظلم والعدل أحاديث خاصة صحيحة لا ينبغي إغفالها بترجيح حديث مختلف فيه عليها، أما عندما تجد شخصا يائسًا من حياته غير راضٍ بقضاء الله وقدره في بدنه أو رزقه فاذكر له هذا الحديث لعلّه يرضى، فهذا موقع ذلك الحديث من الحياة والشرع، أما ترويج مثل هذه الأحاديث خدمة للأنظمة التي أفسدت وسفكت وسرقت الكثير والقليل فلا يقل خطرًا عن غيره؛ فهذه ثقافة تصنع إنسانًا ذليلًا، وتدعوه إلى القناعة باليسير وعدم مطالبة السلطة بتحقيق العدل وتوزيع الثروات وكف الظلم، وهذا ما لاحظناه فترات طويلة في بلدنا، وهو الأساس الذي ترجع إليه مقولة البعض اليوم: (كنا عايشين)، وبمقابل هذا لا نجد لدى هؤلاء أحاديث أخرى تحض الحاكم على القيام بواجبه من العدل في الأحكام وتوزيع الثروة واختيار الأكْفَاء والعمل على نزاهة القضاء كالحديث الذي رواه مَعْقِلَ بن يسار رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ))[٧].

ثانيًا: القول بأنها فتنة

يستندون في ذلك إلى أحاديث أبرزها ما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ))[٨].

ومما يؤسف له أنَّ علماء كِبار كانت تُشدُّ إليهم الرحال استمسكوا به، وأقلُّ ما يُقال أنها غشاوة عن الحق واعتداد بالرأي وجهل بالواقع، فما وقع في سورية مثلا بعيد عن مضمون هذا الحديث، فالناس تعرف الظالم وتعرف سبب الظلم، وتعرف أنّها تُقاتل مضطرة دفاعًا عن وجودها ونفسها ومعتقدها وعرضها وما لها، ولم نرَ ممن وقف ضد عصابة النظام أحدًا ضرب برَّ الأمةِ وفاجرها ولم يتحاشَ مؤمنها، بل الذي رأيناه هو أنَّ تلك الطائرات ترمي

(٤) التحرير والتنوير: ٤/ ١٩٣.

(٥) سنن الترمذي، تح شاكر، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم: ٢٣٤٦.

(٦) صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٤ – ١٩٩٣.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من استُرعِيَ رعية فلم ينصح، رقم: ٧١٥٠.

(٨) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، رقم: ١٨٤٨، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

حمولتها لتبيد الحجر والشجر والبشر من غير تمييز بين من يقف مع السفَّاح أو ضده.

ومما يُثير الغرابة أنَّ القول بالفتنة استنادًا إلى هذا الحديث وأمثاله يقتضي منهم السكوت وعدم الخوض في أقلِّ الأحوال على فرض أنَّها فتنة، فالفتنة تعني أنَّ الأمر ليس واضحًا؛ فليخرس إذًا فقيه السلطان ما دام الأمر فتنة لم يتضح فيها الحق من الباطل، فالذي يقاتل -وهذا واضح من الحديث- تحت راية عمية لن يبصر تحتها الحق والباطل ولن يهتدي إليه وسيقف مع عصبيته وجماعته من غير تمييز، وهذا لم يحصل في بلدنا، يقول القاضي عياض: (يُقال: عِمِّيَّة بكسر العين وبضمها، وكسر الميم وتشديدها وتشديد الياء، قال الإمام: قيل: الأمر الأعمى كالعصبية لا يستبين ما وجهه، قاله أحمد بن حنبل، وقال إسحاق: هذا في تجارح القوم وقتل بعضهم بعضًا، وكأنه من التعمية وهو التلبيس)[9] ويقول النووي: (معناها أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبة لها، ويؤيد الرواية الأولى الحديث المذكور بعدها «يغضب للعصبة» ويقاتل للعصبة، ومعناه: إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه)[10].

ومما يُستدل به على ذلك -وليس المقصود استقراء كل الأحاديث- ما رواه البخاري وغيره من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أنْ بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله فيه برهان)[11].

وتجاهل فقهاء السلطان -دون تفصيل للمسائل الفقهية- أنَّ الذي يحكمنا ما كان أهلا للحكم، وهذا واضح في نصِّ الحديث، فالمنازعة فيه ليست منازعة لمن هو قائم على هذا الأمر وهو أهل له يرعى حقوق رعيته ناصحًا لهم معتنيًا بهم، كما تعامى هؤلاء عن التفريق بين الفسق ابتداء -وهذا لا تصح له أصلا الولاية- والفسق الطارئ، يقول القاضي عياض: (فإن كان فسقه كفرًا وجب خلعه، وإن كان ما سواه من المعاصي فمذهب أهل السنّة أنّه لا يخلع، واحتجُّوا بظاهر الأحاديث وهي كثيرة، ولأنه قد يؤدّي خلعه إلى إراقة الدّماء وكشف الحريم؛ فيكون الضرر بذلك أشَدَّ من الضرر به، وعند المعتزلة أنَّه يخلع، وهذا في إمام عُقد له على وجه يصحُّ ثم فَسَق وجار، وأمّا المتغلِّبون على البلاد فالكلام فيهم يتَّسع)[12].

ونسي هؤلاء أنَّ الحاكم الفاسق لا ولاية له أصلا، يقول العز بن عبد السلام: (وقد ينفذ التصرف العام من غير ولاية كما في تصرف الأئمة البغاة فإنه ينفذ مع القطع بأنه لا ولاية لهم، وإنما نفذت تصرفاتهم وتوليتهم لضرورة الرعايا، وإذا نفذ ذلك مع ندرة البغي فأولى أن ينفذ تصرف الولاة والأئمة مع غلبة الفجور عليهم، وإنه لا انفكاك للناس عنهم)(١٣) هذا النص واضح بأنه لا ولاية لهم، والسكوت عنهم لا يعني صحة ولايتهم ولو بقيت سنين، يقول الجويني: (ولا يجوز عقد الإمامة لفاسق)(١٤)، يقول القرطبي: (لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق)(١٥).

ونسي هؤلاء أيضًا أن هذه العائلة السفَّاحة التي حكمتنا منذ عشرات السنين هي متغلبة في الحكم، وأقلُّ ما يُحكم على المتغلب أنه فاسق، يقول ابن حجر الهيتمي: (المتغلب فَاسق معاقب لَا يسْتَحق أَن يبشر وَلَا يُؤمر بِالْإِحْسَانِ فِيمَا تغلب عَلَيْهِ بل إِنَّمَا يسْتَحق الزَّجر والمقت والإعلام بقبيح أَفعاله وَفَسَاد أَحْوَاله)(١٦).

ثالثًا: ضرورة طاعة السلطان وعدم الخروج عليه:

من أبرز ما يستدل به فقهاء السلطان قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩] لكن نسي هؤلاء أن هذا أمر بطاعة أولي الأمر الذين يطيعون الله ورسوله، وتناسوا أن طاعة الله والرسول ليست مقصورة على الشعب دون الحاكم، فالحاكم داخل في الخطاب، ومطلوب منه أن يُطيع الله في رعيته، ومن جملة طاعة الله تعالى النُّصح للرعية وإقامة العدل بينهم وتوزيع الثروات بالقسط والدفاع عن أعراضهم وزرع قيم الخير والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تح: يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م :٦/ ٢٥٨.
(١٠) شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢، ١٣٩٢، ١٢/ ٢٣٩.
(١١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدي أمورا تنكرونها) تح: مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
(١٢) المُعْلم بفوائد مسلم، المازري، تح: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ٣/ ٥٣.
(١٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ص ٧٩.
(١٤) غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني، أبو المعالي، تح: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط٢، ١٤٠١هـ، ص ٣٢٧.
(١٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح: أحمد البردوني وآخَر، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ١/ ٢٧٠.
(١٦) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، تح: عبد الرحمن بن عبد الله التركي وآخَر، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ٢/ ٦٢٧.

ومما يستدل به فقهاء السلطان حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ: (بَايَعَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)[17] فهم يحملون الكفر في الحديث على الكفر بالمعنى الاصطلاحي ويقصرونه عليه، ولن تجد حاكمًا مهما كان غبيًّا يُصرِّح بالكفر أو يعمل عملا مُكفِّرا لا يقبل التأويل، وكيف يفعلون ذلك وهم يتظاهرون بأنهم حماة الحمى والدين، فتراهم يبنون المساجد ويحضرون صلاة العيدين ومسابقات القرآن وبعض المناسبات الدينية، ويدعون العلماء إلى موائد الإفطار في رمضان، وهذا ما كان يحصل من الهالك حافظ بينما كان يأتي من المنكرات ما لا يعلم به إلا الله تعالى، فالحديث وإنْ اشترط الكفر لكنَّه ليس مقصورًا عليه، وهذا للأسف لا يُذكر عند فقهاء السلاطين، يقول النووي في شرحه للحديث: (والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان أي تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم مُنكرًا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم)[18] كلام النووي واضح هنا في حمل معنى الكفر على المعاصي والمطالبة بالإصلاح، والمظاهرات التي حصلت في بلدنا داخلة في مفهوم الإنكار وقول الحق وليست من الخروج المسلَّح والمنازعة، فمن البدهي أن السوريين لم يحملوا السلاح إلا بعد أشهر دفاعًا عن النفس والعرض، وليس فهم الكفر بمعنى المعاصي خاصًّا بالنووي، فالنووي ينقل عن القاضي قائلًا: (قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها)[19]، ويقول القاضي أبو بكر الباقلاني: (أجمعت الأمة أنه يوجب خلعَ الإمام وسقوطَ فرض طاعته كفرُه بعد إيمانه، وتركُه إقامة الصلاة والدعاء إليها)[20].

خلاصة ما نفهمه من هذين النَّقلين أنَّ الكفر الوارد في الحديث ليس مقصودًا به الشرك وحده، فترك الصلاة داخل في ذلك، ومن المعلوم بالتواتر عند كل السوريين أنَّ نظام عائلة الأسد كان يمنع الصلاة في الجيش، وهذا أقلُّ منكراته، وعدم ربط الخروج بالكفر بالمعنى الاصطلاحي مأخوذ من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ستكون أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع)) قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: ((لا، ما صلوا))[21].

نخلص مما سبق إلى أنَّ المسؤولية في القرآن الكريم هي مقصد عالٍ من مقاصد الشريعة، وهي مرتبطة بتكريم الإنسان وتكليفه، وأنَّ الإنسان مسؤول في الدنيا والآخرة ما دام يملك الإرادة والقدرة، لكنَّها مسؤولية شخصية إلا إذا أغرى الإنسان غيره أو فتنه فإنه يتحمل مسؤولية جُرم غيره.

وللمسؤوليات مستويات عدة فردية ومجتمعية، وأهمها اثنتان؛ أُوْلاهما المسؤولية الجدلية بين الزوجين، وقد تبين اعتناء القرآن الكريم بهذه العلاقة والمحافظة عليها من خلال ربطها بضرورة مراقبة الله تعالى وخشيته؛ فمن المتعذر على القضاء أنْ يفصل فصلًا كاملًا في هذه الحقوق بلا حيفٍ لما فيها من خصوصيات لا تظهر للقضاء.

أما الثانية فهي المسؤولية الجدلية بين الأمراء والعلماء، وقد ظهر لنا أنَّه ليس من مقاصد الشرع بحالٍ توجيهُ عامَّة الناس نحو الصبر على ظلم الحكام وجعل ذلك منهجًا، وأثبتنا أنَّ بعض الفقهاء خاصة في سورية سعى جاهدًا لحمل نصوص القرآن والسنة وإخضاعها لوجهة واحدة لتكون في خدمة الحاكم، وأنهم قصروا بعض دلالة القرآن والسنة على ذلك طمعًا في منصب، وربما حمل الغرورُ بعضَهم على ذلك ظنًّا منهم أنّ ما يفهمونه لا يفهمه الآخرون ممن كانت تُشدُّ إليهم الرحال، أو انطلاقا من حُسن نية ساذجة بصلاح رأس العصابة، وأيًّا كان الدافع فهو بعيد عن فهم النصوص الشرعية وفقه الواقع، لكن ثمة كثير من العلماء أيضًا صدعوا بالحقِّ وكانوا على بصيرة من دلالات النصوص وفهمها، فأسأل الله العظيم أن يمنَّ على بلدنا بالأمن والأمان، وأنْ يُخلِّصنا من هذه العصابة الحاكمة وأعوانها، نِعم مَن يُسأل ربُّنا وخير من يُجيب هو.

(١٧) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سترون بعدي أمورا تنكرونها» رقم: ٧٠٥٦.
(١٨) شرح النووي على مسلم، النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢ه، ١٢/ ٢٢٩.
(١٩) شرح النووي على مسلم، ١٢/ ٢٢٩.
(٢٠) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن، تح: دار الفلاح، دار النوادر، دمشق – سورية، ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، ٢/ ٤٤٠.
(٢١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك ٣/ ١٤٨٠.

مدخل إلى السياسة الشرعية

أ. د. ماجد الدرويش
أستاذ الحديث الشريف وعلومه في جامعة الجنان - لبنان

السياسة لغةً: فِعل السائس، وهو من يقوم على الدّواب ويروضُها(١)، وفيها معنى الرياسة، وأنشد ثعلب:

سادةٌ قادةٌ لكلِّ جميعٍ --- ساسةٌ للرجال يوم القتال(٢)

واصطلاحًا: القيام على الشيء بما يصلحه(٣)، وتطلق مجازًا على الحكم، يُقال: سُسْت الرعية ساسةً؛ أمرتُها ونهيتها(٤)، وعلى القيام بالأمر(٥) ورعاية الأمور(٦). وهدف السياسة: التأليف بين الناس وجمع كلمتهم للتعاون فيما بينهم على أسباب المعيشة وضبطها بحيث لا يختل نظام الحياة(٧).

عناصر السياسة

مفهوم السياسة يتضمن عناصر ثلاثة: ١

١ - الرياسة والقيادة

٢ - القيام على الشيء بما يصلحه

٣- الأمر والنهي

ولكل منها شروط وضوابط، فمن شروط الرياسة والقيادة: أن يكون الرئيس أو القائد أو الأمير عالمًا قويًّا على القيام بأعباء المهمة الموكلة إليه، ويؤخذ هذا من قوله تعالى في قصة طالوت: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٤٧] فالآية ذكرت شرطين أساسَيْن في اختيار الإمام، الأول: العلم، والثاني: الجسم، ويقصد به سلامة حواسِّه من النقص وجسدِه من العاهات المؤثرة في الرأي والعمل بالإمامة أو التي تعيب صاحبها(٨)، وينوِّه إلى أن البسطة والزيادة في العلم والجسم توحي بأنه كان أعلمهم وأقواهم على مقادير الملك، قال ابن كثير في الآية: (أي وهو مع هذا -أي مع اصطفاء الله تعالى له- أعلم منكم وأنبل، وأشكل منكم وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علمًا وقامةً منكم، ومن هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة

(١) تاج العروس، مادة (س و س)، (٨/ ٣٢٢).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (١/ ١٢٦).
(٧) المرجع السابق.
(٨) غياث الأمم للإمام الجويني، (٩١ - ٩٢).

في بدنه ونفسه)[٩] وأضاف العلماء شرط الذكورة[١٠] والحرية والعقل والبلوغ والشجاعة، وهذه كلها صفات جِبِلِّيّة، وأما الصفات المكتسبة فهي: العلم والورع.

" يقول الإمام الغزالي رحمه الله: إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا "

أما العلم فالشرط أن يكون الإمام مجتهدًا بالغًا مبلغ المجتهدين مستجمعًا صفات المفتين، وهذا أمر مجمع عليه،[١١] عند المتقدمين، ويقدم الأعلم من مستوفي الصفات في حال فقد هذا الشرط كما في زماننا، وأما التقوى والورع فلا بد منهما إذ لا يوثق بفاسق في الشهادة على فلس فكيف يُولَّى على أمور المسلمين كافَّة؟ فإذا استجمع الإمام هذه الصفات الحسية والمعنوية، الجبلّيّة والمكتسبة، كان أهلًا لذلك المنصب، وجَمَعَ الناسُ أمرهم عليه، ونزلوا عند رأيه؛ ذلك أن الغرض الأعظم من الإمامة جمعُ شتات الرأي واستتباعُ رجل أصناف الخلق على اختلاف إراداتهم وأخلاقهم ومآربهم وحالاتهم[١٢]، فإذا لم يكن المتبوع بالمكانة التي يخضع لها المجموع فسيكون ذلك سببًا للخروج عليه وإثارة الفتن في ولايته، وهو عكس المقصود.

وأما العنصر الثاني في مفهوم السياسة -وهو القيام على الشيء بما يصلحه- فإنه يستلزم أن يكون القائم عليه مستجمعًا الصفات التي وردت في الإمام؛ ثم إنه ما ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن صلاح الدين والدنيا إنما هو بشرع الله سبحانه {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤] فيتفرع عن هذا المبدأ العنصر الثالث في مفهوم السياسة، وهو الأمر والنهي أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف: كل ما أمر الله تعالى به، والمنكر: كل ما نهى الله تعالى عنه؛ ذلك أن القيام على الشيء بما يصلحه يقتضي معرفة هذا الشيء معرفةً دقيقةً بماهِيَّتِه وأسباب صلاحه وفساده وإدراك كُنْهِ وجوده، فإذا تحصلت هذه المعرفة استطاع القائم عليه أن يُشَرِّع له ما يُصلحه ويؤدي إلى الاستفادة منه على الوجه المطلوب، وهذا أمر عام يشمل عظائم الأمور وحقيرها.

إن النفس البشرية -إذا تجردت عن الهوى- قد تكتسب عن طريق التجربة الطويلة شيئًا من معرفة هذه الحقائق، لكن قد تنقضي أجيال قبل التوصل إلى هذه الحقائق، من هنا كانت رحمة الله تعالى للبشرية التي تمثلت بإرسال الرسل وإنزال الشرائع، فوفّرت على البشرية كثيرًا من الجهد والتجارب التي قد تجر من الويلات ما هو مشاهد إضافة إلى صعوبة تجرُّد المُشرِّع من البشر عن هواه وحاجاته التي تؤثر في قراره؛ فتعين أن اتباع أمر الله تعالى في كل شيء عنصرًا أساسًا في السياسة الشرعية.

أهمية السياسة الشرعية

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: (إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعةُ الآخرة، وهي الآلة الموصلة إلى الله عزّ وجلّ لمن اتخذها آلةً ومنزلًا لا لمن يتخذها مستقرًا ووطنًا، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالهم وحِرَفُهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام؛ أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة: الزراعة وهي للمطعم، والحياكة وهي للملبس، والبناء وهو للمسكن، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها)، ثم قال: (وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفّل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات، ولذلك يستخدم -لا محالة- صاحبُ هذه الصناعة سائر الصنّاع)[١٣]، ثم ذكر بقية الأقسام وقسم السياسة إلى أربع مراتب:

(٩) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٥٠.
(١٠) المرأة مأمورة بأن تلزم خدرها، ومعظم أحكام الإمامة تستدعي الظهور والبروز فلا تستقل المرأة إذًا. (غياث الأمم: ص٩٧).
(١١) غياث الأمم، (٩٤-٩٥).
(١٢) المرجع السابق، (٩٦).
(١٣) إحياء علوم الدين، (١/ ١٢٦ - ١٢٧).

المرتبة الأولى: وهي العليا، سياسة الأنبياء عليهم السلام، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا في ظاهرهم وباطنهم.

المرتبة الثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم.

المرتبة الثالثة: العلماء بالله عزّ وجلّ وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء، وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم، ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع.

المرتبة الرابعة: الوعاظ، وحكمهم على بواطن العوام فقط[١٤].

قال الإمام الزبيدي: (وصلاح العالَم ونظامه بمراعاة هذه السياسات لتخدمَ العامّةُ الخاصةَ وتسوسَ الخاصةُ العامةَ، ثم إن السياسة في حدّ ذاتها على قسمين: سياسة الإنسان نفسه وبدَنه وما يختصُّ به، والثانية: سياسته غيرَه من ذويه وبلده، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه)[١٥] ويقول ابن خلدون رحمه الله: (إن حقيقة الخلافة نيابةٌ عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فصاحب الشرع متصرف في الأمرين؛ أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري، وقد قدّمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت، وقدمنا أن المُلك وسطوته كافٍ في حصول هذه المصالح، نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح)[١٦].

السياسة بين الإسلام والنصرانية

يقول الشيخ محمد تقي عثماني حفظه الله: (قد اشتهر عن النصارى أنهم يفرقون بين الدين والسياسة بقولهم المعروف: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، فكأن الدين لا علاقة له بالسياسة، والسياسة لا ربط لها بالدين، وإن هذه النظرية في الحقيقة نوع من أنواع الإشراك بالله من حيث إنها لا تعترف للدين بسلطة في الحياة المادية، وإنما تقصر سلطة الدين على رسوم وعبادات يمارسها المرء في خَلْوَته أو في معبده، فكأن الإله ليس إلهًا إلا في العبادات والرسوم، وأما الأمور الدنيوية فلها إله آخر، والعياذ بالله؛ ولذلك ما زال الراسخون يردّون على هذا الكلام الزائف لأنّه لا مجال له في الإسلام الذي قرّر الأحكام الإلهية في جميع شؤون الحياة بما فيها السياسة والاقتصاد.

السياسة والعقيدة:

لما كان المسلمون يصدرون عن عقيدتهم سلوكًا ومبادئَ ومُثُلًا، كان ارتباط السياسة بالعقيدة ارتباطًا وثيقًا يضبط أصولها وتوجهاتها وأسبابها وشروطها وموانعها، وهو ما يعرف بفلسفة السياسة، فليست إقامة الحكومة الإسلامية هي المقصدَ الأصلي والهدف العامَّ لجميع أحكام الدين، بل هي وسيلة لتحقيق عبادة الله تعالى وتوحيده في الأرض، والوسيلة يجب أن ترتبط بهدفها صحةً وفسادًا وقبولًا وردًّا، فالغاية لا تبرر الوسيلة في السياسة الشرعية، بل إذا كانت الغاية شرعيّة فلا بدّ أن تكون الوسيلة كذلك.

وظيفة السياسة

وظيفة السياسة تربيةُ المواطن الصالح وتكوينه على القيم والمعاني الأخلاقية التي تكفل له الصلاحية للمواطنة الحقة في الدنيا على نحو يوصله إلى الفوز بالسعادة ونعيم الآخرة، وهذا يُظهر مدى ارتباط الدنيا بالدين والآخرة، ومدى ارتباط السياسة بالمثل العليا والقواعد الأخلاقية والمبادئ الإنسانية السامية، وهذا ما يعبر عنه بفلسفة السياسة وهي غير مبادئ السياسة، أما (فلسفة السياسة الوضعية) فقد فصلت بين الدنيا وبين السياسة والأخلاق والقيم والمبادئ الإنسانية السامية[١٧].

من القواعد الفقهية أنَّ (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة)، وتلك هي وظيفة السياسة في الدنيا، فالمقصود بالمصلحة هنا ما فيه صلاح أمر الرعية لا المصلحة المرسلة

(١٤) المرجع السابق.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) مقدمة ابن خلدون، (٢٠٢).
(١٧) دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، د. فتحي الدريني (١/ ٣٤٨).

التي لم يأتِ بحقها في الشرع اعتبار أو إلغاء، ومعناها أن نفاذ تصرف الإمام في رعيته متعلق بتحقيقه للمصلحة العامَّة، أي بما يُصلِحُ حال الرعية، وهذا يكون بحفظ دينها ومنع الأعداء من الهيمنة عليها بقدر وبالسهر على أمنها الديني والاجتماعي والاقتصادي وغيره؛ فالرعية ما اختارت هذا الحاكم إلا لحفظ هذه المصالح وللتصرف في شؤونها، فإذا فعل ذلك سرت أحكامه وأفعاله في الرعية ولزمتهم طاعته، وإن لم يفعل فمن حق الرعية خلعه لأنها هي ذات السيادة في اختيار الحاكم، وقد أشار ابن خلدون إلى أن سياسة الدنيا تتحقق بمقتضى رعاية الإمام لصالح الرعية في العمران البشري[18]، وذكر شيخنا محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى[19] تعليقًا على حديث سريّة عبد الله بن حذافة السهمي وقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ((إنما الطاعة في المعروف)): أن في أحاديث الباب –باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية– مبدأين عظيمين من مبادئ السياسة الإسلامية: الأول مبدأ طاعة الأمير، والثاني أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وفي شرح المبدأ الأول ذكر أن هذه الطاعة مشروطة (بكون الأمر صادرًا عن مصلحة لا عن هوى أو ظلم؛ لأن الحاكم لا يطاع لذاته وإنما يطاع من حيث إنه متول لمصالح العامة، فإن أمر بشيء اتباعًا لهوى نفسه دون نظرٍ إلى مصالح المسلمين، فإنه أمرٌ صدر من ذاته وشخصه لا من حيث كونه حاكمًا، فلا يقع بمنزلة أمره من حيث كونه حاكمًا، ولذلك قال الفقهاء: «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة»[20].

لكن كيف تدرك هذه المصلحة، يقول العزّ بن عبد السلام رحمه الله: (أما مصالح الآخرة وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فلا تُعرف إلا بالشرع، فإن خفي منها شيءٌ طلب من أدلَّة الشرع، وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طُلب من أدلته، ومن أراد أن يعرف المناسِبات والمصالح والمفاسد راجحَهُا ومرجوحَهَا فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرِدْ به، ثم يبني عليه الأحكام، فلا يكاد حُكْمٌ منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبَّدَ الله به عباده ولم يَقِفْهُم على مصلحته أو مفسدته)[21].

> " الحكم مسؤولية وليس حقًّا يَطْلُبُ الرجلُ من ورائه منفعةً دنيوية، فالإمارة أمانة خطيرة بيد الحاكم، وعهدة كبيرة في عنقه "

الدعوة والسياسة:

حذَّر العلماء من استغراق الدعاة في السياسة والعمل لها على حساب العبادة، فالعبادة هدفٌ والسياسةُ وسيلةٌ لتحقيقها، يقول شيخنا محمد تقي عثماني حفظه الله: (ولكن بعض المسلمين الذين قاموا بالردِّ على العلمانية في عصرنا قد أفرطوا في ذلك حتى وقعوا في غلطة دقيقة قد قلبت الموضوع وسبّبت أخطاء كثيرةً في هذا المجال، وهي أنهم جعلوا السياسة وإقامة الحكومة الإسلامية هي المقصدَ الأصلي والهدف الأقصى لجميع أحكام الدين، فكأن أحكام العبادات وغيرها لا ترمي إلا إلى هدف واحد، وهو تأسيس حكومة إسلامية، وكأن العبادات والديانات كلّها وسائل لتحصيل هذا المقصد الأصيل، حتى إنهم قلَّلوا من أهمية العبادات، فجعلوها تدريبًا للغاية الأصلية –وهي تأسيس الحكومة الإلهية– وتمرينًا عليها)[22]

قال: (وتولد عن هذه النظرة مفسدتان عظيمتان:

الأولى: اعتبار أن العبادات ليست مقصودة لذاتها وإنما لغاياتها

(١٨) مقدمة ابن خلدون، (٣١).
(١٩) تكملة فتح الملهم (٣/ ٣٢٣ – ٣٢٤).
(٢٠) حاشية نزهة النواظر على الأشباه والنظائر للعلامة ابن عابدين، (١٣٧ – ١٤١).
(٢١) القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام، (١/ ١٣).
(٢٢) تكملة فتح الملهم، (٣/ ٢٧٠ – ٢٧١).

التي هي الحكومة الإسلامية عندهم، مما يعني أنه لو اقتضت الظروف أن يُضحَّى بهذه الوسائل باختيار وسائل أخرى يُتوصل معها إلى ذلك المقصد المرموق، فإنه يمكن أن يُضحَّى بها، لكونها غير مقصودة.

والثانية: أن علاقة المرء بهذه الوسائل تكون علاقة عادية محدودة في نطاق الضرورة، فهو ينظر إليها على أنها مرحلةٌ انتقاليةٌ مؤقتة لا أنها غايةُ حياته، فلذلك تراه لا يعيش روح العبادة ولا يتلذذ بها ولا يطمئنّ إليها.[٢٣] وهذا يُحدث عنده قساوة في القلب يتولّد عنها بُعْدٌ عن «جادة الإيمان بالغيب والحنين إلى الآخرة وطلب رضا الله والتفاني في حبّه؛ تلك الجادة التي وضعه عليها الأنبياء عليهم السلام، فيتحول إلى دَرْبِ طلبِ الحكم والعز والغلبة والوصول إلى الحكم، وبالتالي إلى الماديّة المجرّدة» كما يقول الشيخ أبو الحسن النَّدْوي رحمه الله.[٢٤]

من الكتَّاب من حمله حماسه في الردّ على العلمانية وتركيزه على الناحية السياسية من الشريعة على أن جعل الإسلام كله دينًا سياسيًّا بدل أن يجعل السياسة دينًا، والحق أن السياسة شعبة من شعب الدين كما أن الاقتصاد شعبة منه، وأحكام الدين متعلقة بالسياسة كما أنها متعلقة بالتجارة، ولكن ليس شيءٌ من السياسة والتجارة هدفًا جذريًّا لدعوة الإسلام ولا مقصودًا أصليًّا من وراء أحكامه وتعاليمه؛ فكما أن تعلُّقَ أحكام الشرع بالتجارة لا يستلزم أن تكون التجارة هي المقصودة من الدين كذلك أحكام الشرع المتعلقة بالسياسة لا تعني أن تُجعل السياسة مقصدًا أصليًّا للإسلام.[٢٥] وهذا يؤخذ من قوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج:٤١]، يقول الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله: (وضح بهذه الآية أن المقصودة بالذات هي الديانات، وأنّ شيئًا من السياسة والجهاد ليس مقصودًا أصليًّا، وإنما هو وسيلة لإقامة الديانة، ولهذا السبب قد أُعطِيَت الدياناتُ وأحكامُ الديانة لكل واحد من الأنبياء عليهم السلام دون استثناء أحد، ولم تُعْطَ السياسةُ والجهادُ لجميعهم، وإنّما أعطى الجهاد والسياسة لبعضهم حيث دعت الحاجة والمصلحة، وإن ذلك شأن الوسائل، فإنها لا تُعطى إلا لضرورة)[٢٦]، ثم قال: (فاتضح بهذا أن السياسة وسيلة من الوسائل، والمقصود هو الديانةُ، وليس معنى ذلك أن السياسة ليست مطلوبةً إطلاقًا، وإنما أردت بهذا تعيين مكانة السياسة من الدين بأنها ليست مقصودةً بخلاف الديانة فإنها مقصودةٌ بذاتها)[٢٧].

المبادئ الأساسية للسياسة الشرعية[28]

شرع الإسلام للسياسة أصولًا ومبادئ وأحكامًا عامة لا بد من رعايتها والمحافظة عليها في كل زمان ومكان، وأما التفاصيل الجزئية لنظم الحكومة فقد أُتيح للأمة الإسلامية أن تختار منها ما يلائم ظروفها في كل عصر ومصر، بشرط أن تكون تابعة في كل ذلك للأصول والمبادئ والأحكام التي شرعها الإسلام في نصوص القرآن والسنة وفي سنة الخلفاء الراشدين المهديين[٢٩]، وهي:

أولًا- إنِ الحكم إلا لله:

بناء على هذا الأساس لا يجوز إصدار قانون يصادم أحكام الله سبحانه وتعالى المشروحة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذا المبدأ هو الذي يميز النظام السياسي الإسلامي عن كل من الديمقراطية والدكتاتورية، فإن الديمقراطية تفوض الحكم إلى الشعب دون أي قيد، والدكتاتورية تفوضه إلى الحاكم، أما في الإسلام فإن سلطة الحاكم مقيّدة بالشرع، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

---

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) التفسير السياسي للإسلام، ص (١٠٧) نقلًا عن تكملة فتح الملهم: (٣/ ٢٧١).

(٢٥) تكملة فتح الملهم (٣/ ٢٧٢).

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع نفسه.

(٢٨) هذا المبحث مأخوذ من كتاب تكملة فتح الملهم (٣/ ٢٧٣ – ٢٧٧).

(٢٩) ذكر شيخنا محمد تقي عثماني في مقدمة هذا الفصل أنه لا يوجد في الإسلام شكل خاص للحكومة ولا منهج خاص بجميع التفاصيل الجزئية. واعترض بعض مشايخنا على هذا الإطلاق بأن العلمانيين إنما يلجون من مثل هذه الإطلاقات لنفي أن يكون في الإسلام نظام حكم. وليس هذا ما قصده شيخنا هنا، لذلك ابتعدت عن هذا الإطلاق.

ثانيًا- نصب الإمام مفوض إلى اختيار أهل الحل والعقد:

ليست الخلافة وراثة كما الإمبراطورية، ولا مبنية على أساس القوة العسكرية كما الديكتاتورية، ولا مفوضة إلى رأي الجهال والحمقى كما في الديمقراطية الحديثة[٣٠]، وإنما هي مفوضة إلى أهل العلم والخبرة والتجربة الذين لهم عقل ورأي في الأمور الاجتماعية، وفي ذلك يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين فلا يبايَعُ هو ولا الذي بايعه تغرَّةً أن يقتلا)[٣١]، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (أي حذرًا من القتل، والمعنى أن من فعل ذلك فقد غرَّر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل)[٣٢]، وفي مصنّف ابن أبي شيبة[٣٣] أن عمر رضي الله عنه قال: (إني قد عرفت أن أناسًا يقولون: إن خلافة أبي بكر فلتةٌ، وإنما كانت فلتةً، ولكنّ الله وقى شرَّها، إنه لا خلافة إلا من مشورة)[٣٤].

ثالثًا- يجب أن يكون الحاكم عادلًا:

وقد ذكرنا سابقًا الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم فلا حاجة لإعادتها هنا، وهو على العكس تمامًا مما نجده اليوم من أنظمة الجمهوريات القائمة التي لا تشترط في رئيسها أوصافًا منضبطة من العلم والعدالة، فلا مانع في هذا النظام من انتخاب الجهّال والفسّاق الدعرة رؤساءَ دولة.

رابعًا- الحكم مسؤولية وليس مكسبًا:

الحكم مسؤولية وليس حقًّا يَطْلُبُ الرجلُ من ورائه منفعةً دنيوية، فالإمارة أمانة خطيرة بيد الحاكم، وعهدة كبيرة في عنقه، وإلى ذلك أشار الله سبحانه وتعالى بقوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبي ذر رضي الله عنه: ((يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها))[٣٥].

خامسًا- لا يفوَّض الحكم إلى من يطلبه:

في الإسلام طالبُ الولاية لا يُولَّى، وقد حدَّث عبد الرحمن بن سَمُرَةَ رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له: ((يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وُكِلْت إليها، وإن أُعطيتَها من غير مسألة أُعِنْت عليها))[٣٦] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي صلّى الله عليه وسلّم أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عزّ وجلّ، وقال الآخر مثل ذلك، فقال صلّى الله عليه وسلّم: ((إنّا والله لا نُولّي على هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه))[٣٧].

سادسًا- الشورى ووجوب المشاورة:

الشورى واجبة على الإمام بحكم قوله تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩] حتى ذكر الفقهاء أنه لو ترك المشاورة استحق العزل، وحكى ابن عطيّة فيه الإجماع، فقد نقل عنه العلامة أبو حيّان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط) عند هذه الآية قوله: (إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف له). ولن ندخل في خلاف العلماء حول إلزامية الشورى أم عدمها فهو أمر يترك لتقديرات الظروف من حيث استجماعُ الإمام لشروط الاجتهاد وعدمُه.

---

(٣٠) سئل بسمارك عن مفهومه للديمقراطية، فقال الديمقراطية تعني أن عشرة حمير يغلبون تسعة بسمارك.

(٣١) البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا، ح (٦٨٣٠).

(٣٢) فتح الباري، (١٢/ ١٨٣).

(٣٣) كتاب المغازي، باب خلافة أبي بكر.

(٣٤) قوله (فلتةً) أي: فجأة. ومقصده من ذلك منع الناس من القياس على مبايعة أبي بكر التي كانت من غير سابق مشورة بين المؤمنين، وإنما كانت في وقتها بمبادرة من سيدنا عمر لتدارك الموقف، وقد سلم الله تعالى بأن رضي الله المؤمنون جميعًا بذلك، وأما بعد ذلك فلا يُبايع إمام إلا بعد مشاورة أهل الحلّ والعقد.

(٣٥) مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة لغير الضرورة.

(٣٦) مسلم، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها.

(٣٧) المرجع السابق.

وعي العيش المشترك في المجتمع السوري

د. محمد نور حمدان
دكتوراه في الفقه الإسلامي - محاضر في جامعة الزهراء

وعي العيش المشترك في المجتمع السوري [1]

يتميز المجتمع السوري بكونه مجتمعًا تعدديًّا متنوع الثقافات والأعراق والديانات، ففيه العربي والكردي والتركماني والشركسي...، وفيه المسلم والنصراني والأقليات الأخرى المختلفة، إذًا نحن أمام مجتمع فيه أطياف كثيرة ازدادت بالثورة السورية يوم قدمت إلى سورية شخصيات من جنسيات مختلفة، استقروا فيها ولا يريدون الرجوع إلى بلادهم، فنحن أمام خريطة سورية جديدة تحوي كثيرًا من التنوع والتعدد، فهل هذا التنوع عامل إيجابي أم سلبي؟ وهل هي عامل بِناء أم هدم؟ وكيف يمكن استثمار هذا التنوع في العيش المشترك وتوظيف هذا التنوع في بناء سورية لا في هدمها؟ وكيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع مجتمع المدينة المنورة، وكيف عامل الخلفاء الراشدون المجتمعات الجديدة في البلاد التي فتحوها؟

جميع هذه الأسئلة سأجيب عنها في محاور أربعة:

الأول: الاختلاف سنة كونية فطر الله الناس عليها.

الثاني: مجتمع المدينة وكيف تعامل معه الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثالث: الفتوحات الإسلامية وكيف تعامل الصحابة مع المجتمعات في تلك البلاد. **الرابع:** أسس وقواعد الحياة المشتركة.

التعددية فطرة ربانيَّة

إن تعدد المجتمعات وتنوعها فطرة فطر الله الخلق عليها، وقد أشار الله إلى هذا الاختلاف في موضعين:

الأول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣]. أشار الله تعالى إلى التنوع في الجنس البشري (ذكر، أنثى)، والتنوع في الشعوب (عربية وغربية وإفريقية وآسيوية تركية وكردية)، والتنوع في الشعب الواحد إذ ينقسم إلى قبائل، وبين الله عز وجل أن غاية هذا التنوع والاختلاف هو التعارف والتعاون لا التدابر والتخاصم.

الثاني قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: ٢٠ و٢٢]، بيّن الله -عز وجل- أن الأصل الإنساني واحد ثم حصل التنوع والانتشار، وأن هذا التنوع لم يكن في الناس فحسب بل كان في المخلوقات الأخرى، فأشار الله -عز وجل- إلى التنوع في الجمادات (السموات والأرض)، ثم ذكر تنوع اللغات (ألسنتكم) والألوان (أبيض، أسود، أحمر، أصفر) وأنَّ ذلك من البراهين الإلهية ودلالات القدرة، فالتعددية هي فطرة فطر الله الناس والمخلوقات كلها عليها على جميع المستويات.

(١) هذه الورقة ألقيت في مناطق درع الفرات وغصن الزيتون صيف عام ٢٠١٩ في ست مناطق (عفرين- جرابلس- الباب- إعزاز- مارع- المخيمات) في دورات تنوير الدعاة والمرشدين التي يقيمها وقف الديانة التركي بالتعاون مع جامعة الزهراء، وحضر هذه الدورات حوالي ١٠٠٠ داعية من الرجال والنساء.

مفهوم التعددية:

إن التعددية لها مفهوم وسط محمود يقابله طرفان ذميمان، الطرف الأول هو الاختلاف والتشرذم والتخاصم، فقد يؤدي التنوع إلى التشرذم والتخاصم والاقتتال، وهذا معنى ذميم للتعددية، والطرف الثاني حمل الناس على نمط موحد في الحياة وإلزامهم بعادات وتقاليد واحدة أو الحديث بلغة واحدة أو الالتزام بلباس موحد، وهذا ما عملت عليه القوميات في القرن الماضي، ففكرة القومية تقوم على توحيد الشعوب بإلزامها بالحديث بلغة واحدة وحملها على عادات واحدة وثقافة واحدة، وقد أخفقت النظريات القومية لأنها جاءت معاندة للفطرة التي خلق الله الناس عليها.

التعددية في الشرائع:

إن التنوع لم يكن في الخلق فحسب بل كان في الشرائع الدينية رغم أن مصدر الشرائع واحد وهو الله عز وجل، إلا أن الشرائع كانت مختلفة من نبي إلى آخر، فجاءت الشرائع ملاحظةً اختلاف البيئات والزمان والمكان لتحقيق مصالح الناس وحاجاتهم، فالشرائع الربانية تدور مع المصلحة المعتبرة حيثما دارت وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله؛ إن شريعة آدم عليه السلام تختلف عن شريعة موسى وشريعة موسى تختلف عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فزواج الأخ من أخته كان مباحًا في شريعة آدم لهدف واحد هو زيادة النسل البشري، فلما تحققت هذه المصلحة نسخ هذا الحكم، وفي شريعة موسى عليه السلام حرِّم أكل الشحوم والصيد يوم السبت وأبيح ذلك في شريعتنا، فالكثير من الشرائع اختلفت نظرًا لخصوصية الزمان والمكان، قال الله تعالى عن الأنبياء {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا} [الشورى: ١٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ))[٢] فالشرائع الدينية تعددت لكن ضمن مرجعية واحدة هي دين الله عز وجل، وهذا ما يؤكد دور المرجعية في المجتمع المتعدد وأهميتها، فرغم وجود المجتمع متعدد الأطياف لا بد من مرجعية واحدة يرجع إليها الشعب حتى لا يؤدي التعدد إلى الاختلاف والتفرق والتشرذم والانفصال.

إن المجتمع السوري مجتمع متنوع في العرق والدين والبيئة، وإنما يحمي التعددية من التفرق والتشرذم والتخاصم وجود مرجعية واحدة يلجؤون إليها عند الاختلاف، وهذا ما يعبر عنه بالدستور، فالدستور الذي يتوافق عليه المجتمع يحميه من التفرق والانفصال، فكيف كان الدستور الأول في الإسلام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها أديان وأعراق شتّى؟

مجتمع المدينة والحياة المشتركة

عندما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة وجد مجتمعًا متنوعًا متعددًا دينيًّا وعرقيًّا وقبليًّا، كانت يثرب قبل الهجرة قبيلتين عربيتين -هما الأوس والخزرج- وثلاث قبائل يهودية، وكانت القبيلتان العربيتان في صراع دائم، وكانت القبائل اليهودية تغذي هذا الصراع، وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ازداد المجتمع تنوعًا، فعلى مستوى الدين أصبح المجتمع يضم المسلمين واليهود والمشركين عبدة الأوثان، وعلى المستوى القبلي انضم المهاجرون إلى هذا المجتمع الجديد وهم من قبائل متنوعة، وضم المجتمع أعراقًا جديدة دخلت الإسلام مثل بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي؛ فكيف حكم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المجتمع المتنوع المختلف في الثقافات واللغات والأديان والأعراق، وكيف وظف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاختلاف لبناء المجتمع لا لهدمه كما كان حاله قبل الهجرة النبوية؟

أول عمل قام به -رسول الله صلى الله عليه وسلم- لتحقيق الانسجام والتفاهم في هذا المجتمع المتنوع هو كتابة وثيقة المدينة المنورة، وهذه الوثيقة كانت بمنزلة دستور يضبط الدولة الناشئة ويبين حقوق كل فرد وواجباته، فهي عقد اجتماعي اتفق عليه أفراد المجتمع كلهم لبيان حقوقهم وواجباتهم وحل مشكلاتهم بدلًا من حلها بالسلاح والنزاع، فكانت الفصلَ فيما شجر بينهم.

نشأةُ الدولةِ هذه في المدينة المنورة تظهر لنا جليا أهمية الدستور في بناء المجتمع السوري لأنه مجتمع يحتاج إلى ضابط يتوافق عليه الناس، وقد كان من أهم أسباب قيام الثورة عدم وجود دستور عادل تتحدد فيه واجبات المجتمع وحقوقه بأطيافه

(٢) رواه البخاري.

كلها ويضمن فيه جميع أفراد المجتمع العيش بحرية وعدل وسلام ومساواة، وتلك أول خطوة في بناء المجتمع المتنوع، فالدستور المتوافق عليه يحمي المجتمع السوري من الاختلاف لأنه وثيقتهم التي يرجعون إليها.

نصت وثيقة المدينة المنورة على أن أفراد المجتمع جميعًا أمة واحدة، وحملتهم مسؤولية الدفاع عن المدينة المنورة ضد أي خطر خارجي يهددها: ((المؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس)). وحافظت الوثيقة على عادات القبائل وديانات غير المسلمين، جاء فيها: ((إن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم))، ودخل اليهود في معاهدة الدفاع المشترك عن المدينة ضد أي عدو: ((إن يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن على يهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم)) فهذا نصٌّ على ضمان العيش المشترك والدفاع المشترك واحترام خصوصيات الأديان والثقافات المتنوعة في مجتمع المدينة الواحد، ثم أكدت الوثيقة وجوب الرجوع إلى المرجعية الواحدة عند الاختلاف أو الاختصام، فنصت على ((أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله)) وهذا مطلب مهم في المجتمع المتعدد، لا بد من الرجوع إلى مرجعية واحدة عند النزاع لئلا تؤدي هذه التعددية إلى توسع الشقاق، فالحكم النهائي في كل ذلك هو حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه حاكمًا على غير المسلمين ولكونه نبيًّا وحَكَمًا وولي أمرٍ عند المؤمنين به.

مجتمع المدينة المنورة والمنافقون

ظهر في مجتمع المدينة المنورة فئة جديدة تظهر الإسلام وتبطن الكفر، تصلي في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتواصل سرًّا مع العدو الخارجي، تنشر الشائعات وتبث الذعر في المدينة المنورة وتنتظر في كل لحظة إعلان قتل الرسول ودخول المشركين إلى المدينة المنورة، فكيف تعامل الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع هذه الفئة؟

لقد تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذه الفئة معاملة المسلمين، فعاملهم حسب ظاهرهم رغم تحذيره الشديد من خطرهم، ونزلت كثير من الآيات لتفضح نفاقهم، ورغم معرفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لهؤلاء المنافقين لكنه أراد أن يعلم الحكام من بعده أن التعامل مع أفراد المجتمع يكون بالظاهر، فإذا لم يصدر عنهم ما يدل على فسادهم وخبثهم وخيانتهم ومكرهم فوصْف الإسلام والمواطنة قائمان فيهم، وصرح الرسول بهذا الحكم في أكثر من مناسبة عندما كان الصحابة يشيرون عليه أن يقتل بعض المنافقين لا سيما زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول حتى إن ابنه عبد الله -وكان مؤمنًا- طلب ذلك، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((معاذ الله أن تتسامع الأمم بأن محمدًا يقتل أصحابه))[٣] فالتعامل مع المنافقين لا يكون حسب بواطنهم ومعتقداتهم وإنما بحسب ما يظهرون من أعمال، وهكذا يجب أن يكون التعامل مع المجتمع المتعدد المتنوع حتى لا يؤدي ذلك إلى الشقاق والانقسام والخلاف في المجتمع الواحد، فهذه الفئة تظهر في كل زمن وحين، وقد وجد في المجتمع السوري فئة من هؤلاء الناس يعيشون في مناطق المعارضة وينعمون بأجواء الحرية فيها وقلوبهم مع النظام المجرم، يؤيدونه في إجرامه ويشفي غليلهم مقتل الأبرياء والمدنيين، فهذه الفئة في مناطق الثوار تنتظر لحظة اجتياح النظام وقوى الاحتلال مناطقنا حتى تميل على المعارضة وتقاتل في صفوف الأسد.

> " التعامل مع المنافقين لا يكون حسب بواطنهم ومعتقداتهم وإنما بحسب ما يظهرون من أعمال "

(٣) رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ.

> " ولم ينقل التاريخ إكراه أحد من الخلفاء الراشدين أمةً أو فردًا ما على الدين بل أبقوا لهم كنائسهم وأماكن عبادتهم "

مثل هؤلاء لا يجوز أن نتعامل معهم حسب اعتقاداتهم وآرائهم وإنما بحسب ما يظهرون من أعمال كباقي فئات المجتمع، وإلا أدى ذلك إلى الفساد وكان وسيلة إلى ظلم الناس وأخذهم بالظنون والاتهامات، وعندئذ تتولد الشكوك وتنعدم الثقة في هذا المجتمع، وقد وقع عدد من هذه القضايا في المناطق المحررة فألقي بعض الناس في السجون بتهمة التأييد للنظام المجرم أو التأييد لداعش، فلا يجوز إلقاء الناس في السجون بسبب الفكر إلا إن وجد ما يدل على تجسس أو خيانة أو عمالة أو مشاركة بالقتل، فالفكر يقابل بالفكر والسلاح يقابل بالسلاح، ولا حساب إلا على الأعمال، وهذا ما عامل به الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقين.

الفتوحات الإسلامية والمجتمعات الجديدة

بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم بدأت الفتوحات، وأخذت الدولة الإسلامية تتسع حيث فتحت بلاد الشام وفارس ومصر والعراق، فكيف عامل الصحابة المجتمعات الجديدة والبلاد التي فتحوها؟ هل أرغموا أهلها على الدخول في الإسلام أو على تغيير دينهم ولغاتهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم؟ وهل هدموا أماكن عباداتهم؟

إن التاريخ شاهدٌ على أن المسلمين عندما فتحوا هذه البلاد لم يرغموا أمة أو مجتمعًا على تغيير عاداته ودينه ومعتقده التزامًا بقول الله تعالى: {لا إكراه في الدين} [البقرة:٢٥٦] بل تركوهم وما يدينون، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، ولم ينقل التاريخ إكراه أحد من الخلفاء الراشدين أمةً أو فردًا ما على الدين بل أبقوا لهم كنائسهم وأماكن عبادتهم، والواقع أكبر دليل على ذلك فهذه بلاد الشام والعراق ومصر وتركية، فيها آثار عمرها آلاف السنين، وفيها تماثيل كثيرة وقد مر على هذه البلاد صحابة كثيرون لكن لم ينقل عن أحد منهم أنه هدمها بل بقيت قائمة في ظل دولة المسلمين، وعندما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلاد فارس والروم واستشار أهل الشورى ماذا يصنع بالمجوس وهم عباد النار، قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت سول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((سنوا بهم سنة أهل الكتاب))[٤]، فكانت سنة ماضية في معاملة غير المسلين سواء كانوا وثنيين أم أهل كتاب.

والمجتمع السوري مجتمع متنوع من حيث الدين؛ ففيه أهل الكتاب وفيه الأقليات المختلفة، فالواجب الاعتراف بهذه الأقليات وحماية خصوصياتها وعدم إكراه أحد على تغيير دينه ومعتقده، فالمجتمع السليم هو الذي يقوم على الحوار واحترام خصوصيات الآخرين: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}. [النحل:١٢٥]

أسس الحياة المشتركة في المجتمع السوري

يمكن أن نَصُوْغَ أهمَّ المعايير التي يمكن أن تؤسس لضمان العيش المشترك في المجتمع المتعدد المتنوع:

١ – وجود مرجعية واحدة تحتكم إليها جميع الأطراف والفِرق (الدستور).
٢ – الاعتراف بالآخر وبهويته ووجوده.
٣ – احترام الآخر وخصوصياته وثقافته وعاداته وتقاليده ولغته.
٤ – الحوار واحترام الرأي الآخر، فنلتقي فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.
٥ – الاحتكام عند الخلاف إلى القضاء المحايد.
٦ – زرع القيم الفاضلة في نفوس الناس (العدل، المساواة، الشورى، الحرية، الأمانة، النزاهة، التسامح، حرمة الدماء والأموال والأعراض، الإحسان إلى الجوار، نصرة المظلوم).

هذه المعايير ونظائرها جديرة بتأسيس قواعد العيش المشترك بين أفراد المجتمع مهما تعددت ألوانه وأطيافه وطوائفه وأديانه.

(٤) انظر موطأ الإمام مالك ومسند الشافعي

علاقة المنفعة بالعلم والإيمان والتشريع:

كانت السنة النبوية واضحة بأنَّ العمل والتطبيق في كل ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة الدنيا وفي كل ما يؤدي إلى السعادة في الآخرة هما الثمرة المتوخَّاة من العلم، وهو عينُ ما فقهه الجيل الأول من الكتاب والسنة، وإن فهمًا كهذا لَيَصُون الإنسان عن الخوض فيما لا ينفعه أو فيما ليس من شأنه وطاقته؛ لئلا يضيع وقته في جدل عقيم أو في تصوُّراتٍ لا تسمن ولا تغني من جوع، وقد تعوَّذ الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه من علم لا ينفع.

ومما يرشد إليه التوجيه القرآني والنبوي باستمرار الاهتمام بالعمل والنتائج وكل ما هو نافع دون البحث عما ليس في مُكْنة الإنسان: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [النازعات/ ٤٢] فالسؤال كان عن وقتها، وهذا في علم الله سبحانه وحده، وحسب الإنسان أن يعلم أنها واقعة وأنها أمارةٌ على الحساب، ولما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عنها قال للسائل: ((ماذا أعددت لها؟))، مُعرِضًا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق به مما فيه فائدة للسائل، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]، وهذا يفيد أنهم لم يجابوا إلى سؤالهم؛ فهو مما لا يُحتاج إليه في التكليف، وأي نفع يؤمَّل من معرفة جواب كهذا في سياق الجهود التربوية الإسلامية التي يتوخَّى منها جلب المصالح ودرء المفاسد، وهي عينُ الاستقامة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

إن الإسلام يعلمنا دائما أن المطلوب هو المعرفة النافعة التي تسهم بوضوح في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وقد أعطانا الله -سبحانه وتعالى- العقل والفكر لنستخدمهما فيما ينفع ويفيد، روى الإمام مالك عن القاسم بن محمد بن أبي بكر أنه قال: (أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل)، ويروي الإمام الزهري عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- أنه كان إذا سئل عن أمر يقول: (أكان هذا؟)؛ فإن قالوا: نعم، حدَّث فيه بالذي يعلم؛ وإن قالوا: لم يكن، قال: (فذروه حتى يكون)، ومن هذا الفقه العملي عند أئمة أهل السنة أنَّ الإمام مالك رحمه الله قال: (أكره أن ينسب أحد حتى يبلغ آدم ولا إلى إبراهيم، ومن يخبره من بينه وبين إبراهيم؟!)، فهو يرى أن الانشغال بأنساب مظنونة ترف لا يغني شيئًا، واشتهر عنه أيضًا أنه: (كان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل).

وأكدت التوجيهات النبوية أن على المسلمين ألا يخوضوا في أمور لن يصلوا منها إلى نتيجة، بل قد تؤدي بهم إلى التهافتِ والضَّلال، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يزال الناس يسألون، يقولون: ما كذا ما كذا؟ حتى يقولوا: الله خالق الناس فمن خلق الله؟ فعند ذلك يضلون))، وفي رواية البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته))، وجاء في الأثر: ((تفكروا في المخلوق، ولا تتفكروا في الخالق))، قال الإمام ابن تيمية: (لأن التفكير والتقدير يكون

في الأمثال المضروبة والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات، وأما الخالق -جل جلاله- فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة)، والله سبحانه يُعرف بآثاره وصفاته وأسمائه ولا يُسأل عن كنهه، فالشرع الكريم حينما حث على التفكر قصد التفكر في خلق الله الذي يؤدي إلى تعظيم الخالق والخضوع له ولدينه وشرعه، وليس التفكر في ذات الله وقياسه على المخلوقات حيث تنبت الوساوس وتنتهب صاحبها حتى يضل، فهذا تفكُّر لا نفع فيه، بل فيه من الضرر ما فيه، يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: (إن ما يشتمل عليه الكتاب والسنة من أخبار عالم الغيب إنما قصد منه لفت العقول والقلوب إلى ما وراء المحسوس حتى يؤمنوا به مجملًا، ثم يقبلوا إلى تعلم علم يرجون منه دراية وعملًا...، إنه أجدر بأهل العلم في الأمة الإسلامية الاهتمام بتمحيص ما ينبني عليه عمل نجيح أو اعتقاد صحيح، وأن يوفروا زمانهم فيما هم إليه أحوج؛ فإن الزمان نفيس).

هذا في العلم، وأمَّا الإيمان والتشريع فكانت دلالة القرآن الكريم على أهمية ما فيهما من منافع أصرحَ وأوضح، فلم تقتصر الآيات على بيان الثواب أو العقاب في الآخرة بل ذكرت آثار الإيمان والتقوى ومنافعها الدنيوية والأخروية، وحذرت من الكفر وعدم شكر النعم، وبينت أضرار ذلك في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف/ ٩٦]، {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء/ ١٠٥]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل/ ٩٧]، ومن الحياة الطيبة التمكين في الأرض للصالحين ووفرة الخيرات في الأرض والصحة النفسية التي تساعد على الصحة الجسدية، ثم إنَّهُ لا أدلَّ على عدِّ المنفعة أصلًا في باب الامتثال للأوامر الشرعية من اعتبار تطبيقها نفسه حياةً للناس {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة/ ١٧٩].

وبضدِّها تتميز الأشياء، وإن أهمية المنافع في الإيمان والتشريع كما دلَّ عليها القرآن الكريم لتتجلَّى في الأضرار المترتبة على الإعراض عن مقتضى الإيمان والتشريعات الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد، تأمَّله وهو يصف الشقاء الذي يقع فيه الذين يبتعدون عن الإيمان والأعمال الصالحة {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه/ ١٢٤]، ناهيك عن التمزق والفرقة والشقاق والشقاء في الدارين {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام/ ١٥٩]، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية/ ٢١].

وإمعانًا في تجلية موقع المنفعة من الإيمانِ نعى الله سبحانه على من يعبدون أوثانًا لا تضر ولا تنفع، فالاستدلال بما للإيمان بالشيء من منافع برهانٌ معقول، وكم في الإعراض عنه من دلالةٍ على منتهى جهل القوم وضعف عقولهم {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩١-١٩٢]، بل قد بلغ بهم جهلهم بأهمية مكانة المنفعة في الإيمان أنهم عبدوا عجلًا جسدًا له خوار: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [طه/ ٨٩]، فما الذي دهاهم ومعيارُ النفع والضرر مؤشِّرٌ فطري في الإنسان! فالإنسان يختار ما ينفعه ويبتعد عما يضره بفطرته، اللهمَّ إلا اذا انحرفت فطرته فأصبح يميل إلى الأشياء الضارَّة.

المنفعة والطبيعة في القرآن:

أفاض القرآن الكريم في ذكر الطبيعة موجِّهًا الأنظار إلى آثارها النافعة، مذكِّرًا الإنسان بما فيها من منافع ونِعم حباها الله له كي يتمتع بها ويشكره عليها؛ فينبغي عليه أن يستفيد منها ويستثمرها ويستدل بآثار تلك المنافع على المؤثِّر، وهذا يظهر أهمية المنفعة وأثرها في تقدير القرآن لقيمة الطبيعة: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل/ ١٠-١٢]، والإنسانُ أعنى بالغوص في أعماقِ الطبيعة ليقدرها قدرها من خلال آثارها ثم يستدل بالأثر على المؤثر: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا

مِـنْ فَضْلِـهِ وَلَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ} [فاطـر/ ١٢]، {وَأَنْـزَلَ لَكُـمْ مِـنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَنْبَتْنَـا بِـهِ حَدَائِـقَ ذَاتَ بَهْجَـةٍ} [النمـل/ ٦٠] فالمسـلم ليـس في صراع مـع الطبيعـة، بـل إنَّ للغايـات الإيمانيـة العليـا الكامنـة في الطبيعـة ارتباطًـا بالعلـم المـادي، ومـن ثَـمَّ فـإنَّ لهـا بعدَهـا النفعـيَّ الدنيـوي والأخـرويّ.

الغرب والمدرسة البراغماتية

رائـدُ هـذا المذهـب أو هـذه النظريـة الفيلسـوف البريطـاني جيريمـي بنثـام (١٧٤٨-١٨٣٢م)، وخلاصـة هـذا المذهـب كـما يقـول أحـد فلاسـفته تشـارلز بـيرس أنَّـه «إذا كان لديـك فكـرة، وأردت تحديـدًا لمضمونهـا، فانظـر مـاذا عسـى أن يكـون لهـا مـن نتائـج تطبيقيـة في دنيـا العمـل، قـم اجمـع هـذه النتائـج يكـن لـك قـوام فكرتـك»[١]، أي عوضًـا عـن التسـاؤل عـن مصـدر الفكـرة وأصلهـا تتسـاءل البراغماتيـة عـن النتائـج والثمـرة، فالفكـرة هـي صـواب إذا كانـت نتائجهـا ممـا يسـعف ظـروف حياتنـا العمليـة ويفيدنـا في حـل مشـكلاتنا، يقـول الفيلسـوف البريطـاني فرانسـيس بيكـون: «إن إنفاقـك في الدراسـة النظريـة وقتًـا طويـلًا هـو ضربٌ مـن الكسـل والخمـول ومحبـةٌ في الظهـور».

وهـذا يعنـي أنَّ عـلى الإنسـان أن يتجـه نحـو الأفـكار التـي لهـا تطبيق عمـلي في دنيـا الواقـع، وأن يبتعـد عـن الإغـراق في التنظـير أو حفـظ معلومـات لا تفيـد شـيئًا في الحيـاة العمليـة، يقـول أحـد دعاتهـم المشـهور باهتماماتـه التربويـة جـون ديـوي: «خـيرٌ مـن أن يحفـظ الطالـب أسـماء جبـال منطقـة المتجمـد الجنـوبي نعلمـه كيـف يـربي حيوانًـا أو كيـف يـزرع نباتًـا».

لقـد أفـاد هـذا الاتجـاه في البـلاد التـي ظهـر ونشـأ فيهـا أكثـر مـن غيرهـا مـن البـلاد الأخـرى، وهـذا مـا جعـل الفيلسـوف الفرنسـي غوسـتاف لوبـون يصـف الشـعب الإنجليـزي بأنـه «ذو تصـور صحيـح يسـمح لصاحبـه بـإدراك الجهـة العمليـة في المحسوسـات ولا يضـل في أبحـاث وهميـة»[٢]، وهـو يعنـي بالذيـن يضلـون في أبحـاث وهميـة الشـعب الفرنسـي.

ولكـن هـذا المذهـب النفعـي -أو الذرائعـي كـما يوصـف أيضـا- وإن أفـاد حـين ابتعـد عـن التنظـير الكثـير، إلا أنـه تطـرف في الاتجـاه المـادي الـذي لا يبـالي بالمبـادئ، فقـدس الفكـرة بمقـدار مـا تقـدم مـن نفـع دنيـوي، وتطـرف أيضـا في تمجيـد النزعـة الفرديـة عـلى حسـاب المجتمـع، ولم يكتـف بذلـك حتـى أدخـل الديـن أيضـا في دائـرة النفـع، يقـول كبـير فلاسـفة البراغماتيـة الأمريكيـة «وليـم جيمـس» متحدثًـا عـن الديـن: «إذا كان فيـه نفـع لنـا يريـح ضمائرنـا ويبعـث فينـا القـدرة والرجـاء والخيريـة ويطابـق أشـواقنا النفسـية، فـلا بـأس بـه». وهـو لا يتحـدث عـن ديـن معـين بـل يقصـد أي ديـن، يقـول: «نحـن نـرى المؤمـن متفائـلًا مسـتبشرًا بحياتـه، وهـو عـلى خـلاف زميلـه المنكـر للديـن الـذي نـراه متشـائما منقبـض النفـس معـدوم الرجـاء، فهـذا يجعـل لعبـارة الديـن معنًـى»، أي لا بـأس أن نؤمـن بـالله في المسـائل التـي لا تثبـت بالتجربـة العمليـة إن كان هـذا الإيـمان يسـاعدنا في بعـض جوانـب حياتنـا الماديـة، فالحـق أصبـح عنـد «جيمـس» وأمثالـه كالسـلعة، قيمتهـا ليسـت في ذاتهـا بـل في الثمـن الـذي يدفـع فيهـا.

إن النفعيـة البراغماتيـة قـد توفـر النفـع في ميادين خاصـة، ولكنهـا تفـرز شرورًا وأضرارا جسـيمة في ميادين أخـرى، وهـذا شيء طبيعي في كل نظريـة إنسـانية تبتعـد عـن منهـج النبـوات والوحـي السـماوي وإن كان فيهـا جـزء مـن الحـق.

ورغـم اعتـداد الإسـلام بالنفـع المـادي للإنسـان واعترافـه بـه إلا أنـه لا يقـرُّ أبـدًا الحالـة المتطرفـة التـي وصـل إليهـا التيـار النفعـي المعـاصر لسـببين:

الأول: في حيـاة الإنسـان السـوي مبـادئ عليـا لا تجـر نفعـا ماديًـا، منهـا قـول الصـدق ولـو أدى إلى ضرر شـخصي للمسـلم، وقـول كلمـة الحـق أمـام سـلطان جائـر، والعمـل التطوعـي والعمـل الخـيري ولـو أدى إلى خسـارة الإنسـان كثـيرًا مـن مالـه ووقتـه، وكذلـك العمـل الدعـوي ولـو أدى إلى اضطهـاد الدعـاة أحيانًـا وتعرضهـم لأنـواع الأذى، فإنهـم يصـبرون ويتحملـون وليـس وراء ذلـك نفـع مـادي.

الثـاني: هنـاك أمـورٌ في الإسـلام تتـولى نصـوص الـشرع تحديـد النافع والضـار منهـا، فيكـون الـضرر والنفـع مـا يقـدره الـشرع ويحـدده لا مـا تقـضي بـه مخرجـات العمـل فقـط ولا مـا يحـدده مذهـب أو طريقـة مـا، والـشيء النافـع الـذي يحـدده الـشرع هـو المنسـجم مـع سـنن الله الكونيـة والتصـور الإسـلامي للوجـود، والله تعـالى أعـلى وأعلـم.

(١) زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، ٤٤.
(٢) سر تطور الأمم، ٩٧.

أحاديث الإفك

د. أسامة جادو
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الزهراء

للمؤمنين الصادقين منهاج في التثبت من الأخبار، فليس كل حديث يترامى إلى سمعهم يلقى عندهم القبول بل عليهم أن يتثبتوا؛ فإن بدا لهم صدق القول وعدالة الناقل تلقوه بقبول حسن، وإلا ردوه على قائله أو ناقله.

قواعد الصادقين في التعامل مع أحاديث الإفك

الأولى: التثبت والتبين، الثانية: حسن الظن بالمؤمنين، الثالثة: إمساك اللسان عن الخوض في أعراض الناس والقول فيهم بغير علم، الرابعة: تجنب تدليس أهل العلم و طلابه، الخامسة: ناقل الكذب والفاحشة مشارك فيهما لا يعفيه من ذلك إلا البيان الواضح ووصف المنقول أو الخبر بالكذب. السادسة: ملاحقة الأفاكين ومحاصرة أحاديث الإفك.

> " فالعلم ليس مجرد خبر مرَّ على مسمع الإنسان وصادف رغبة دفينة عنده فصار متيقنًا منه متحدثًا به، ثم انقلب ناشرًا له مدافعًا عنه "

القاعدة الأولى: التثبُّت والتبيُّن

ليس كل قول يقبل من قائله، وليس كل خبر يصدق، بل يجب التثبت بالتحقق من استيفائه لشروط الضبط وصحة النقل، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات:٦]، وروى الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية عن الحارث بن ضرار الخزاعي سيد بني المصطلق -والد السيدة جويرية أم المؤمنين رضي الله عنهما- أنه قَالَ: (قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَدَخَلْتُ فِيهِ، وَأَقْرَرْتُ بِهِ، فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ، فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي، فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَسُولًا لِإِبَّانَ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ، فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِيَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَبَعَثَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى

بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ فَرَجَعَ، فَأَتَى رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنَ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ، قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً وَلَا أَتَانِي، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((مَنَعْتَ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟)) قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ؛ قَالَ: فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ، فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦] إِلَى هَذَا الْمَكَانِ: {فَضْلًا مِنَ الله وَنِعْمَةً وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات:٨][1]. تأمل الآية الكريمة وسبب نزولها والتوجيه القرآني للأمة العاصم لها من القواصم صونًا لدماء الناس وأعراضهم وأموالهم وحفظا لحقوقهم أن تنتهك بخبر غير صحيح غابت عنه معايير الدقة والضبط ولم يرق إلى درجة القبول والعمل.

إن التَّبيُّن مرتبة من مراتب وصول العلم، ويراد بها تنقيح ما يحصل من العلم بعد الالتباس، فالعلم ليس مجرد خبر مرَّ على مسمع الإنسان وصادف رغبة دفينة عنده فصار متيقنًا منه متحدثًا به، ثم انقلب ناشرًا له مدافعًا عنه؛ بل لا بد من أن نعلم بأن خطر الأمر يستلزم درجة كبيرة من اليقين والتثبت، يقول الإمام الكفويُّ: (اعلم أنّ مراتب وصول العلم إلى النّفس: الشُّعور ثمَّ الإدراك ثمَّ الحفظ ثمَّ التَّذكُّر ثمَّ الذِّكر، ثمّ الرَّأي وهو استحضار المقدّمات وإجالة الخاطر فيها، ثمّ التّبيّن وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثمّ الاستبصار وهو العلم بعد التّأمّل)[2] وقال العلامة الطاهر بن عاشور في قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا} [النساء:٩٤] (التَّبَيُّنُ شِدَّةُ طَلَبِ الْبَيَانِ أَيِ التَّأَمُّلِ الْقَوِيِّ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ صِيغَةُ التَّفَعُّلِ، وَالتَّثَبُّتُ هو التَّحَرِّي وَتَطَلُّبُ الثَّبَاتِ وَهُوَ الصِّدْقُ)[3] وجاء في فتح القدير: (وَالْمُرَادُ مِنَ التَّبَيُّنِ التَّعَرُّفُ وَالتَّفَحُّصُ، وَمِنَ التَّثَبُّتِ الْأَنَاةُ وَعَدَمُ الْعَجَلَةِ وَالتَّبَصُّرُ فِي الْأَمْرِ الْوَاقِعِ وَالْخَبَرِ الْوَارِدِ حَتَّى يَتَّضِحَ وَيَظْهَرَ)[4].

القاعدة الثانية: حسن الظن بالمؤمنين

من الواجبات الشرعية على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وأن يعتقدوا أنَّ حال المؤمن يؤول إلى الخير، وليس من أخلاق أهل الاستقامة أن يسيئوا الظن بإخوانهم أو يتلمسوا لهم العيوب الظنية المنهي عنها، قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور:١٢] هنا ذكر القرآن الكريم نوعًا من الظن المحمود، وهو الظن الحسن بالمؤمنين وظن الخير والصلاح، وهو ظن محمود لا شك في ذلك، قال العلامة الطاهر بن عاشور: (فيه تنبيه على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظَّن لا على الشَّك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير ظنَّ أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان؛ وفيه تعريض بأنَّ ظنَّ السُّوء الذي وقع هو من خصال النِّفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرورٍ وقلة بَصارَة، فكفى بذلك تشنيعًا له) وزاد أبو حيان الأندلسي أن على المؤمن (أن يقول بناء على ظنِّه: هذا إفك مبين، هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه كما يقول المستيقن المطَّلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحَسَن) وقال الخازن: (والمعنى: كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول أهل الإفك أن يكذِّبوه ويحسنوا الظَّن، ولا يسرعوا في التُّهمة وقول الزُّور فيمن عرفوا عفَّته وطهارته).

وقال الله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات:١٢]، قال ابن حجر الهيتمي: (عقَّب تعالى بأمره باجتناب الظَّن، وعلَّل ذلك بأنَّ

(١) مسند أحمد ٣٠/ ٤٠٣، مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١١١، وقال: «رجاله ثقات»، الدر المنثور للسيوطي ١٣/ ٥٤٠، وقال: إسناده جيد.
(٢) الكليات للكفوي (١/ ٨٩).
(٣) التحرير والتنوير، ٥/ ١٦٧ - ٢٦/ ٢٣١.
(٤) فتح القدير للشوكاني، ٥/ ٧١.

بعض الظَّن إثم، وهو ما تخيَّلت وقوعه من غيرك من غير مستند يقيني لك عليه، وقد صمَّم عليه قلبك أو تكلَّم به لسانك من غير مسوِّغ شرعي). ويقول الطبري: (يقول تعالى ذكره: يا أيُّها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيرًا من الظَّن بالمؤمنين، وذلك إن تظنوا بهم سوءًا فإنَّ الظَّان غير محق، وقال جلَّ ثناؤه: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ} ولم يقل: الظَّن كلَّه، إذ كان قد أَذِن للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير، فقال: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١٢]، فأَذِن الله جلَّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنَّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه وإن لم يكونوا من قِيلِه فيهم على يقين، عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} يقول: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا. وقوله: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ} يقول: إنَّ ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشَّر لا الخير إِثْمٌ؛ لأنَّ الله قد نهاه عنه، فَفِعْل ما نهى الله عنه إِثْمٌ).

القاعدة الثالثة: إمساك اللسان عن الخوض في أعراض الناس والقول فيهم بغير علم

من شيم الصالحين الإعراض عن الخوض في الأعراض وتجنب غيبة الناس وتجريحهم، فالقول على الناس حكمٌ عليهم توثيقًا أو تضعيفًا، تجريحًا أو تعديلًا، فهذه ساحة محكمة وقضاء ليس لآحاد الناس الولوج فيها بل هي مهمة الثقات من أهل العلم والاختصاص؛ ولهذا ورد فيها تحذير شديد، روى الإمام البيهقي بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: ((مَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ!))، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي حَازِمٍ لَمَّا نَظَرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكَعْبَةِ، قَالَ: ((مَرْحَبًا بِكِ مِنْ بَيْتٍ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَلَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ الله مِنْكِ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنْكِ وَاحِدَةً وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثًا: دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوْءِ))[٥] وفي رواية عَبْد اللهَّ بْن عُمَرَ قَالَ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ: ((مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهَّ حُرْمَةً مِنْكِ: مَالِه ودمه وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا))[٦].

قال الإمام الغزالي: (فلا يُستباح ظنُّ السُّوء إلا بما يُستباح به المال، وهو نفسُ مشاهدته أو بَيِّنةٌ عادلةٌ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظَّن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرِّر عليها أنَّ حاله عندك مستور كما كان وأنَّ ما رأيته منه يحتمل الخير والشَّر. فإنْ قلت: فبماذا يُعرف عقد الظَّن والشُّكوك تختلج والنَّفس تحدِّث؟ فنقول: أمارة عقد سوء الظَّن أن يتغيَّر القلب معه عما كان، فينفِر عنه نُفُورًا ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقُّده وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظَّن وتحقيقه).

> " كان الأئمة الأعلام يوصون أهل الحق أن يميتوا الباطل بهجره وأن يكبِتوا البدعة وأهلها بعدم ذكرها "

القاعدة الرابعة: تجنب تدليس أهل العلم وطلابه

تجد أحدهم يبدأ حديثه مقرِّرا حرمة الأعراض وتحريم انتهاك عرض المسلم واغتيابه ويحشد لذلك الأدلة والشواهد، ثم يبدأ حملة شعواء ويشن غارات على مخالفيه، ويذكر أن هناك فارقًا بين القدح في الأعراض وذم الشخص وبين نقد مواقف الأشخاص وتقدير قراراتهم، ولربما قال: إن ما حمله على ذلك الحديث هو القيام بواجب النصيحة، فتجده يكيل الاتهامات ويقدح في الرجال ومواقفهم ويخطئ ويجهِّل ويخوِّن، ثم يرجع فيقول: إن الأعراض مصونة وكأنه فاته مفهوم العرض في الشرع الإسلامي، وهو: (ما يُمدحُ ويُذَمُّ من الإنسان في نفسه وحسبه أو فيمن يلزمُه أمرُه، أو ما يفتخر به الإنسانُ من نسب أو شرف، أو ما يصونه الإنسانُ من نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره كالزَّوجة والبنت، ومنه

(٥) شعب الإيمان للبيهقي، ٩/ ٧٥.

(٦) سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٩٧، صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٤٢٠)، «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٢٤٤١).

قول حسان بن ثابت وهو يذب عن عرض النبي صلى الله عليه وسلم: فإن أبي ووالده وعرضي --- لعرض محمد منكم وقاء)[٧].

يا معشر من آمن بلسانه ولدغ به إخوانه أما سمعتم قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات:١٢] رحم الله ابن القيم وقد تأمل في هذه الآية الكريمة فعقب بقوله: (وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان كأنه بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت).

القاعدة الخامسة: ناقل الكذب والفاحشة مشارك فيهما، لا يعفيه من ذلك إلا البيان الواضح ووصف المنقول أو الخبر بالكذب

كان الأئمة الأعلام يوصون أهل الحق أن يميتوا الباطل بهجره وأن يكبتوا البدعة وأهلها بعدم ذكرها، بل حذر القرآن الكريم أمة الاسلام أن تميل قلوبهم لإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور:١٩].

القاعدة السادسة: ملاحقة الأفاكين ومحاصرة أحاديث الإفك

لا ينبغي للمسلم الغيور على دينه وعرض إخوانه المسلمين أن يبقى سلبيا ويترك أحاديث الأفك تمر بين يديه ليلا ونهارا، لا يكفي هنا أن تعرض بقلبك وتنكر في نفسك بل الذي ينبغي أن تكون مبادرا مواجها للأفاكين الخائضين في الأعراض الوالغين في الظلمات، فلتكن كما وصف القرآن الكريم أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين سمعوا حديث الإفك {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور:١٢] إن أصبع السبابة لا بد أن يشير رافضًا للافتراء ولسانُ الحق يشهد بكلمة الحق قائلًا: هذا إفك مبين.

من النماذج الرائعة في محاصرة الأفاكين وملاحقة أحاديث إفكهم ما ورد عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- أن رجلًا دخل عليه فذكر له عن آخر شيئًا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات:٦]، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم:١١]، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا).

قال علي مختار: (بعد حدوث ثورات الربيع العربي كثرت الشائعات المدبرة، وزادت الأكاذيب المنهجة، وتكاملت الخطط لإسقاط هذه الحركات التي تطالب بحرية الشعوب للعيش بكرامة وإبعاد المفسدين ومحاسبتهم وتقديم المصلحين لتولي المسؤوليات، ولكن نظرًا لوجود هذه الثورات المضادة التي تعمل على عدم التخلص من الفساد والمفسدين، وتستغل وسائل الإعلام لنشر الأكاذيب وترويج الاتهامات، ونظرًا لضعف التربية في جانب التثبت والتبين وجدنا التساهل بل التفريط والتسرع في نشر الشائعات وترويج الأكاذيب قبل التأكد والتثبت؛ وجدنا أن الناس تثق في وسائل الإعلام ولا تتأكد ممن تنقله وتنشره، بل صار نشر الشائعات وترويج الأكاذيب علمًا وفنًّا، وتخصصت في نشرها قنوات عديدة ووسائل إعلام كثيرة تهدف إلى تشويه سمعة الشرفاء وترويج الشائعات على الأبرياء واختلاق الأكاذيب على المصلحين وصرف أنظار الناس عن الإسلاميين، وغاب عن الكثيرين المنهج المستقيم في البحث عن مصدر الخبر ومعرفة مدى صدقه من كذبه والتثبت والتأكد قبل نشر الأقوال أو الأكاذيب، بل نسي كثير من المسلمين المنهج الإسلامي الأصيل في التأكد من صحة الأخبار قبل نشرها، والتثبت في النقل قبل الإعلان، والتبين من صحة الشائعات، والتأكد من صدق الكلام، والاستعلام عن صدق المصدر لمعرفة صدقه من كذبه)[٨].

(٧) فتح الباري لابن حجر، ١ / ١٠٧، لسان العرب مادة (ع ر ض).
(٨) مقال نشر على موقع لها أون لاين بتاريخ ٢ / ربيع أول/ ١٤٣٥هـ، ٢٨ / كانون الثاني/ ٢٠١٤م.

أثر ابتعاد الشباب عن المرجعية

«الثورة السورية نموذجًا»

أحمد الصالح الحجي

في سنوات الثورة التسع برزت مسائل لم تكن ظاهرة من قبل، وارتبط ظهورها بشكل رئيسٍ بضعف المرجعية الثورية والاجتماعية والدينية في المجتمع السوري، واقترنَ ذلك بأنشطة إيديولوجية مختلفة وثقافة موبوءة أو مخترقة تبث الفتن وتفرِّق صفوف شباب الثورة المدنيين والمقاتلين وتهدف إلى تدمير البنية الاجتماعية وفصل مجتمع الثورة عن ثوابته ومبادئه ومرجعيته، وأدَّت هذه الثقافة المخترقة إلى مزيد من المعاناة لدى جمهور الثورة، ناهيك عن فقدان الثقة بالنفس وانحراف البوصلة أو اضطرابها لدى جمهورٍ يتسم معظم شبابه بالفطرة السليمة ومحبة نصرة المظلوم والسعي وراء العدالة؛ فكان لا بد من تسليط الضوء على نشأة المرجعية في المجتمع الإسلامي وبيان معناها وأثر ابتعاد الشباب عنها وأساليب العلاج.

أمَّا النشأة فإنه إن جازت تسميةُ المدارس الفقهية مرجعياتٍ بالمعنى الآتي ذكره فأوَّلها وأَوْلاها بالذِّكر مدارس الأئمة الأربعة والفقهاء الذين لم تدون مذاهبهم في الحجاز والعراق والشام ومصر؛ فتتاج كل مدرسة منها انعكاس لطبيعة التطور المدني الذي نشأت فيه، ولا أدل على ذلك من مصطلح «المذهب القديم والجديد» الذي يشير إلى مذهبَي الشافعي في مصر والعراق؛ وما كان ذلك ليكون لولا أنه عالم رباني كان يدرك أن عليه أن يستفرغ وُسْعه في فقه النص في ضوء فقه الواقع رعايةً للصالح والأصلح ودفعًا للفاسد والأفسد.

ثم جاءت مرحلة المدارس العلمية في القرويين والأزهر والزيتونة، وغدت هذه المدارس منهجًا علميًّا ناضجًا مثَّلَ مرجعيةً مهمة لأبناء الإسلام تستجيب لتساؤلاتهم المعاصرة ومشكلاتهم الحادثة، وكانت هذه المدارس متنوعة المشارب ومصدرًا لتماسك الشخصية والمجتمعات الإسلامية، ثم تغيرت الظروف السياسية الدولية والاجتماعية والوطنية؛ فانتقلنا إلى مرحلة جديدة اختلف فيها دور مرجعيات الأمة لا سيما أن عصر الأئمة الكبار قد انقضى ودور المدارس العلمية الكبيرة في اضمحلال، فنشأت المجامع الفقهية والهيئات والمجالس والجماعات والجمعيات الإسلامية لتملأ فراغ المرجعية في مجتمعاتنا وتحكم في النوازل والمستجدات في عصر يحكمه التطور التقني وسباق الزمن.

إن من أبرز قضايا الأمة الإسلامية اليوم قضية الربيع العربي وخاصة الثورة السورية وما حدث فيها من نوازل انعكست آثارها على العالم كله، وما زالت تفتقر إلى تمحيصٍ وبيانٍ وافٍ فكريًّا وفقهيًّا وسياسيًّا خصوصًا أن ثقافةً مضادةً موبوءةً قد انتشرت، وما زالت تسعى لزعزعة ثقة الناس بمرجعياتها وعلمائها الربانيين، وقارنَها انتشار ثقافة أخرى موازية تعمل على التمكين للظلم والطغيان باسم الدين.

مفهوم المرجعية:

المرجعية مصطلح جديد لا وجود له بهذه الصيغة في النصوص وكتب التراث إلا أن مضمونه كان يندرج في مصطلحات أخرى مثل «أهل الحل والعقد، الإجماع، القُرَّاء، أهل الشورى، الفقهاء، أولي الأمر»، وأطلق المعاصرون كلمة المرجعية على عدد من المعاني منها[1]:

(١). طه أحمد الزيدي: المرجعية في ضوء السياسة الشرعية، دار النفائس، ص ٦١ حتى ٧٤؛ عماد الدين الرشيد: المرجعية دراسة في المفهوم القرآني، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الأول، ٢٠٠٥م، ٢١/ ٤٠٤.

أولًا- الشريعة أو الدين:

لما شاعت الانحرافات الناتجة عن الترويج للعلمانية وغيرها من أنظمة الفكر الغربي، انبرى فريق من شباب المسلمين مناديًا بالرجوع إلى الشريعة؛ لتكون مرجعًا يصون المجتمع من هذا الغزو وحَكَمًا للمستجدات التي ساقها النظام العالمي الجديد إلى بلاد المسلمين.

ثانيًا- الكتاب والسنة:

الكتاب والسنة هما مصدرا التشريع الأساسيان، وقد أوجب الرجوع إليهما عند التنازع، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]. يقول الدكتور يوسف القرضاوي: (تحددت المرجعية العليا في الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين؛ القرآن والسنة اللذين أُمرنا باتباعهما وبأن نرد إليهما ما تنازعنا فيه، وإن شئت قلت: هو مصدر واحد أو مرجع واحد، هو الوحي الإلهي سواء أكان وحيًا جليًّا متلوًا وهو القرآن أم وحيًّا غير جلي ولا متلو وهو السنة).

ثالثًا- مصادر استنباط الأحكام الشرعية:

هذه المصادر قسمان: مصادر أصلية ومصادر تبعية، أما الأصلية فهي القرآن والسنة والإجماع والقياس، وأما التبعية فهي الاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع، وقول الصحابي وشرع من قبلنا والعرف.

رابعًا- أولو الأمر:

اختلف المفسرون في تحديد المقصود بأولي الأمر على أقوال أشهرها: ١_ الولاة ٢_ الفقهاء ٣_ الولاة والفقهاء معًا، فلا بد أن يمثّل أولي الأمر هيئةٌ أو فئة تسوس المسلمين، وأخرى تتفقه في الدين، وتنذر قومها وتبين لهم ما هم عليه من خير أو شر، وفي أي طريق ينبغي أن يمضوا ومع أي الفريقين ينبغي أن يحطوا رحالهم، قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢] وكان نبيُّ الله (إذا بعث الجيوشَ أمرهم أن لا يُعَرُّوا نبيه، وتقيم طائفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم)[٢]. ومثل هذه المرجعيات المتكاملة المتحررة من عقدة الإقصاء أو التفاضل والتعصب لا يجمعها إلا الوحي والعقل والتاريخ.

من خلال ما سبق إليك أهمَّ ما يحدد مفهوم المرجعية:

١_ الكتاب والسنة هما المرجعية العليا التي يُرد إليها كل أمر لا سيما المستجدات، وتليهما أدلة الاستنباط الأخرى.

٢_ الهيئات والمجالس العلمية التي تسهل للناس فهم دينهم وتبيِّن حكم ما يستجد من نوازل في زماننا هذا.

٣_ المرجعية عند أهل السنة والجماعة ترفض الشخصنة، فلا أحد بعينه يُعَدُّ مرجعيةً مهما بلغ من العلم والمكانة.

ونظرًا لأهمية المرجعية في استقامة المجتمع والدولة المسلمة حظيت بقدر كبير من الأهمية في النصوص الشرعية، قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:٨٣]، فقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين يطيرون بالأخبار والحوادث بين الناس دون أن يعودوا بها إلى مرجعية المجتمع المتمثلة برسول الله في عصر النبوة وبخلفائه من أهل العلم والإمارة من بعده، ودعا المجتمع للرجوع إلى أولي الأمر فيه، ورد عَنْ قَتَادَةَ: ({وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} يَقُولُ: إِلَى عُلَمَائِهِمْ، {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَفْحَصُونَ عَنْهُ وَيَهِمُّهُمْ ذَلِكَ، وورد عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ} حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُهُمْ {وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ}: أُولِي الْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَالْعَقْلِ)[٣].

ويتقدَّمُ تلك المرجعيةَ الأئمةُ المجدِّدون الذين يبيِّنون ما جاء به نبي الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدولُهُ ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين))[٤] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا

(٢). محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر (١٢/ ٧٧).
(٣). المصدر السابق (٧/ ٢٥٧).
(٤) البيهقي: السنن الكبرى، مكتبة دار الباز، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ١٠/ ٢٠٩.

يـزال مـن أمتـي أمـة قائمـة بأمـر الله لا يضرهـم مـن خذلهـم))[٥]، وهـم ورثـة الأنبيـاء الذيـن يرثونهـم علمًا وعمـلًا، ويقتـدون بهـم في الـسرِّ والعلـن، ويلتزمـون منهجهـم في الغضـب والرضـا والمنشـط والمكـره، ولا يكونـون كمَـنْ {يَعْبُـدُ اللهَّ عَـلَى حَـرْفٍ}؛ فهـم مـن أهل «الخشـية»، وتلـك أخـصُّ صفاتهـم كـما في قولـه تعـالى: {إِنَّـمَا يَخْشَـى اللهَّ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَـمَاءُ} [فاطـر:٢٨]، ذلـك أنهـم يصـدرون فيـما يقولـون ويفعلـون عـمَّا أداه إليـه اجتهادهـم المستند إلى النـص دون مداهنـةٍ لأحـد أو خوفًـا مـن أحـد أو طمعًـا في عَـرَضٍ زائـلٍ مهـما بلـغ، فـإن مقتـضى خشـية الله في قلوبهـم أن لا يلتفتـوا إلى أهوائهـم ولا أهـواء غيرهـم مـن الخاصـة أو العامـة، وإذا كانـت مواقـف العـالم كذلـك كانـت أقـرب إلى الصـدق والثبـات وأحـرى أن تطمئـن إليهـا النفـوس وتجتمـع عليهـا القلـوب، وقـد أكرمنـا الله في زماننـا بزمـرة مـن أهـل العلـم، وجودهـم نعمـة ونـور يستضاء بـه في زمـن الفتـن والظـلام، ولزومهـم فضيلـة يبعـد الإنسـان عـن وسـاوس الشـيطان وجنـوده مـن الإنـس الذيـن يكـررون المحاولـة في كل مـرة لإبعـاد المسـلمين عمـن يبصرهـم بـما يجـري مـن حولهـم ليبقـى المسـلمون في تخبـط وشـقاق.

ضعف المرجعية في الثورة السورية

خرجـت المظاهـرات في سـورية في منتصـف شـهر آذار ٢٠١١م، مطالبـة بالحريـة والكرامـة والمساواة والعدالـة الاجتماعية وبالمشـاركة في القـرار السـياسي وبإنهـاء الفسـاد وكـف قبضـة الأجهـزة الأمنيـة عـن التدخـل في كل صغـيرة وكبـيرة، ثـم أخـذت تنعطـف منعطفًـا خطـيرًا منـذ نهايـة ٢٠١٢م عندمـا دخلـت جماعـات تكفيريـة مسـلَّحة عـلى خـط الثـورة السـورية، أطلـق الأسـد سراح بعـض قياداتهـا، وثمـة تقاريـر كثـيرة عـن الدعـم الأجنبـي لهـذه الجماعـات.

بدايـةً سـوَّغَ بعـض الثـوار توجُّـه بعـض التيـارات الجديـدة إلى حمـل السـلاح لأنـه دفـاع عـن النفـس في وجـه آلـة الإبـادة الأسـدية، ولا أحـد يجهـل مـآلات «عسـكرة الثـورة» لمواجهـة نظـام يستأسـد بمنطـق «الأرض المحروقـة»، لكـن غيـاب قيـادات حقيقيـة قـادرة عـلى فهـم الواقـع الجيوسـياسي لسـورية فتـح المجـال أمـام القـوى الموبـوءة عابـرة الـدول لاحتـلال فضـاء الثـورة، فتعـذرت العـودة إلى مرحلـة مـا قبـل «عسـكرة الثـورة» لتخلّـص الثـورة مـن هـذه الجماعـات المتطرفـة الموبـوءة، وبـدأت الشـعارات الإسـلامية التـي تطلقهـا هـذه الجماعـات تسـتهوي الشـباب المتحمسـين خاصـة أن بطـش النظـام المجـرم في ازديـاد، فعظـم نفـوذ هـذه الجماعـات بلحـاق هـؤلاء بهـا دون فهـم واقعـي لطبيعتهـا ومـا تتبنـاه مـن مبـادئ وشـعارات تغـازل بهـا عقـول المتحمسـين، فأكثرهـم لا يتمتعـون بثقافـة دينيـة وسياسـية تحصنهـم مـن الانـزلاق في متاهـة تبتعـد بهـم عـن الهـدف الـذي قامـت عليـه الثـورة وتقذفهـم بعيـدًا عـن ثورتهـم وعـما بـدؤوه مـن مظاهـرات ضـد نظـام مجـرم يحكـم بلدهـم بالحديـد والنـار وتباعـد بينهـم وبـين حاضنتهـم وعلمائهـم ومثقفيهـم.

بـدأت هـذه الجماعـات تسـتقطب الشـباب الـكاره للفـوضى والفسـاد الغاضـب مـن ضعـف الإمكانـات الماديـة والفنيـة لـدى كتائـب الثـوار، فلـدى التيـارات التكفيريـة قيـادة موحـدة وإعـلام موجـه، ولـدى داعـش دولـة وحـدود ونظـام وأجـور منتظمـة ومغريـات شـتَّى شـكلت لـدى الشـباب جاذبيـة عميـاء نحـو هـذا التنظيـم، فضعـف تمسـك الشـباب بثوابتهـم الوطنيـة، وبـدا واضحًـا أنهـم لـن يسـتمعوا لعلـماء بلدهـم ولأهـل الـرأي فيـه، واتبعـوا عواطفهـم وأهواءهـم؛ فتشـتت الجهـود وتبعثـرت الأوراق، وكان الثـوار يقفـون في جبهـة واحـدة في مواجهـة النظـام المجـرم، فصـار عليهـم أن يقفـوا في جبهتـين بعـد أن تطـور الأمـر ودخـل الثـوار في صراع إيديولوجـي مسـلح مـع هـذه التيـارات الدمويـة التـي عملـت عـلى خطـف الثـورة وبنـاء أحلامهـا عـلى جماجـم هـؤلاء الشـباب المنجذبـين إليهـا.

الاختلاف في إطار المرجعية:

مـن الطبيعـي أن تجـد في المجتمـع الواحـد مجموعـة أفـكار مختلفـة، بـل إن الاختـلاف إذا أُجيـدَت إدارتـه وعرضـه بشـكل سـليم غـدا ثـروةً فكريـة نوعيـة، فهـو يثـري الواقـع ويطـوره، ويرقـى بـه إلى مسـتويات متميـزة مـا دام يجـري في حـدود مرجعيَّـةٍ موحـدة، فـإن أدى إلى تنـازُعٍ في أصـل المرجعيـة وخـروجٍ مـن الاختـلاف إلى الشـقاق والتكفـير والتخويـن تحـول إلى بـلاء عـلى المجتمـع، وهـذا مـا حصـل في المجتمـع السـوري.

إن مـا حـدث إبـان الثـورة ليـس سـوى عمليـة تسـلل لثقافـات موبـوءة مخترقـة تحـت غطـاء الاختـلاف والتنـوع، زُرِعـت في المجتمـع السـوري بجهـود دوليـة مختلفـة بالتنسـيق مـع نظـام

(٥) رواه البخاري

الأسد وشركائه في الإجرام، ثم استُغِلت لاحقا لتشتيت الجهود وإبعاد الناس عن الهدف المنشود وتطويل مسافة الوصول إليه، ولإبعاد الشباب الطموح المتحمس عن علمائه ومرجعيته المتزنة المتنبهة لما يحاك لهذا الشباب الطامحِ، الممزقِ ثقافيًا بقلم البعث، المضلَّلِ بخطابات حماسية باسم الدين والخلافة والعدالة ورفع راية الإسلام، وقد حاول علماء سورية تخليص الشباب من بلاء هذه الجماعات، لكن القوة الإعلامية الداعمة لهذه الجماعات كانت أقوى، فلم ير الشباب المغرر بهم نصيحة العلماء إلا نوعًا من الخوَر، فازدادوا ابتعادًا عنها، وبدأت الخلافات اليسيرة تتحول إلى خلافات في أصل التفكير الديني والعيش الاجتماعي، فاختلطت الأصول بالفروع، وصُدِّق الكاذب وخُوِّن الأمين.

أثر ابتعاد الشباب السوري عن المرجعية:

كان الشباب عمود الثورة حتى نهاية عام ٢٠١٢م، ثم بدأت تنتشر أفكار جديدة وآراء وفتاوى تتجاوز الواقع السوري، وتتجه به بعيدًا نحو أوهام وأحلام لم تكن تخطر في خَلَدِ السوريين وقت اندلاع الثورة ضد نظامهم المجرم الطائفي، ودخلت إلى سورية شخصيات جعلت من نفسها مرجعيات في فترة وجيزة، وحملت فكرًا غريبًا مِنْ أدبياته فتح روما وإسقاط طواغيت العالم وما إلى ذلك من الأخيلة، فلم تزد هذه المرجعيات الوافدة الثورة إلا تفرقًا وضعفًا، ووجدت هذه الأحلام آذانًا صاغية، وتلاقت مع أناس يحبون الأحلام الوردية، فتبعوها وهم لا يستطيعون إدارة بلدة صغيرة وخِدمتها فضلًا عن منطقة أو مدينة، فما بالك بالحديث عن حكم أمة تمتد في القارات الثلاث!

بأيدي هذه المرجعيات الموبوءة التي روج لها الإعلام بدأ شباب الثورة السورية يناطحون ثورتهم ويتربصون بها الدوائر من حيث لا يشعرون، فقد عملت هذه المرجعيات فور قدومها إلى سورية على بث السموم والفتن في عقول الشباب وإبعادهم شيئًا فشيئًا عن مرجعياتهم الاجتماعية وعلمائهم الربانيين بتهم مختلفة منها الاتهام بالشرك والكفر والعمالة والخيانة والجبن، ورغم أفول هذه المرجعيات وتياراتها بعد أن نفَّذت مهمتها في تدمير المجتمع السوري وتأهيل نظام الأسد خلَّفت في المجتمع السوري أمراضًا مزمنة ليس من السهل التخلص منها، من أشهرها الاستخفاف والتعالي والتخوين والاستهزاء بالمرجعية المتمثلة بالجهات والهيئات والشخصيات العلمية المخلصة.

من أين يبدأ العلاج؟

إن فقدان الإنسان ثقته بكل ما حوله وتعاليَه على كل ما يحيط به واستهزاءَه بقادة الأمة ومرجعياتها أحوال لا تعبر عن نزوعه إلى الحرية بمقدار ما تعبر عن مرض خطير ناتج عن صدمات مختلفة، من شأنه أن يؤدي بالمجتمع إلى مزيد من التفتت والتشرذم، فلا بد من خطوات لمقاومته واكتساب المناعة ضده، ولما كان أكثر فكر الجماعات المتطرفة موجهًا إلى مرجعيتنا المتمثلة بما سبق فأول طريق العلاج:

١-افتتاح مراكز تعليم ديني تتبع الهئية الدينية العليا في الثورة السورية المتمثلة بالمجلس الإسلامي السوري المظلة الجامعة لعلماء بلدنا من شتى المشارب، ويكون هدفه محو أمية الشباب في الثقافة الدينية وتخريج طلبة علم متمكنين وعلى دراية بالعلوم الكونية والاجتماعية الضرورية.

٢-العناية بالمحاضرات والدروس في شتى ميادين الحياة، وانتقاء أصحاب الفكر المعتدل الواعي لتوجيه الشباب.

٣-عقد تجمعات شبابية مختلفة ذات رسالة وفكر، يستعيد الشباب من خلالها ثقتهم بمجتمعهم، ويتعلمون فيها الحوارَ البناء وطاعةَ من يختارونه مسؤولًا عنهم.

٤-لقاءات دورية بين قادة العمل العسكري والمدني وبين مندوبين ممثلين للمجلس الإسلامي السوري لتوجيه البوصلة نحو الاتجاه الصحيح، والمحافظة على هوية المجتمع السوري في الداخل والمهجر وتنقيتها من الأفكار السلبية آنفة الذكر.

٥-على المرجعية المتمثلة بما سبق أن تقيِّم وتقوِّم أعمالها بميزان الشرع والفضيلة، فعيون الناس عليهم، وكل خطأ يرتكبونه يزيد في اضطراب شبابنا كما أن كل مكرمة تحيي الأملَ وحُبَّ التضحية في نفوس شباب سورية.

البناء الفكري
وثلاثية النص والتراث والمعاصرة

الشيخ خليل محمد الحسين

إن المجتمعات الإسلامية اليوم تتعرض لأنواع شتى من الثقافات والقيم البشرية المختلفة، فكيف تتعامل مجتمعاتنا مع هذه الواردات؟ وما مصادرها للحكم عليها وتقييمها؟

تتعامل مجتمعاتنا المسلمة مع الثقافات العالمية الواردة عليها من خلال ثلاثة مداخل أو مصادر، هي:

١ – مفاهيم النصوص الشرعية الواردة بواسطة الوحي في القرآن الكريم أو الصادرة عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.
٢ – الموروث الفقهي أو الإسلامي العام من جميع مناحي تداخلاته؛ مِن تفسير وحديث وفقه وتاريخ ومفاهيم عامة لفلسفة الحياة والعيش من جهة الاجتماع والعرف والاقتصاد وجهة الحكم والحاكم والقضاء وغير ذلك.
٣ – الفكر المعاصر المستحدث بجميع نظرياته الفكرية الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية.

إنَّ هذه الثلاثية المتمثلة بالنص المعصوم والموروث والفكر المعاصر تتلاقى في داخل الإنسان المسلم لتبني تصوراته وأحكامه في الحياة، لكن عليه أن يتذكر دائمًا أنَّ هذه الثلاثية تتلاقى على أساس حاكمية الشرع أو النص لها، ولا تتلاقى بلا ضوابط كما يحسب بعضهم، وعلينا أيضًا ألا نُعمِّم مسألة الالتقاء الفعلي والمنطقي بينها.

الحقيقة أن هذه الثلاثية تلتقي في أمور ليست بالقليلة لاتحاد منطق الحياة وقانونها المبني على المصلحة المقدرة من قبل العقل المنطقي لاتحاد الأشياء، لكن هذا ليس على إطلاقه؛ فمن الخطأ أن نعد الثلاثية محكومة ببعضها، أو أن نعتقد أن الفكر الغربي المعاصر بما فيه من نظريات كبرى تسير دفة العالم هو الحاكم المطلق على المنطق الحياتي، فنذهب خلفها ونخضع النصوص التشريعية لها دون النظر لما هو أساسي من النصوص عندنا في الشريعة الإسلامية، ولِمَا هو ثابت من نظام عام في إطار التشريعات الإسلامية التي لا يجوز تجاوزها بأي حال.

كيف نوفق بين مصادر الفكر الثلاثة؟

إذا كانت مصادر تكوين فكر المسلم في عصرنا تتراوح ما بين هذه الثلاثة فكيف يوفق بينها؟ وما التوجيه الإسلامي في ذلك؟

أولًا: امتاز الفكر العالمي المعاصر بتحطيم المقدسات وتجاوز الحدود والضوابط الأخلاقية والإنسانية، وفي غمرة هذا التخبط فإن على المؤمن ألا ينزلق إلى مستنقع الهلاك، وليعتصم بطود شامخ من إيمانه، فيعتقد عصمة الوحي الذي ثبتت أحقيته بالعقل والنقل ولم يجادل في ذلك إلا مكابر.

ثانيًا: ننظر إلى الموروث الإسلامي نظرة شمولية كلية نابعة من الاحترام التام لما قدمه كل مجتهد في عصره، ولِمَا أنتج كل عصر من المعارف والأحكام التي كانت محور العمل القيادي في تلك الحقبة التي عاشها المجتهد والمجتمع يومئذٍ.

ثالثًا: نتعامل مع هذا الموروث الإسلامي العظيم على أنه نتاج اجتهاد أولئك العلماء الجهابذة، وقد اعتُمد في حياة الأمة ووضع في موضعه باجتهاد مطلق نابع من تتبع القواعد التشريعية الإسلامية السامية الكفيلة بالسعادة الإنسانية لترابطها العقلي المنطقي والواقعي.

رابعًا: ننظر إلى هذا الموروث نظرة دقيقة لنتخير منه ما هو صالح لزماننا ونستبدل ما عداه، نقوم بذلك ونحن نعترف ونقر بصحته في حقبته وعصره، وأنَّه قابل في الوقت نفسِه لتغيير ما يرجع منه إلى أعراف مجتمعات ذلك العهد، فهي قد تختلف اختلافًا كليًّا عما هو الحال في هذه الآونة؛ فننظر إلى الموروث نظرة المتأني الذي امتلأ قلبه بالإيمان أولًا وبالعلم ثانيًا وبالتقوى ثالثًا لنختار منه ما هو صالح، ولنحدد ما هو عام ويتطابق مع الحياة البشرية المستمرة بكل مكوناتها وما هو خاص بحقبة معينة؛ لذلك كان مجال المجتهدين في النصوص محصورًا في غير المحكم والمفسر منها كما هو معلوم في أصول الفقه، متفادين بذلك الانحراف عن القواعد الأساسية المرسومة للنظام الإسلامي العام.

ليس كلُّ ما جاءنا عن العلماء السابقين صالحًا لنا الآن، ولم يدَّع واضعوه قديمًا شيئًا من ذلك، بل إنهم وضعوا أسسًا وقواعد منضبطة للاختلاف الاجتهادي المبني على اطراد قواعد التشريع العامَّة، وليس أدل على ذلك من القاعدة الفقهية (لا يُنكَر تغيُّر الأحكام بتغير الأزمان) وبتغير المكان أيضًا، ومنه قول الحنفية في تعليل مخالفتهم أئمتهم السابقين في بعض الأحكام: (إن الأمر اختلاف عصر وزمان، وليس اختلاف حجة وبرهان).

إن الموروث الإسلامي يحمل في أصوله قواعدَ القدرة على العيش في المجتمعات الإنسانية كلِّها على اختلاف الزمان والمكان، وانطلاقًا من هذه الأصول جعلت المصلحة أساسا في تقعيد التشريعات الإسلامية التي تدعو إلى جلب كل ما هو صالح نافع للإنسانية ودفع كل ضرر وفساد، وقد أسست مباحث الاجتهاد في الأدلة على هذا الإطار العام الشامل، فنتج عنه قواعد عظيمة في الأدلة يدور معها الحكم حيث كانت، ومنها سد الذرائع والمصلحة المرسلة والعرف، هذا إضافة إلى نظرية المقاصد في التشريع التي تحقق مطلبين مهمين، وهما: مراد الله تعالى بقدر وسع المجتهد، والنفع المبني على هذه الإرادة لإدراك السعادة والطمأنينة والنماء المستمر مع التكافل الاجتماعي العام الذي يحقق ما تدركه العقول بطبيعة تفكيرها المصلحي المنضبط بتلك الأسس في النظام العام، وهذا أمر قرره علماء الأصول بفهمهم الدقيق لتطابق الحكم ومنطق العقل؛ لذلك نرى سلطان العلماء العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- يشير في قواعد الأحكام إلى أنك حينما تدرك بعقلك أن الأمر فيه مصلحة فاعلم أن الدين هنا، ومتى أدركت بعقلك أن الأمر فيه ضرر فاعلم أن الدين ليس هنا[1]، كما يشير أيضا إلى أن الطباع البشرية قد ركز الله تعالى فيها معرفة معظم المصالح الدنيوية لتحصلها، ومعرفة معظم المفاسد الدنيوية لتتركها[2]؛ لذلك كان التشريع الإسلامي في حقيقته مصالح كله وحكم كله ورحمة عامة كله.

إن هذا الموروث الذي وصلنا عن الأئمة ليس عبثيًّا ولا معصوما في الوقت ذاته، فقد يكون حقًّا مصيبًا مرادَ الله تعالى، لكونه جاء من مجتهد مطلق يحق له الاجتهاد، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر))[3]، فهو قواعد وثوابت ننطلق منها متى امتلكنا حقيقة النظر والفهم وحقيقة العلم مع التقوى، ولا بد من التأكيد على صفة التقوى؛ فالعالم إذا انسلخ عنها ضل علمه وساء عمله واتبع هواه، فكان فكره باطلًا مائلًا عن الصواب.

وإذا امتلك المسلم أحقية النظر والاجتهاد بتوفر العلم والفهم مع التقوى في شخصه يحق له أن يجلس أمام مائدة الموروث الغنية بأصناف العلوم وضروب المعرفة، فيأخذ منها ما يكون نافعا لنا مناسبا لعصره، ويترك منها ما كان نافعا في زمانه فقط مع احترام ما قام به الأولون من جهود في سبيل العلم وتجلية الأحكام وفق مقاصد النص وحاجات زمانهم.

في واقعٍ تتطورُ فيه الحياة وتجد فيه حوادث لا نستطيع أن نكون أسْرَى لكل جزئيات موروثنا الفقهي رغم شواهد التاريخ والمنهج النقدي على عظمة من خلفوا هذا التراث لنا، لكنا نعتقد أن هذا التاريخ منصة انطلاق في الاجتهاد والاستنباط لا بد من الرجوع إليها لصحة التطلع لواقعنا ومواكبة حقائق الحياة المتجددة، فنكون بذلك أمناء على قضايا عصرنا كما كانوا، نختلف في المتجدد المبني على طبائع البشر رغم اتفاقنا في الأصول المفسرة الثابتة بالعقل والنقل.

إنه من المسلَّم به عندنا في تشريعنا الإسلامي أنه بكل مكوناته

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام العز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية ١٤٤١ه، ١/ ٥

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ٩/ ١٠٨، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ه، وأخرجه مسلم في الباب نفسِه، رقم (١٧١٦)، ٣/ ١٣٤٢، دار التراث العربي.

الأصولية والفقهية والتفسيرية معتمدٌ على أدلة قررها الشرع، جاعلٌ العقل فيها أساسًا لا ينفك عنه أي حكم مصلحي من أحكامه الموجبة أو السالبة قطعًا، وإنه من المسلم به أيضًا أنه لا بد لكلِّ واقعةٍ من حكم، وهذا أمرٌ وسعه الشرع الإسلامي بكل ما ذكرنا من مكوناته مع ثلاثية العلم والفهم والتقوى.

أما الفكر الغربي وهو الجانب الثالث من ثلاثية مصادر الفكر، فالحقيقة أنه لا بد من نظرة واقعية تشمل ذلك الفكر وريادته للعالم الحالي وانحطاط المسلمين اجتماعيا واقتصاديا زيادة على الضعف الديني والأخلاقي، فدولة الفكر الغربي بنظرياته سادت العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لكن بالنظر إلى تاريخ هذا الفكر نجده:

أولًا: لا ينفك عن الاحتلال والاستغلال والدماء، وهذا أمر معروف لدى أي شخص ينظر في تاريخ الغرب المعاصر.

ثانيًا: نرى أنَّ هذا الفكر وهذه الثقافة وإن كانت لها الريادة الآن فلا يجوز لنا من منطلق العقلانية والمنطقية أن ننحني لها تمام الانحناء، فنأخذ منها غثها وسمينها وفاسدها وصالحها؛ إذ غالبا ما تتداخل أهواء السلطة وأهواء الانتصار والقوة والغلبة في أحكام المجتمعات الإنسانية وقيمها، فالفكر الأوربي وليد هذه الأشياء بالنظر إلى تاريخه وبالنظر إلى علاجه للقضايا المجتمعية العالمية الآن، فلا يمكن لمن أخذ عن المعصوم أن يقبل كل ما يأتي من هذا الفكر المبني على نواقص لا يختلف عليها العقلاء، نعم إنَّ الأفكار تتغذى ببعضها وتتأثَّر، وقد تتلاقى من غير سبق تأثر، فلا ضير أن يكون هناك حكم قد قدحته عقلية الغرب وهو متوافق تماما مع أسس النظم الإسلامية، ولا ضير حينها في أن نأخذ به ونقيده وننظر إليه بعين الجد والتمحيص، وهذا أمر أرشدنا إليه الإسلام، وحثنا عليه رسولنا الكريم -عليه الصلاة والسلام- بقوله: ((الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها إذا وجدها))[٤]، فالعمل بفكر الآخر الإنساني أمر مرغوب في شرعنا إذا كان منضويًا تحت الأطر العامة لتشريعنا، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ بحفر الخندق، وهو أمر نقله سلمان الفارسي رضي الله عنه عن فكر الفرس المجوس في التخطيط الحربي إلا أنه توافق مع مبدأ المصلحة في أوجه الدفاع عن الإسلام وعن وطنه المدينة في ذلك الوقت.

ثالثًا: لا حجر ولا حرج -وفقًا للتشريع الإسلامي- في اقتباس الأفكار وتطويرها والأخذ من الحضارات الإنسانية، فالعنصر الإنساني هو الأساس في بناء التكامل المصلحي لكل أصناف العالم؛ لذلك جاء التعليل في نصوص قرآنية عدة بقوله تعالى: {لعلكم تعقلون}، وقد ختمت ثماني آيات من القرآن الكريم بهذه العبارة.

إن مدرك معظم الأحكام المصلحية التي لها القيادة والريادة في تنظيم المجتمعات مبنيٌّ على العقل المستقر داخل كل إنسان بصبغته الإنسانية لا الدينية، والحضارات تتجدد وتتطور فلا بد أن تواكب المفاهيم هذا التجدد، لكن يجب أن نكون -بنقلنا وفكرنا وأخذنا واقتباسنا من الآخرين- في مظلة النص القرآني المتجدد في ذاته المستمر في عطائه إلى يوم الدين؛ فهو بقواعده الشمولية ونصوصه العامة يواكب كل مجتمع بشري حي عاقل مزدهر مفكر متجدد، ويشترط لذلك أن يكون المجتهد المعاصر قادرًا على الغوص في بحر هذه النصوص بثلاثية العلم والفهم والتقوى، علمًا أنَّ من يقرأ نصوص الإسلام بتدبر يعرف أنه لا فقر عندنا في النصوص، ولا عجز في المفاهيم، ولا رهبانية في حصر أنفسنا بالتجارب؛ فالإسلام بنصوصه المعصومة الصادرة عن الوحي يعلمنا كيف نكون منفتحين على الجميع، ونستطيع من خلاله أن نكوِّن نظامًا عامًّا شاملًا لكل أصناف الإنسانية ولكل مناحي الحياة مطلقًا، والتاريخ شاهد على ذلك حينما كان في مجتهدي أمتنا من يفهم الدين فهم الأمين المؤتمن على عصره ذي العلم والفهم والتقوى والبحث عن الحقيقة المرادة من تشريع الحكم المصلحي.

وهنا لا بد من التأكيد على الحذر من انزلاق المثقفين وجريانهم خلف مصطلحات التجديد البرَّاقة، فهم ينسفون كلَّ الثوابت وكل الموروث لأجل التطور الذي لا تسعه التشاريع الإسلامية أو لأن الحياة ما عادت كما كانت؛ ولهذا لا تصلح لها كل الأحكام المستقرة في ثوابت الدين الإسلامي كما يزعمون!

والحقيقة أن هذا تبديد لا تجديد، فما لا ضابط له لا قيمة له، وضوابطنا نابعة من موروثنا الإسلامي والقواعد العامة الواضحة في دلائل النصوص القطعية وما تلقته الأمة بالقبول.

---

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما قالوا في البكاء من خشية الله تعالى، رقم (٣٥٦٨١)، ٧/ ٢٤٠، وانظره بألفاظ أخرى في سنن الترمذي وابن ماجة وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

الإلحاد والقهر الأمني

الأستاذ محمد فتحي النادي

تحدُث الصدمات النفسية العنيفة عند الأزمات الشديدة التي تمتحن بها النفوس؛ فمنَّا من تقوِّيه الأزمات وتزيده صلابة، ومنَّا من يضعف ويفقد الثقة في نفسه وفيمن حوله ويسيطر عليه اليأس والقنوط، وأشدُّ من هذا قد يكون؛ فهذه الصدمات قد تدفع فئةً منَّا لا سيما الشباب إلى الكفر بالمُثُل والقِيَم التي كان يؤمن بها، ومن هذه الصدمات ما يحدث إثر الهزائم الحربية المنكرة أو الانقلابات العسكرية التي تقمع حريات الشعوب مثلما حدث بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م يوم هُزم العرب والمصريون شرَّ هزيمة أمام الاحتلال الصهيوني، وكذا يوم انقلاب تموز ٢٠١٣م في مصر.

والأكثر تأثرًا هم فئة الشباب الذين تفتَّح وعيهم على الويلات والأزمات. إن الصدمة تسلب من الشباب وعيهم بعض الوقت، فيبدؤون بالشك في الثوابت التي كانوا يرون أن الجبال تزول وهي لا تزول، وبعد حين تجد فيهم من يعود لرشده سريعًا ويحدد طريقه ويعصمه إيمانه القوي وتربيته السليمة، لكن منهم من تزلُّ قدمه فَيتِيه ويضلُّ؛ فمثلًا بعد انقلاب تموز ٢٠١٣م في مصر تزلزلت ثوابت كثيرة في عقول الشباب، فهذا الشباب النقي كان يحلم بوطن يحميه ويرعى مصالحه ويوفر له حياة كريمة ويحفظ له كرامته، وإذا به يجد أن هذا الوطن يُمعن في قتله، وإن لم يقتله فإنه يطارده ويقهره ويكبته سياسيًّا ويعدُّ عليه أنفاسه، ومن يفتح فاه فالويل له والثبور؛ السجن أبوابه مشرعة، وأدوات التعذيب متاحة متوفرة، ولا محاسبة لقاتل أو لمن يسوم الأحرار سوء العذاب؛ يومئذٍ كفر بعض هؤلاء الشباب بوطنٍ كانت كل جريمتهم تجاهه أنهم أرادوا له أن ينهض وأن يكون له شأن بين دول العالم وفي طليعة الدول المتقدمة، وبزعمائهم السياسيين الذين تبيَّن لهم أن أيديهم تلطخت بالدماء البريئة إما بسبب قراراتهم أو بموافقتهم على قتل الشباب وسجنهم ومطاردتهم أو بسكوتهم عما يحدث من إجرام ضد الشباب.

وكفروا بجيشهم الذي كانوا يرونه حامي الحمى الذائد عن الحياض الرادع للأعداء الحافظ للبيضة فإذا بهم يستبينون أنه قد فقد شرفه العسكري فوجّه الرصاص ضد الشعب، وحرّك قوّاته لا لمحاربة العدو بل لقتل جزء من شعبٍ اختلف مع قادته سياسيًّا أو فكريًّا؛ وبشرطتهم التي كانت عصا غليظة يستخدمها النظام لكبت الشعب وقهره فتَتَفنَّن في إهانة الشعب وسلبه كرامته وتجنِّد كل أجهزتها لتتبع المعارضين السياسيين وقمعهم بينما تترك الباب مفتوحًا لأرباب الإجرام والدعارة والمخدرات أو تتواطأ معهم، ولو اهتمت بالجنائيين عُشر اهتمامها بالمعارضين السياسيين لعمَّ الأمن أرجاء الوطن كما قد قيل.

وكفروا بالقضاء الذي اختل ميزان العدالة في يديه؛ فحاكمَ المظلومين وترك الظالمين، وأصدر الأحكام الظالمة القاسية على البرآء وبرَّأ القتلة والسفاحين والمفسدين؛ وبالإعلام الذي فقد حياده وأهدر دماء الأحرار وجيَّش الشعب ضدهم، واخترع المسوِّغ والعذر لمن يقتلهم ويسجنهم ويطاردهم ويكبتهم، بل مجَّد السفاحين وجعلهم زعماء ملهمين، ووسم كل المخالفين والمعارضين بوسم الخيانة والعمالة والإرهاب.

وكفروا بعلماء السلطان الذين لم يقولوا كلمة حقٍّ في وجه سلطان جائر، ولم يسعهم السكوت بل أفتوا بقتل الأحرار المضطهدين والفتك بهم وبالسجن والقهر واستحلال الأموال، ورفعوا الزعماء السفاحين إلى مقام الأنبياء، ولم يغضبوا لانتهاك الحرمات والمحارم، ولم يغضبوا لدين الله الذي يعتدِي عليه أدعياء التطور ودعاة التنوير والتحرر.

وكفروا بالشعب الذي منه من رقص على جثث الشباب، وأظهر شماتة غريبة في مصائبهم، وأعان الظلمة السفاحين على تتبع الشباب والإبلاغ عنهم وتمكين الشرطة من إلقاء القبض عليهم لإيداعهم في السجون بعد تلفيق التهم لهم، فقضى هؤلاء الشباب زهرة حياتهم في ظلمات السجون لا لشيء إلا لحبهم أوطانهم وسعيهم لتحرير شعوبهم من أغلال العبودية، فكان جزاؤهم القتل وهتك الأعراض بدلًا من الافتخار بأعمالهم ومساعدتهم، لقد أبَوا أن يهان الشعب أو يُستعبد أو يُظلم أو تُغتصب حقوقه لكن الشعبَ راضٍ بذلِّه غاضبٌ على من أراد له أن يخرج مما هو فيه.

وكفروا بقادة أحزابهم وحركاتهم الذين أدخلوهم في مواجهاتٍ لم يحسبوا لها حسابها، ولم يستطيعوا إخراجهم منها، وقاموا بتكبيل الشباب ومنعهم من أن يتخذوا من الخطوات ما يرونه مناسبًا للخروج من سلسلة الأزمات هذه، ثم انغمسوا في خاصَّةِ أنفسهم وتنازعوا على لُعاعة من الدنيا.

وبلغ الأمر ببعضِ مَن كفر بأولئك جميعًا أن يشكك في معية الله ونصره لأهل الحق والإيمان، فمنهم من ترك الصلاة وانعزل عن الناس وأصابته الوساوس، ومنهم من جأرَ صارخًا: أين الله! أين الله من هذه الدماء المسفوكة بغير حق ومن هذا الظلم والقهر؟ إنهم يبحثون عن الله لكنهم ضلوا الطريق، فاختل عندهم الركن السادس من أركان الإيمان، وهو ركن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره[1]؛ إنهم لم ينكروا وجود الله لكنهم لم يلمسوا أثر أفعاله في بعض ما يعانونه، فإذا بهم يطلبون الموت ويسعون إلى الانتحار وقد اسودت الدنيا في أعينهم، ظنوا أنهم افتقدوا النصير والمعين، فهم مرضى مضطهدون يحتاجون إلى العلاج لا إلى الإقصاء والنبذ والتشهير:

أ- يحتاجون إلى إعادة الثقة في إيمانهم عن طريق التربية السليمة؛ فمعظم الذين تنحرف بوصلتهم ويطرقون باب الإلحاد لا سيما من انتسبوا برهةً إلى حركات إسلامية لم ينالوا قسطًا كافيًا من التربية الإيمانية السليمة، وأخذتهم الحركة إلى العمل السياسي بلا أساس راسخ مكين مهمِلةً تعميق الإيمان في نفوسهم، فلما جاءت المحنة زُلزلوا زلزالًا شديدًا.

إن التربية الإيمانية السليمة تعيد ثقتَنا في الطريق وتعرِّفنا بما ينالنا وما قد نلقى أثناء السير فيه؛ فمعرفة طبيعة الطريق من المعينات على السير فيه والاستمرار في سلوكه، عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم= وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه؛ والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

ب- ويحتاجون إلى فهم القضاء والقدر، لقد أراد الله بالقضاء والقدر طمأنة الناس بأن مستقبلهم بيد الله لا بيد العباد حتى لا تخضع الرقاب إلا إليه، ويعلم الناس أن العباد لا يمكنهم إنزال ضر بأحد إلا إذا كان هذا الضر قدرًا مقضيًّا، لكنْ ثمة فرق بين القضاء والمقضي، وبين القدر والمقدور، وإذا كان الرضا بالقضاء والقدر من الإيمان، فإن الرضا بالمقضي والمقدور قد يكون من الضلال، يقول الشيخ محمد بن علي بن حسين: (الرضا بالقضاء واجب إجماعًا، والسخط وعدم الرضا به حرام إجماعًا؛ لأنا مأمورون بأن لا نتعرض لجهة ربنا إلا بالإجلال والتعظيم، ولا نعترض عليه في مُلكه بأن يقول أحدنا ساخطًا على قضائه تعالى: أي شيء عملت حتى أصابني مثل هذا وما ذنبي وما كنت أستأهل هذا، وأما المقضي والمقدور فهو أثر القضاء والقدر، وليس الرضا به واجبًا على الإطلاق كما هو زعم من يعتقد أن الرضا بالقضاء هو الرضا بالمقضي، وإنما الصواب أن الرضا به قد يكون واجبًا كالإيمان بالله تعالى والواجبات إذا قدرها الله تعالى للإنسان، وقد يكون مندوبًا كما في المندوبات وحرامًا كما في المحرمات، وقد يكون مباحًا كما في المباحات من نحو البلايا والرزايا ومؤلمات الحوادث فإنا ما أمرنا بأن تطيب لنا؛ إذ هو تكليف بما ليس في طبع المكلف، والشريعة لم ترد بتكليف أحد بما ليس في طبعه)[3].

ويصحح الشيخ يوسف القرضاوي -حفظه الله- الفهم المعوج للقضاء والقدر، فيقول: (رضا الإنسان عن الله وعن السير العام للكون والحياة لا يستلزم الرضا عن كل ما يراه على مسرح الحياة من شذوذ وانحراف جزئي مصدره هذا الإنسان المكلف المختار[4] فليس معنى رضا الإنسان عن

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب «مَعْرِفَةِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ وَالْقَدَرِ»، ح (٨).
(٢) البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، ح (٦٩٤٣).
(٣) تهذيب الفروق، (٤/ ٢٤٩).
(٤) الإيمان والحياة، ص (١٥٤).

السيارات وركوبها أنه يرضى بما تسببه من حوادث وما يرتكبه سائقوها من مخالفات لقواعد المرور وآداب الطريق، والمؤمن راضٍ عن نظام الوجود، ساخطٌ على انحراف الإنسان الذي لم يقم بشكر الله على نعمة العقل والإرادة التي مُنحها، فهذا السخط على الشذوذ والانحراف البشري سخط يرضاه الله بل يأمر به ويتوعد المهدرين له الساكتين عنه بالعذاب الشديد {فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلًا ممن أنجينا منهم} [هود: ١١٦] {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٨٧) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون} [المائدة: ٧٨-٧٩]»[٥].

ج-ويحتاجون إلى فهم السنن الكونية، فقد بث الله في الكون سننًا لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحدًا ولا تتحامل على أحدٍ، ومن هذه السنن أن الأصل في الحياة هو التدافع لا التواطؤ والتخاذل، وهذا التدافع قد يؤدي إلى الصراع بين طرفين أو عدة أطراف، يقول تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: ٣٦] ولهذا الصراع أشكال تبدأ بالكلام وتنتهي بالإجهاز على الحياة، وبين ذلك كثير من أشكال الصراع، وإن الوعي بهذا الصراع وأبعاده ليفرض على الإنسان الاستعداد له وإعداد العدة الملائمة، وأن يكون على علم بأن حياته لن يعدم فيها عدوًّا ظاهرًا أو مستترًا وإن لم يبادره بالإساءة أو الاعتداء؛ فقد يجد أعداء لم يخطروا له على بال، فمهما وَادعت الناس وسالمتهم فلن يوادعوك ويسالموك، ومن المعارك ما يفرض عليك فرضًا، فلا بد أن تكون حذرًا مستعدًّا تدرك طبيعة عدوك ومدى عداوته وطبيعة المعركة المفروضة عليك أو التي ستقدم أنت عليها؛ ولو أن الشباب تسلحوا بهذا الوعي السنني في التدافع فلن تحدث لهم صدمات تسوقهم إلى الإلحاد، ولعلموا أن الوقوف بجانب الحق ليس وحده الكفيل بانتصار الحق؛ فالحق لا ينتصر من تلقاء نفسه بل يحتاج إلى جَلَد رجال ذوي عزائم وهمم، فإذا كنت ضعيفًا مناصرًا للحق فلن يظهر الحق على الباطل، يقول تعالى: {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: ٤]. وذاك هو مقتضى سنة التدافع، يقول تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} [البقرة: ٢٥١]. «من خلال هذا النص القصير تبرز حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموَّار، وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعًا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف؛ لقد كادت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بيَّنه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه، وهنا يمضي الله أمره وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية التي استجاش الصراع أنبلَ ما فيها وأكرمه وأبلغَها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة»[٦].

د-ويحتاجون إلى أن يفهموا أنَّ الله لا يَعْجَلُ لعجلة البشر، فالبشرية عجولة بطبعها وفطرتها، فهي تريد الوصول إلى مبتغاها بأسهل الطرق وأسرعها، فإذا تمنت أو رغبت أرادت أن تتحقق الرغبة في أسرع وقت، بل إن من رعونتها أنها كانت تستعجل العذاب أحيانًا وتريد نزوله، لكن هذا ليس من سنة الله في كونه، فهو سبحانه لا يعجل لعجلة البشر، يقول ابن مسعود: (كل ما هو آت قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآتٍ، لا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخِفُّ لأمر الناس، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الله أمرًا ويريد الناس أمرًا، ما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مقرب لما باعد الله، ولا مبعد لما قرب الله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله)[٧].

إنَّ في هذه الحاجات الأربع لَوقاية وعلاجًا نسبيًّا لصراع بعض الشباب الذين ألَمَّ بهم فكر الملحدين، فاهتز إيمانهم وظنوا أنهم لم يعثروا على أثر الأفعال الإلهية التي تلطف بالعباد إبَّان الأزمات وبطش الطغاة، هذا ولن يعدم المتأمل في النصوص والسِّير والتاريخ أنماطًا أخرى من الوقاية والعلاج.

(٥) مسعود صبري: القضاء والقدر والفهم المعوج، موقع إسلام أون لاين، ٩ تشرين الأول ٢٠١٧م.
(٦) في ظلال القرآن، (١/ ٢٥٣).
(٧) المعجم الكبير للطبراني، (٩/ ٩٨).

مضامين العمل الدعوي المعاصر

الدكتور محمد أيمن الجمال

أستاذ الدراسات العليا بجامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية
وعضو المجلس الإسلامي السوري

تقوم المؤسسات الشرعيّة المعاصرة في العالم الإسلامي عامة وفي سورية خاصة بأدوار دعويّة وعلميّة كثيرة تتقاطع أحيانًا، وتتكرّر أحيانًا، وتتضارب نادرًا، وممّا يرفع ذلك التقاطع والتكرار والتضارب التنسيق بين هذه المؤسّسات ليؤدّي كلّ مكوّن منها أفضل ما يمكنه وأكثر ما ينفع به الأمّة والثورة.

وممّا نحتاجه للوصول إلى النجاح الكامل: التنسيقُ بين هذه الأدوار، استجابةً لأمر الله تعالى بالتعاون على البرّ والتقوى.

وسبيل التعاون يبدأ أوّلًا بتحديد الاحتياجات وبيان مواضع الخلل والثغرات لتُرابِطَ كلّ مؤسسةٍ منها على ثغرٍ من الثغور فتسدّ خللًا وتغطّي حاجةً وتقوم بدورٍ لا يمكن لغيرها أن يقوم به على الوجه الذي تقوم به هي.

مع يقيننا التام بأنّ التكاملَ في الأدوار بين الدعاة والتخصّصَ العمليّ؛ لا يلزم منه قصورٌ في جانبٍ من العمل، ولا هو إعلامٌ على عدم القدرةِ في التعاطي مع الجانب الآخر، لكنّها طبيعة الحياة اليوم التي تشعّبت كثيرًا؛ حتّى صار التخصّص الواحد يحتاج علماء كُثر ومراكزَ بحثيّةٍ وجهودًا كبيرةً ليقوم كلّ هؤلاء بجزءٍ من حقّه.

وممّا هو معلومٌ أنّ العمل الذي تكون له خُطّةٌ مدروسة، وتُوضّحُ مراحلُه بخطوات والتزامات وتوجيهات واضحة مع مرجعيّة مقدَّرَةٍ للمشروع العامّ يكون أقربَ إلى النجاح والتحقّق من العمل الذي تضيع فيه البوصلة، ولا يستقرّ فيه المرء إلى جهةٍ في مسيرِه، ولا إلى هدفٍ في نهايته.

بناءً على ذلك رأينا أن نعرِضَ في هذا المقالِ بعضَ الأفكارِ المقترحةِ في إطارِ العملِ الدعويّ والعلميّ؛ لتشكّلَ هذه الأفكارُ مضامينَ العمل الدعويّ والعلميّ المقترح لمكوّنات المجلس الإسلاميّ السوريّ وغيرها من المؤسسات العاملة في الحقل الإسلاميّ؛ في عملٍ منظّمٍ متكاملٍ، ولتتبنّى مكوّنات هذا المجلس العمل عليها في إطاراتها القائمة، أو في إطارات تعاونيّة تنسيقيّة تحت مظلّة هذا المجلس الذي يشكّل المرجعيّة الشرعيّة والفكريّة الضابطة لكلّ مكوّناته.

وقد استفدنا هذه المضامين من واقع الأمّة الفكريّ والعلميّ، وواقع بلادنا، وحاجتنا في مجتمعات الهجرة، والقضايا الفكريّة الأساسيّة التي تواجهها أمّتنا، والشبهات التي تُلقى على أسماعها عبر المغرضين في وسائل الإعلام، فإذا الحاجة كبيرة وماسّة، والقدرات كثيرة مبعثرة، والسهام موجّهة إلى غير أهدافها! فاحتاج ذلك كلّه منّا إلى متابعة لحالنا وحاجاتنا، ونظر في أولويّاتنا التي تثبّت أمّتنا في مواجهة تلك التحدّيات الكبيرة.

وقد كان لرابطة العلماء السوريينَ الفضلُ في إنجاز العناوين الرئيسةِ لتلك المضامين.

وهذه بعض العناوين الأساسيّة مع بيان فكرةٍ موجزةٍ عنها، وبعض المقترحات الفرعيّة تحتها التي تصلح للبناء عليها، وفي تفاصيل وشرح مضامين العملِ الدعويِّ يمكن أن يكونَ العملُ على إنجاز بحوثٍ علميّةٍ؛ ومحاضراتٍ وندواتٍ؛ يُبنى عليها ويُستخرَجُ منها: مقاطعُ صوتيّةٌ ومرئيّةٌ، ومطويّاتٌ، وملصقاتٌ دعويّةٌ مصوّرةٌ، كما اقترحنا ختامًا بعض الوسائلِ التي يمكِن أن تُعينَ في جعلِ المضامين تنفيذيّةً:

أولًا: تعظيمُ مكانة القرآن الكريم، والالتزامُ بقواعد التفسيرِ المنضبطِ.

القرآن الكريم مصدر التشريع الأوّل في الشريعة الإسلاميّة، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى، لكنّ أيدي العابثين امتدّت إلى تفسيره وفهمه؛ فاجتهد بعضهم في تحريف مواضعه وتغيير معانيه ومدلولات ألفاظه، بفهوم ما عرفها العرب، وأفكارٍ يزعم مخترعوها أنّهم سبقوا بها الأوّلين والآخرين، ويلزم منها أنّ الله تركَ هذه الأمّةَ على ضلالةٍ قرونًا حتّى كشف الله لبعض المعاصرينَ من معاني القرآن ما لم يُدرِكْهُ من سبقَهم.

ولتعظيم مكانةِ القرآن في النفوسِ، والالتزامِ بقواعد التفسير المنضبط نقترح عددًا من العناوين التي ينبغي أن يتناولها الدعاة والعلماء بالتأليف والدراسة، وأن يتناولها الدعاة في مواعظهم وكلماتهم، منها:

أ-التواتر والنقل المتوارث وأثرُهُ في الثقةِ بالمنقول.

ب-التلاعب بالقرآن بشارةٌ نبويّةٌ متضمّنةٌ دعوةً إلى العمل لمواجهتِه.

ت-تحريف القرآن بين الشيعة والحداثيين: (التحريف النصّيّ والتحريف الفكريّ).

ث-علم أصول التفسير وأثرُهُ في نقضِ الحداثةِ.

ج-نقضُ عرَى الإسلامِ ودَور التفسيراتِ المعاصرة للقرآن في ذلك (الصوم نموذجًا).

ح-علوم الآلة: (اللغة العربية وعلم أصول الفقه) ودورُها في حماية القرآن الكريم والشريعة الإسلاميّة.

ثانيًا: تأكيد مكانة السنة النبويّة في التشريع الإسلاميّ.

السنّة النبويّة المشرّفة هي المصدر الثاني للأحكام بعد القرآن الكريم، شارحةٌ لألفاظه، مبيّنةٌ لمجمله، محفوظة بحفظ القرآن لارتباطها به، ولعدم التمكّن من العمل بالقرآن إلاّ بعد معرفة السنّة.

وقد امتدّت أيدي العابثين وأقلامُهم إلى السنّة النبويّة محاولةً أن تهدم أصولًا وثوابت عند المسلمين سعيًا إلى تضليل الأمّة وزعزعة الإيمان في نفوس أبنائها، ومن أهمّ الموضوعات الفرعيّة المقترحة لتأكيد مكانة السنّة في التشريع الإسلاميّ التي يمكن أن يثيرها الدعاة ويتناولها المؤلّفون والعلماء بالدراسة:

أ-علوم السنّة وأثرها في حفظ السنة.

ب-مكانة السنة في تشريع الأحكام والاعتقادات، ومعرفة الغيبيّات، واستنباط أحكام السياسة الشرعيّة.

ت-أهم الشُّبَهِ التي تُواجِهُ السنة والردود عليها.

١ – السنة نقل أشخاص قد ينسون ويكذبون.

٢ – تصحيح المحدثين وتضعيفهم اجتهاد.

٣ – السنة جمِعت بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بمائتي سَنة.

٤ – الأحاديث التي فيها إشكالات علميّة مزعومة.

٥ – السنة العمليّة المتوارثة ومكانتها بين أدلة الشريعة.

ثالثًا: الاهتمام بفقه السياسة الشرعيّة والمقاصد.

السياسة الشرعيّة تعني سياسة الحياةِ وفق أحكام الله تعالى، وإدارة الحكم بما يحقق للأمّة سلامةَ العقل ونقاءَ الفكر وكمالَ العفّة، والاهتمامَ بأمور المسلمين وتقوية ارتباطهم بالله تعالى من خلال نشر العدالة والشورى والحرية وحقوق الإنسان.

وممّا لا تهتمّ به كليّات الشريعة في البلاد التي يحكمها الظالمون السياسة الشرعيّة؛ لأنّهم يحسبون أنّ أيّ ربطٍ بين الشريعة والحياة سيؤدّي إلى إنهاء حكمهم، فأوهموا الناس بعلمانيّتهم أنّ الشريعة ينبغي أن تكون حبيسة المساجد، قابعة في الدور، ليس لها اهتمام بشؤون الحياة ولا متابعة لأحوال الناس.

وممّا قلّ الاهتمام به أيضًا بين المشتغلين بالدعوة دراسةُ علم المقاصد، الذي يبيّن حِكَمَ الأحكام، ويهتمّ بمآلاتها التي كان الفقهاء يضعونها نصب أعينهم إذا أرادوا الاجتهاد في الأحكام الشرعيّة، ومن هنا فإنّنا نقترح بعض العناوين للعناية بها وتناولها من الناحية العلميّة والدعويّة بما يعزّز ارتباط الدين بالحياة، واهتمام الدعاة بمقاصد الأحكام، ومن هذه العناوين:

أ-السياسة الشرعيّة باب من أبواب الفقه، وعلم من علوم الشريعة.

ب-الاهتمام بالجوانب السياسيّة لا يكون على حساب المبادئ والقيم.

ت-المقاصد ومكانتها في الشريعة.

ث-علم مقاصد الشريعة وتأثيره على الاجتهاد في القضايا المعاصرة.

ج-الاجتهاد في القضايا السياسيّة الشرعيّة: ضوابط وأحكام.

ح-الفرق بين السياسة الشرعيّة وعلم السياسة المعاصر.

خ-أهميّة تهيئة المتدينين للعمل السياسيّ العام.

رابعًا: إحياء معالم التاريخ الإسلاميّ.

التاريخ الإسلاميّ عمقٌ لهذه الأمّة، وامتداد هذه الأمّة الحضاريّ متعلّق بجذورها، وكلّما قويت معرفتها بتاريخها وتراثها قويت ثقتها بنفسها في مواجهة الأزمات المعاصرة، وقد كان من أهداف قصّ الله تعالى أنباءَ الرسل السابقين

تثبيت فؤاد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأصحابه.

ولعلّ استقراء التاريخ واستخلاص العبر منه من أهمّ الواجبات على الدعاة تثبيتًا للأمّة واستطلاعًا لحلول الأزمات في واقعها المعاصر، ومن أهمّ المباحث التي ينبغي أن يتعرّض لها الدعاة والعلماء في مناشطهم الدعويّة والعلميّة:

أ-التاريخ الإسلاميّ والسنة والفرق بين ضوابط النقل وقواعده.

ب-السير والمغازي (قانون الحروب والمعاهدات والسلم) وحجمها في تاريخ السنة النبوية.

ت-التاريخ الإسلاميّ ليس هو التاريخ الحربي.

ث-التاريخ الإسلاميّ بحاجة إلى مراجعاتٍ.

ج-التاريخ الإسلامي ليس مصدرًا تشريعيًّا.. لكنه مصدرٌ حضاريٌّ.

ح-الاهتمام بجوانب التاريخ الحضاريّ للأمّة.

خ-العناية برموزٍ تاريخيّةٍ مناسبةٍ لمرحلة الأمّة (عثمان ونور الدين زنكي مثالا).

خامسًا: إعادة إحياء الفكرة والمشروع الإسلامي كما طرحه رواده الثقات.

لّما كان العمل الجماعيّ من موجبات النجاح والتوفيق استهداء بقوله تعالى: {وتعاونوا على البرّ والتقوى} واستنارةً بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ((فإنّ يد الله مع الجماعة))، كان لا بدّ من مشروعٍ ينهضُ بهذه الأمّة، ولا بدّ أن يكون هذا المشروع محلّ اتّفاقٍ في كليّاته وعموماته، وفي هذا الجانب ينبغي على الكيانات التابعة للمجلس أن تعتني ببعض الموضوعات التي تبيّن هذا الجانب لعموم جمهور المسلمين، ومن أهمها:

أ-استحضار أركان المشروع الإسلاميّ وعناصره الأساسيّة (عدالة، حريّة، شورى، مشاركة، تداوليّة).

ب-صياغة مشروعٍ إسلاميٍّ مهمّةٌ جماعيّةٌ للأمّة، وليست مهمّةَ حزبٍ ولا جماعةٍ ولا فئةٍ كما يظنّ بعض العاملين في الساحة.

ت-وجود مجموعاتٍ عاملةٍ يُكمّلُ بعضُها بعضًا في المشروع الإسلاميّ (عدم الطعن في العاملين في سياق يخدم المشروع).

ث-المستأثرون بادّعاء المشروعيّة الدينيّة إقصائيّون (كلّ مجموعةٍ جماعةٌ من المسلمينَ وليست جماعةَ المسلمينَ).

ج-تؤمنُ القلوبُ بالمشروع الإسلاميّ قبل أن يُطبَّقَ في القوانين والأنظمة.

ح-الاهتمام بالجانب التربويّ والتزكويّ في المشروع الإسلاميّ أساس نجاحه.

خ-تنقيح المسار الفكريّ والديني عند شباب الأمة وتصحيحه بعيدًا عن الاندفاع الماديّ والتشدّد الغيبيّ.

د-القبول بالمسلم الآخر والاعتراف به أساس للقبول بغيره والانطلاق نحو المشروع الكامل المستوعِب.

سادسًا: مراجعة المراجعات والتراجعات في العمل الإسلاميّ المعاصر.

تقوم الجماعات الإسلامية بتراجعات ومراجعات بعضها يتمّ في السجون تحت ضغط الموقف، وبعضها يتمّ في الخارج بتوجيه من أجهزة أمنيّة، وبعضها يتمّ على يد أبنائها العاملين، ولهذا وجب على المخلصين أن ينظروا في المراجعات نظرة علميّة وواقعيّة، ليُستخلص منها أفكار تفيد في تفنيد آراء الجماعات الناشئة على ما نشأت عليه الجماعات التي تراجعت عن مواقفها. كما تجمد بعض الجماعات على فكرتها عقودًا من الزمان مما يؤدّي إلى تكلّس في تلك الجماعات وضعفٍ عن مواجهة تحدّيات الواقع.

من أهمّ المراجعات التي ينبغي أن تستمرّ؛ المراجعات الفكريّة والهيكليّة، ومراجعة التحالفات والمواقف المرحليّة، ويمكن أن يهتمّ الدعاة والعلماء في هذا الجانب ببعض الموضوعات والدراسات لتغطية هذه المسألة، منها:

أ-ضرورة المراجعات لتقويم العمل الإسلاميّ المعاصر.

ب-المراجعات التي تقوم بها بعض الفئات اليوم ناتجة عن ضغوط سياسيّة أو أمنيّة وليست مبدئيّة.

ت-التراجع عن الباطل أساس الانطلاق في الحقّ (التخلية أولًا).

ث-إلى أي مدى يمكن الوثوق بالمتراجعين؟ وكيف يمكن تبرؤهم من أفكارهم السابقة؟

ج-آليات المراجعة الحركيّة والفكريّة بين العاملين المعاصرين.

ح-فرصة الاجتماع في بلاد المهجر فرصة مميّزةٌ للمراجعات.

سابعًا: وقف التوجّه الليبراليّ والعلمانيّ والعقلانيّ المنفلت في فكر الشباب.

الليبراليّة تدّعي التحرّر الكامل، والعلمانيّة تدّعي فصل الدين عن الحياة، ووقوفها على مسافة واحدةٍ من الأديان جميعها، والعقلانيّة تدّعي تغليب الجانب العقليّ المادّيّ على الجانب العاطفيّ والروحيّ والنفسيّ في حياة الإنسان وصياغة اعتقاداته وصناعة أفكاره، إلاّ أنّ الواقع يقول إنّ الليبراليّة تقيّد الإسلاميّين عن العمل؛ بل تقيّد المرأة عن أبسط حقوق اختيار حجابها! والعلمانيّة تحارب الإسلام

دون النصرانيّة وغيرها من المعتقدات والطوائف والملل الموجودة في العالم.

إنّ مكوّنات المجلس الإسلاميّ السوريّ تحتاج أن تراجع علاقة الشعوب بهذه الأفكار، وتراجع واقع تطبيق هذه الأفكار، لتخلص إلى إقناع الشباب المسلم بضعف تلك الطروحات وعدم مناسبتها لإدارة الحياة، وعمق عدائها للمشروع الإسلاميّ، وأنّها ما أسّست إلا للضغط على الإسلام وأهله.

ومن أهمّ ما يمكن نقاشه في هذا الجانب:

أ-تهافت الفكرة العقليّة في التاريخ الإسلاميّ (المعتزلة).

ب-ميل الجمهور نحو تحكيم ما يسمونه (العقل) وأسبابه.

ت-عالم الغيب والتوازن بينه وبين عالم الشهادة.

ث-الليبراليّة المعاصرة زعمٌ ووهمٌ وليست حقيقةً.

ج-العلمانيون الجدد بعيدون عن منطق العلمانيّة.

ح-عداء العلمانيين والليبراليين للإسلام وحدَه دون غيرِه من الأديان والأفكارِ التي تعادي صُلبَ مشروعهم.

خ-أسباب اقتناع الشباب المتحمّس بالفكر الليبراليّ والعلمانيّ والعقلانيّ وعلاجها.

د-المنهجيّة العامّة لأهل السنّة والجماعة وأهميّتها في مدافعة هذه الأفكار، وعصمة الأمّة بمجموعها عن الخطأ (الإجماع).

ثامنًا: رد الاعتبار إلى الرموز الإسلاميّة، وروّاد النهضة العلميّة المعاصرة.

تكاد تكون الرموز التي يقلّدها الشباب من أخطر مداخل العالم الغربيّ إلى إضعاف هذه الأمّة، وفنّ صناعة الرموز من اللاعبين والمغنّين والمغنيات والممثلات لا يتوقف عند تقليد الشكل والشعر واللباس ومحاولة تقليد الجسم والوزن، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة تقليد الأفكار، وينجرّ الشباب إلى اتّباع من يقلّدونه حذو القذّة بالقذّة، فكرًا وعقيدةً وسلوكًا ومنهجًا.

من هنا تظهر الحاجة إلى ترميز بعض القدوات من المعاصرين والمتقدّمين، والاهتمام بالجانب الإعلاميّ في التعامل مع الشباب، ليجدوا محبوبًا مؤهّلًا للاقتداء به.

كما أنّ من ضحّى في سبيل العمل الإسلاميّ المعاصر يتعرّض لهجماتٍ إعلاميّة متتالية جعلت صورَتَه غير مقبولة في نظر جماهير المسلمين، بل تأثّر بعض العاملين للإسلام بتلك الهجمات بوجهٍ أو بآخر حتّى ظنّوا سوءًا ببعض رموز الحركات الإسلاميّة المعاصرة والعاملين فيها، وصدّقوا دعاية الفاجرين في ضرورة التمايز عنها، لئلاّ يُتّهَموا بالانتماء إليها، فالواجب على العاملين للإسلام أن يصدقوا في إعادة تقديم تلك الرموز للأمّة.

ومن أهمّ الموضوعات التي يمكن أن نتناولها في هذا الجانب:

أ-التذكير برموز الدعوة الإسلاميّة في عصر ما بعد الخلافة.

ب-الاهتمام برموز الفكر الإسلاميّ وأهم طروحاتهم.

ت-بيان ما لهم وما عليهم في دوائر التفكير وورش العمل المتخصصة (عبد الكريم الرفاعيّ، مصطفى السباعي، محمّد الحامد، عبد الفتاح أبو غدّة، حسن الترابي، راشد الغنوشي، علي عزت بيغوفيتش، محمّد الغزالي، أربكان .. مثلا)

ث-تقرير كتبهم النافعة لواقعنا المعاصر، المناسبة لحال الأمّة كمناهج دعويّة أو مناهج في المؤسسات العلميّة.

ج-إعطاء دورات حول أهمّ رموز الحركات الإسلاميّة في العالم المعاصر.

ح-مناصرة المعتقلين من رموز العمل الإسلاميّ.

خ-تصوير جوانب ينبغي الاقتداء بها عند هؤلاء المعاصرين.

الفعاليات والأنشطة:

الفعاليات والأنشطة المقترحة للعمل عليها في تلك المضامين، وجعلها عمليّة:

١ – مسابقاتُ حفظِ قرآنٍ وتفسيرٍ، عن طريق المؤسسات الرديفةِ والمسانِدَةِ، مع التوجيه بأن تكونَ هذه المسابقاتُ وعائيّةً نوعيّةً، وليست تقليديّةً، مثلًا:

أ-حفظُ آياتِ محاجةِ الكافرينَ في القرآن وأسباب نزولها ومعانيها.

ب-حفظُ آياتِ الحجابِ والسترِ والعفّةِ وتفسيراتها.

ت-حفظُ آياتِ الغزواتِ والمعاركِ وأسبابِ نزولِها... إلخ.

٢ – مسابقاتٌ بحثيّةٌ تخصّصيّةٌ أكاديميّة، وجماهيريّة طلابيّة، أو بين المراكز الفكريّة القائمة.

٣ – مهرجاناتٌ خطابيّةٌ، ولقاءاتٌ دعويّةٌ عامّة.

٤ – الاستفادة من المناسبات الدينيّة لعرض هذه المواضيع للجمهور.

٥ – بحوث تأصيليّة في مواضيع هذه المضامين تُنشَرُ في مجلّة المجلس الإسلاميّ وفي المجلاّت العلميّة المحكّمة؛ يستفادُ منها في صناعة المادّة الإعلاميّة لهذه المضامين.

٦ – تنظيم مؤتمرات بالتعاون مع الجامعات والمؤسسات العلميّة الأخرى في موضوعات هذه المضامين.

والحمد لله ربّ العالمين

المجلس الإسلامي السوري

SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيد آخر شهد عام ٢٠١١ مبادرات لإيجاد كيان جامع موحِّد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان ٢٠١٤، ليعلنوا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قرارًا مشتركًا يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا .

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.

مقاربات

مجلة فصلية

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري

SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

info@sy-sic.com

www.sy-sic.com syrian_ic

syrianislamiccouncil